سرد الذات

سلطان بن محمد القاسمي

سرد الذات

اسم الكتاب: سرد الذات "My Early Life"

اسم المؤلف: الشيخ الدكتور سلطان بن محمّد القاسمي

اسم الناشر: منشورات القاسمي

ص.ب: ٤٣٣٤٤ الشارقة، دولة الإمارات العربيّة المتّحدة

هاتف: ٠٠٩٧١٦٥٥٨٥٨٥٥

براق: ٠٠٩٧١٦٥٥٨٩٩٩٥

© حقوق الطبع والنشر والتوزيع محفوظة لمنشورات القاسمي

الطبعة الأولى: الشارقة، نوفمبر ٢٠٠٩م

الطبعة الثانية: الشارقة، يناير ٢٠١٠م

الطبعة الخمسة (منقحة ومزيدة): الشارقة، ٢٠١٢م

الترقيم الدولي:

ISBN 978-9948-16-851-5

الفهرسة الوصفية – مكتبة الشارقة:

سلطان بن محمّد القاسمي

سرد الذات:

القاسمي - الشارقة: منشورات القاسمي،الشارقة، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ٢٠١٢

ص٣٢٤؛ ١٧ X ٢٤ سم +صور فوتوغرافية

١. الشارقة-تاريخ ٢. الامارات العربيّة المتّحدة - الأحوال السياسيّة

٣. التعليم-تاريخ-الامارت العربيّة المتّحدة ٤. القوميّة العربيّة

٥. الشرق الاوسط-تاريخ-العصر الحديث

أ-العنوان

الغلاف: صورة المؤلف في أواخر سنة ١٩٤٩م

الدكتور سلطان بن محمد القاسمي

سرد الذات

منشورات القاسمي
٢٠١٢م

فهرس المحتويات

المقــدمــة	**١١**
الفصل الأول: أيام الطفولة	**١٣**
بيتنا	١٦
بيت عمّي المهجور	١٩
حصن الشارقة	٢٠
الفصل الثاني: الشيخ سلطان بن صقر القاسمي	**٢٩**
يوم العيد	٣١
مزرعة الفلج	٣٤
الشيخ سلطان يتوسط في مسألة رأس الخيمة	٣٥
إطلاق النار على الإنجليز	٤٨
إبعاد والدي عن الشارقة	٥١
مدرسة الإصلاح القاسمية	٥٢
مرض الشيخ سلطان بن صقر القاسمي	٥٤
الفصل الثالث: نائب حاكم الشارقة	**٥٩**
الحادثة	٦١
مصيف شعم	٦٢
مدرستي	٦٥
قطّاع الطرق	٦٨
وفاة الشيخ سلطان بن صقر القاسمي	٦٩
الشيخ محمد بن صقر القاسمي حاكماً للشارقة	٧٠
مواراة المرحوم التراب	٧٦

النزاع من أجل الحكم ٧٧
الشيخ صقر بن سلطان القاسمي حاكماً للشارقة ٨١
الفصل الرابع: تطوّر التعليم في الشارقة ٨٥
المرحلة الأولى: وهي العام الدراسي ١٩٥١ – ١٩٥٢م ٨٧
المرحلة الثانية: وهي العام الدراسي ١٩٥٢ – ١٩٥٣م ٩٤
المرحلة الثالثة: وهي العام الدراسي ١٩٥٣ – ١٩٥٤م ٩٧
المرحلة الرابعة: وهي العام الدراسي ١٩٥٤ – ١٩٥٥م ١٠٠
المرحلة الخامسة: وهي العام الدراسي ١٩٥٥ – ١٩٥٦م ١٠١
مشاركة كشافة الشارقة في المخيم الكشفي العاشر في الكويت ١٠٢
المدرسة الإنجليزية الخاصة ١٠٧
الفصل الخامس: الحج ١١٥
البحرين ١١٧
الدمام ١٢١
جدة ١٢٢
المدينة المنورة ١٢٥
مكة المكرمة ١٢٧
الفصل السادس: عدوان الثلاثي على مصر ١٣٣
الاستطلاع ١٣٥
العملية الأولى ١٤٠
العملية الثانية ١٤٣
العملية الثالثة ١٤٣
العملية الرابعة ١٤٦
صلاة الفجر ١٥٠

الفصل السابع: حوادث جرت في الشارقة ١٥٢
إبعاد المدرسين ١٥٥
امتحانات المتوسطة في الكويت ١٥٧
كبو السلاح ١٦٠
فراق الوالدين ١٦٥
حريق الشارقة ١٦٨
تحطم الطائرات الحربية في الشارقة ١٦٩
الفصل الثامن: رحلة إلى إيران ١٧١
الرحلة البحرية إلى لنجة ١٧٤
الطريق إلى شيراز ١٧٦
مدينة طهران ١٨٥
بحر قزوين ١٨٨
فتح مكتب لإسرائيل في طهران ١٩٠
الفصل التاسع: حزب البعث ١٩١
كشف إحدى خلايا البعث ١٩٥
ثانوية الشويخ ١٩٨
الانسحاب من حزب البعث ٢٠١
ترك الدراسة بالكويت ٢٠٥
الفصل العاشر: المدرِّس بالمدرسة الصناعية في الشارقة ٢٠٧
حادثة السفينة "دارا" "Dara" ٢١١
الشارقة والبترول ٢١٢
وفاة والدي ٢١٢
الشيخ صقر بن سلطان القاسمي حاكم الشارقة وإخوته ٢١٤

الوحدة الثلاثية بين مصر وسوريا والعراق ٢١٥
الإصابة في الساق ٢٢١
الاستقالة من المدرسة الصناعية بالشارقة والرجوع إلى الدراسة ٢٢٢
الفصل الحادي عشر: المد القومي في الشارقة ٢٢٥
وكلاء صهيون ٢٢٧
بعثة جامعة الدول العربية ٢٢٩
البعثة الفنية لجامعة الدول العربية ٢٣٣
بين الوزير البريطاني ومساعد الأمين العام لجامعة الدول العربية ٢٣٨
مقابلة بين حاكم الشارقة والوزير البريطاني ٢٤٢
عزل الشيخ صقر وتنصيب الشيخ خالد ٢٤٧
رئيس البلدية ٢٥١
الفصل الثاني عشر: الدراسة الجامعية (الجزء الأول) ٢٥٥
صدفة خير من ألف ميعاد ٢٥٧
الماء الملكي ٢٥٩
ضحك بلا سبب ٢٦٣
بين الجميلة والسبورة ٢٦٤
نادي العروبة ٢٦٥
القصر الجمهوري ٢٦٦
الدراجة الهوائية ٢٦٧
حرب يونيو ١٩٦٧م ٢٦٨
زيارة لمدينة كراتشي ٢٧٣
هدم البيوت في حي الشرق ٢٧٣
لاظوغلي ٢٧٤

عبدالعزيز نائباً للحاكم في خورفكان ٢٧٦
كنت نائباً للحاكم ٢٧٨

الفصل الثالث عشر: الدراسة الجامعية (الجزء الثاني) ٢٨٥

القرافة ومجرى العيون ٢٨٧
ما أكثر المؤمنين فيك يا مصر ٢٨٨
رابطة طلبة عُمان ٢٩٠
القائمة السوداء ٢٩٢
هدم حصن الشارقة ٢٩٦
صاحب الروح المرحة ٢٩٩
الجواسيس الإسرائيليون ٣٠٠
انفجار قنبلة ٣٠٥

الفصل الرابع عشر: الوطن ٣٠٧

مدير مكتب سمو الحاكم ٣١٠
اتفاقية أبو موسى ٣١٥
مولد دولة ٣١٦
أيام الشدة ٣١٧

المقدمة

كتبت هذا الكتاب لأوثق فيه تاريخ أهلي وبلدي، على مدى تسعة وعشرين عاماً، في أساليب من القول، بعد أن أزلت منه الغث أو ما اختلط به، وأسميته سرد الذات.

فالسرد هو إجادة سياقة الحديث؛ أما الذات فهي ما يصلح لأن يُعْلم ويُخْبَر عنه.

ولقد أغفلت كثيراً من الحوادث والروايات لأناس قضوا نحبهم، فذكرها يثير الضغائن التي سترها الله.

جاء في الأثر: «اذكروا محاسن موتاكم».

غفر الله لنا ولهم جميعاً.

المؤلف

الفصل الأول

أيام الطفولة

وُلدت يوم الأحد في الرابع عشر من جمادى الأولى سنة ١٣٥٨هـ، الموافق للثاني من يوليو سنة ١٩٣٩م، ووعيت أحداث الدنيا ولم أبلغ بعد الخامسة من عمري. كان ذلك في ربيع سنة ١٩٤٤م، حيث كانت الحرب العالمية الثانية قائمة، والقوات البريطانية وطائراتها الحربية تتجمع في المعسكر البريطاني، وهو تابع لمحطة الطيران في الشارقة.

قررت الولايات المتحدة الأمريكية أن ترسل قواتها إلى كل من اللّد في فلسطين والحبانية في العراق والبحرين والشارقة للتدريب، لإرسالها فيما بعد إلى شمال إفريقيا.

وفي بداية سنة ١٩٤٤م وصلت فرقة سلاح المهندسين الأمريكيين إلى الشارقة، وقامت ببناء مركز تدريب جيش الولايات المتحدة إلى الشرق من المعسكر البريطاني بالشارقة. نزلت القوات الأمريكية في الشارقة في أوائل شهر مايو سنة ١٩٤٤م. قام والدي بصفته نائباً لشقيقه حاكم الشارقة والذي كان حاضراً في الهند، بزيارة مجاملة

لقائد[1] تلك القوات، والذي أخذنا في جولة في معسكر القوات الأمريكية، بعدها دعانا إلى أن نركب معه في السيارة البرمائية المكشوفة، فجلست بين والدي والقائد. أما شقيقي الأكبر خالد وعمران بن تريم وجندي أمريكي فقد جلسوا في الجزء الخلفي من السيارة. عبرت السيارة بلدة الشارقة ونزلت في خورها، فتحولت إلى سفينة، ثم خرجت من الخور وعبرت بر الشوش، وهو لسان رملي يفصل الخور عن البحر المفتوح، فتحولت السفينة إلى سيارة مرة ثانية، ثم نزلت السيارة إلى البحر ذي الأمواج المتتالية، وتحولت إلى سفينة ترتفع وتهبط وهي تقاوم الأمواج، حتى إذا أصبحنا في عرض البحر، أصابني الدوار فتقيأت على ملابس القائد، فغضب مما حدث له فأدار الدفة وتوجه نحو الشارقة، لاغياً تلك الرحلة البحرية.

في الثامن من سبتمبر سنة ١٩٤٤م سقطت طائرة حربية في البحر بالقرب من قرية الليّة بالشارقة. كانت الطائرة تابعة للقوات الجوية البريطانية، وكانت تحاول الارتفاع بعد أن أقلعت من مطار الشارقة، فلم تستطع، فنزلت في البحر. أنقذ ملاحو الطائرة، والذين كانوا الوحيدين على ظهرها. ذهبت إلى شاطئ البحر مع شقيقي خالد، وإذا بالأقلام الملوّنة تقذفها الأمواج على الشاطئ القريب من مكان سقوط الطائرة، فأخذ شقيقي يجمعها ويقدّمها لي.

بيتنا

كنا نسكن في منزل ملاصق لمنزل عمي الشيخ سلطان بن صقر القاسمي، وهو خاص بزوجته عمتي لطيفة بنت سعيد. كان بين

---

١ قابلت ذلك القائد في سنة ١٩٧٤ في مدينة نيويورك بأمريكا.

المنزلين سياج من سعف النخيل وبوابة مشتركة للبيتين. لا أتذكر وجود عمي وأهله في ذلك البيت، ولا أتذكر وفاة ابنتيه عزة وعلياء هنالك، إلا أنني أتذكر الفتحة التي أحدثناها في سياج سعف النخيل، حيث كنا نحبو للمرور من منزل إلى آخر، أنا وأبناء عمي، عبدالله الذي كان يكبرني، وسعود الذي كان يصغرني. كنت أنظر إلى تلك الفتحة بشيء من الخوف والترقب علّي أرى رجليّ ذاك الجني، وهي كالمحاميس، خارجاً يجري من المرحاض الذي في ناحية من المنزل إلى غرفة بنات عمي في الناحية الأخرى ليقتلهما. هجر عمي ذلك المنزل وأمر ببناء منزل من سعف النخيل استعجالاً في هجر ذلك المنزل.

كان ذلك السياج من سعف النخيل يفصل بين بيت عمي المهجور وبيت والدي المعمور. كان لوالدي الكثير من الحشم، من أهل وجيرة وعبيد وخدم. كانت الضيوف تترى إلى مجلسيّ والدي، المجلس الكبير للعامة، والصغير للخاصة، ولا يمر يوم إلا وفي بيتنا وليمة. كانت الأطباق تخرج مليئة بالطعام من أبواب بيتنا الثلاثة، وأخرى تخرج إلى الدكك الخارجية للمجلس العام حيث يتوافد كثير من الجياع في فترة المجاعة، التي سببتها الحرب العالمية الثانية.

البوابة الغربية لبيتنا تفتح على ساحة صغيرة حولها بيوت أعمامي وبيت صغير لأولاد ابن ركاض إبراهيم وعلي، ومن خلف ذلك البيت ساحة صغيرة أيضاً، وكان بالقرب من تلك الساحة بيت قد تهدّم سوره، وبرز منه مخزن كبير، بابه مفتوح دائماً على الساحة، يقال لذلك البيت: بيت الدويش. وضع عمي ماجد به شاباً مجنوناً، موثوقاً بسلسلة حديدية مثبتة في صخرة. فإذا ما أحس المجنون بمرور أحد بالقرب من ذلك المخزن، اندفع من خلال بابه وهو يصرخ، فيخيّل

للمارة أنه طليق حتى تمنعه السلسلة من الخروج من باب المخزن. الطريق من خلال تلك الساحة والمرور بجانب مخزن المجنون، تؤدي إلى المسجد أو السوق أو إلى بيت المطوع فارس بن عبدالرحمن، وهو نجديّ، كان إماماً للمسجد ومعلّماً للأولاد في بيته.

كان بيت المطوع فارس قريباً من بيوت العائلة، لكن الخوف من أن ينفلت المجنون يمنعني من الوصول إليه. وبين ليلة وضحاها اختفى المجنون، وأُقيم سور بيت الدويش، وضُمّ إلى بيت عمي ماجد، فهدأت النفوس، واستمر التردد على بيت المطوع فارس. كنت صغيراً أتعلم جزء عم، أما الكبار من الفتيان والفتيات، فكانوا يختمون القرآن، واحداً تلو الآخر. فكان ختم القرآن ليس بحفظه، وإنما بقراءته القراءة الجيدة مع حفظ جزء عمّ.

كان من يختم القرآن يتخرج من المدرسة، بعد أن يقوم المطوع أو المطوعة بإقامة التحميدة، فإن كان ولداً أُلبِس الملابس النظيفة وأحياناً ملابس جديدة، أما أبناء الشيوخ والأغنياء فيُلبسون الخنجر الذهبي والغترة والعقال، ويخرج الواحد منهم مع أترابه، يقودهم المطوع، أو من ينوب عنه، يردد الدعاء، والفتيان من خلفه يؤمّنون بصوت واحد قوي أشبه بالصريخ: آمين.

ومن باب بيت إلى آخر يجمع المطوع، أو من ينوب عنه، العطايا.

أما بنات الشيوخ والأغنياء، فكن يلبسن الذهب على رؤوسهن وعلى صدورهن، وتُخضب أياديهن بالحناء.

أما بوابة بيتنا الشرقية فكانت تفتح على ساحة كان يحلو للصبية أن

يلهوا بها حتى ساعات متأخرة من الليل.

بيت عمي المهجور

كان السياج الفاصل بين بيت عمي المهجور وبيتنا قد سقط على الأرض، ولم يكن صالحاً لإعادته، فأمر والدي بإزالته. وبعد عدة سنوات تقرر فتح باب للغرفة الرئيسية في البيت المهجور من ناحية بيتنا، وإغلاق الباب الرئيسي المطل على البيت المهجور. وأسكنوا المدعّوة: جميعة، مربية شقيقتي ناعمة، في ذلك المخزن. أما الغرفة الثانية الملحقة فقد استُعملت مخزناً لأعلاف الأبقار والأغنام. وكان «إندينغي» مولى والدي، وهو رجل طويل القامة من أصل إفريقي، كثيراً ما كان يحملني على كتفيه، هو المسؤول عن تلك الأعلاف. مرضت جميعة، ولم يجدوا لها علاجاً، فماتت في ذلك المخزن. أما إندينغي، فقد ذهبت أبحث عنه فوجدته ميتاً على كومة من الحشائش التي تُقدَّم للحيوانات، في الغرفة الثانية الملحقة.

في تلك الفترة قام عيد بن خصيف المرافق العسكري لوالدي، بعد أن تزوج امرأة تدعى مريم، وبنى لها بيتاً من سعف النخيل في الساحة الأمامية للبوابة الشرقية لبيتنا، وألصق سور بيته بسور البيت المهجور، بيت عمي الشيخ سلطان بن صقر القاسمي، ناحية المرحاض، حيث يسكن الجني، كما كنا نتخيل.. وإذا بتلك المرأة الهادئة التي لم نسمع لها صوتاً منذ أن أقامت في ذلك البيت، تتحول إلى ما يشبه الشيطان، الشعر المكشوف منكوش، والعينان زائغتان، وصراخها يعلو، والزبد

يخرج من شدقها، ورجلان يمسكان بيديها وهما يشدانهما وكأنها تُصلب، وآخر يجلدها بشدة على ظهرها وهو يصيح بالجني:

«أخرج.. أخرج.. أخرج!».

كانت عيناها تحملقان، حتى إذا ما أتى نظرها إلى عينيّ، ارتعشت خوفاً من أن يخرج الجني من عينيها ويدخل في عينيّ، لكن عينيها أطبقت عليهما الأجفان، وتدلى رأسها على صدرها، والجلاد يجلد ويصيح:

«أخرج.. أخرج.. أخرج!».

وإذا بالسوط ينزل على جثة هامدة.

في تلك الليلة لم يكن أحد في ذلك البيت، وإذا بالنار تشتعل فيه.. حتى إذا ما هبّ الناس لإطفاء النار، وإذا بصوت إطلاق النار يأتي من وسط الحريق، فابتعدت الناس عن البيت، حتى أتت النار عليه.

أتى عيد بن خصيف يهرول، فتلقفه الناس بالملامة:

«لماذا تترك ذخيرة سلاحك في البيت»؟

عيد بن خصيف:

«الذخيرة معي، ولم أتركها في البيت».

تبيّن بعدها أن صوت إطلاق النار آتٍ من انفجار حبات الليمون الحامض الجاف.

حصن الشارقة

يقع ذاك الحصن إلى الجنوب من بيتنا، لا يفصله عنه إلاّ الطريق الواسعة المؤدية إلى أسواق المدينة، حيث نوافذ مجلسنا تطل عليه، فتمر

من خلاله القوافل في الغدو والرواح محملة بالبضائع لمن باع وابتاع.

هذا رجل يسوقه عسكري يحمل بندقية ويدفعه إلى الأمام عندما يحرن في مشيته، مُساقاً إلى الحصن، وذاك عائد منه مُطأطئاً لا تسمع منه إلا النشيج. وهذا رجل يتبختر في مشيته، وقد هندم هيئته، مشغول الفكر، ينمّق الكلمات التي سيلقيها على الشيخ، فإذا عاد تعلوه الابتسامة فقد أجزل له في العطاء، أما إذا كان مبرطما فقد عاد خائب الرجاء، ونحن نرقب كل ذلك صباحاً ومساءً.

حصن الشارقة مبنى مربع الشكل له أربعة أركان مهمة، أولها «الغرفة»، وهي أحد أركان الحصن، حيث تستعمل كمجلس للخاصة، وهي في الجنوب الشرقي من الحصن. يليها «المشرف»، وهو برج مربع يطل على الجنوب الغربي من الحصن، ويستعمل للحراسة. وإلى الشمال الغربي يوجد «الكبس»، وهو برج دائري، ويستعمل للحراسة أيضاً. أما «المحلوسة» فكانت برجاً ضخماً، وهي اسم على مسمى، حيث كانت غريبة في بنائها، يُستعمل الجزء العلوي منها للحراسة، أما الجزء السفلي فكان سجناً مرعباً..أما واجهة الحصن فتطل على ساحة الحصن، حيث تُشاهَد بوابة الحصن الضخمة المزينة برؤوس المسامير على هيئة كرات برونزية متلألئة. بين تلك البوابة والمحلوسة، وُضع في مكان ظلها عصراً كرسي خشبي كبير له مساند خشبية كذلك، ويُصعد إليه بدرجات من الخشب في جهتين منه..ومدفع كبير على عجلات من خشب، يسمى «الرقاص»، وآخر أصغر منه على عجلات كذلك.

أما إلى اليسار من البوابة فهناك سجن التوقيف، له شباك يطل على الساحة، يستطيع السجين أن يتحدث منه إلى أقربائه. وبين السقف

والشباك فتحة صغيرة للتهوية. أما باب ذلك السجن فينفتح في الصالة الداخلية التابعة للبوابة، يُقال لها «الإصباح»، حيث الحراسة مشددة. كان في سجن التوقيف أحد المتهمين، وكان ذا سوابقٍ في السرقة، قُطعت يده اليمنى في سرقات سابقة، وإذا به يقوم ليلاً بسرقة مدفع برونزي صغير، يصعُب على شخص بيد واحدة وذاك الجسم الضئيل أن يحمل ذاك المدفع ويخرج به من فتحة التهوية العلوية، ويهرب من السجن. فتتبعوه، فوجدوه مختفياً في كومة من الحشائش، وهو يحتضن المدفع.

يلي ذاك السجن مخزن التموين، والذي يديره أحد موالي الشيخ، ويُدعى ابن كلبان، يوزع الكيروسين والفحم وبعض الأطعمة على بيوت العائلة المالكة. ويليه مرآب السيارات، والذي كان يفتح بابه في إسطبلات الخيول.

فوق تلك الأماكن الغرفة التي يجلس فيها الشيخ، وأمامها السطح المكشوف، يليه «الساباط» المسقوف، وكلها تطل على الساحة الأمامية للحصن، حتى إذا ما حلّ المساء وتجمّع إخوة الشيخ سلطان مع أبنائهم لتناول طعام العشاء، أخذ القوم يحتشدون أمام حصن الشارقة، زرافاتٍ ووحدانا؛ ليستمعوا لنشرة أخبار الحرب، وكانت في أواخرها سنة ١٩٤٥م، فكان صوت المذياع (الراديو) يأتيهم من إحدى نوافذ الغرفة بالطابق العلوي للحصن.

هؤلاء القوم نصفهم كان مؤيداً للحلفاء والنصف الآخر كان مؤيداً للمحور، فكانت الأخبار من الإذاعة الألمانية بصوت المذيع العراقي سليط اللسان، يونس بحري، تُغضِب مؤيدي الحلفاء.. وكذلك الأخبار الآتية من هيئة الإذاعة البريطانية لخدمة الشرق الأوسط، بصوت المذيع الشامي

منير شما، تغضب مؤيدي المحور. ومن النوافذ المطلة على الساحة الأمامية للحصن نشاهد الشجار بين الفريقين.

أما بقية الأماكن في الحصن، ففي الجزء الجنوبي كانت تسكن والدة الشيخ صقر بن سلطان القاسمي، أما الجزء الشمالي فقد كان مخصصاً لسكنى الشيخ صقر بن سلطان القاسمي وزوجته وأولاده.

أمام واجهة الحصن مبنى كبير، نصفه مبني بالكامل، وبه نوافذ، والنصف الآخر عبارة عن سقيفة. يقال لذلك المبنى «الساباط»، تنزل به أعداد كبيرة من البدو ضيوفاً على الشيخ. وإلى الجهة الشمالية من السابط بئر للاغتسال، أما الجهة الجنوبية منه فكانت مناخاً للإبل. بين الحصن والساباط غُرزت سارية غليظة، طرفها العلوي متفحم، يُربَط الخارجون على القانون من سُرّاق ومجرمين عليها، يُقال لها «حطبة التوبة». عندما كان يُربط السارق أو المجرم على السارية، نتحلق نحن الصبية حول السارية، حينما يجلد السارق والمجرم، ويحدث الجدل بيننا حول الجزء المتفحم من السارية، وقد قال بعض الصبية:

«تشعل النار في هذا الجزء العلوي من السارية، وتأخذ بالاشتعال إلى أسفل ناحية السارق. فإذا أحس باقتراب النار إليه اعترف مباشرة».

قلت لهم: «نحن يومياً هنا نشاهد هذه العقوبات، ولم نشاهد ناراً أُشعلت، وهذا الجزء المتفحم موجود منذ أن وعينا».

سألت والدي عن ذاك الجزء المتفحم من السارية. فروى لي الحكاية التالية:

يقول والدي: «في عهد والدي الشيخ صقر بن خالد القاسمي حاكم الشارقة، كان هناك رجل أدكن أعمى، يُقال له «باسيدوه»،

يسكن في حارة آل علي في الشارقة. في يوم عاصف بريح يقال لها «السهيلي»، وهي جنوبية، خرج باسيدوه فيه يستدل على طريقه بعكازه إلى سوق السمك، ليسترزق سمكاً من الصيادين، حتى إذا ما رجع إلى خيمته المتهالكة بسعفها وخيشها، وأوقد النار ليشوي أسماكه في خيمته اشتعلت الخيمة ناراً، فاحترق باسيدوه ومات محترقاً.

النار لم تكتفِ بباسيدوه وخيمته، بل طالت بيوت السعف وأرسلت إلى الغرب منها لهباً، يتراقص على البيوت المشتعلة، ثم يتناول عنان السماء ليلفظ إليها ما خف وزنه، بعد أن لاكت النار وابتلعت تلك البيوت، وخلّفت غنماً وأبقاراً متفحمة في مرابطها. كانت تلك المواد المتطايرة، منها المتفحم والمشتعل، تنقلها الرياح الشديدة ناحية خور الشارقة، حيث كان هناك بالقرب من الشاطىء سفينة للغوص لاستخراج اللؤلؤ، تُسمى «غالب»، مالكها ابن مذكور، فالتصقت قطعة مشتعلة من التي تقذفها الرياح بقمة سارية السفينة، وإذا بالنار تقضم تلك السارية من قمتها متجهة إلى الأسفل، حتى إذا ما وصلت النار إلى ارتفاع قامة أو تزيد من ظهر السفينة، شوهد الشيخ صقر بن خالد القاسمي، حاكم الشارقة، قادماً على حصانه من جهة طريق «السيف»، فأمر أن تُقطع الحبال التي تثبت السارية في السفينة، ويُرمى الجزء المتبقي من السارية في البحر لتنطفئ النار بماء البحر. ثم أمر أن يُنقل الجزء المتبقي من السارية إلى أمام الحصن ليُغرز بالأرض هناك، ليُربط بها السارقون والمجرمون، وقد عُرفت بحطبة التوبة».

بالأمس كان ذاك الجزء من سارية السفينة يُربط به الغواصون الذين يتمارضون عن النزول لقاع البحر لاستخراج اللؤلؤ، خوفاً من أسماك القرش، التي كانت تهاجم الصيادين، أو قلة النَفَس، حيث يخرج الغواصون وهم يهذون بما تخيلوه عن حياة الجن في قاع البحر، أو تأثر طبلات آذانهم لشدة ضغط الماء عليها، فيوسمون تحت آذانهم. واليوم يُربط بها المتهمون ويُجلدون لانتزاع الاعتراف بذنوبهم.

إلى الجنوب من حطبة التوبة مجموعة من المدافع القديمة، مسندة أطرافها ناحية فوهاتها على جذع نخلة، ولم تكن تستعمل ألبتة. وكان المدفع الذي يستعمل لإطلاقه لتحية ضيف أو إعلان عيد هو المدفع الصغير ذو العجلات الخشبية. كان ضيف الشارقة ذات مرة الأمير سعود بن عبدالعزيز آل سعود، وقد كان في طريقه إلى الهند، ماراً بمطار الشارقة، حيث دعاه الشيخ سلطان بن صقر القاسمي حاكم الشارقة لتناول القهوة في مجلسه في الحصن. كانت الأوامر قد صدرت للعسكري المكلف بإطلاق المدافع أن يطلق طلقة واحدة عند نزول الضيف من السيارة أمام باب الحصن. حاول ذاك العسكري مع مجموعة من العساكر دفع المدفع الصغير، والموجود بقرب بوابة الحصن، حيث نزول الضيف من السيارة، إلى مسافة بعيدة من البوابة، لكنهم لم يستطيعوا تحريك المدفع فقد حرن في مكانه.

نادى بنا العساكر لكي نساعدهم، وكنا مجموعة من الصبية تجمّعنا لمشاهدة الضيف القادم إلى الحصن. وكان يقف إلى جوارنا رجلان كانا مرافقين للشيخ محمد بن حمد الشامسي، شقيق الشيخ راشد بن حمد الشامسي، شيخ بلدة «حماسة»، كان قد نزل ضيفاً على والدي، وأقام هو

ومرافقاه في المجلس الخاص في بيتنا. كان أحد الرجلين يدعى «الحاس»، والآخر يدعى «جميع»، واشتركا معنا في دفع المدفع، والذي أبى أن يتحرك. عندها قرر العسكري المكلف بإطلاق المدافع أن يستعمل أحد المدافع القديمة، والمسنودة إلى جذع نخلة. أخذ العسكري يحشو المدفع القديم بالبارود وقطع الخيش. وكنا جميعنا من حوله، والصدأ يتناثر من سطحه الخارجي، ويتجمع على الأرض تحته، حتى إذا ما انتهى من حشو المدفع، وضع كمية من البارود على الفتحة الضيقة في مؤخرة المدفع، وعندما وصل الضيف وضع جمرة في طرف جريدة نخل، وطلب منا أن نبتعد عن المدفع. و ما إن وضع الجمرة على مؤخرة المدفع، حتى انفجر، وتناثر شظايا في غيمة من الدخان، وإذا بـ«جميع» يسقط على الأرض، وقد أصابته شظية أزالت لحم أحد خديه، وكشفت عن أسنانه.

في مناخ الإبل كان الإنجليز يأتون بالسينما مرة كل أسبوع ليعرضوا انتصاراتهم فقط وليس هزائمهم في الحرب العالمية الثانية.

كان ذلك المكان مليئاً بالقراد والحَلم، وهو أكبر من القراد، تساقطت هناك من الإبل. وعلى فترة عرض الفيلم، كان الحضور يحكّون سيقانهم وأرجلهم من قرض القراد والحَلم الذي كان يمصّ الدم من أجسادهم.

تفتح بوابة الإسطبلات، الملاصقة للحصن من الجهة الجنوبية، والتي سورها الغربي من بقايا سور الشارقة، في ساحة مسجد البدو. كنت أتدرب على ركوب الخيل في حوش الإسطبلات.. وعندما حان خروج أبناء عمي بخيولهم إلى الصحراء، والذين هم أكبر منّي سناً، طلبت من «سعيد الخيل»، وهو المسؤول عن تدريبنا على ركوب الخيل، أن أخرج معهم، فوافق، لكنه خاف أن تجمح بي الخيل، فقرر أن يأخذنا جميعاً في جولة

في طرقات بلدة الشارقة، ومنها السوق. فإذا ما وصلنا إلى سوق السمك الغربي، وإذا بصف من النساء يفترشن الأرض بأنواع من الخضروات: فجل وبصل وطماطم وبطيخ وشمام وريحان. كانت خيلي أقرب للنسوة اللاتي تركن خضرواتهن وابتعدن. فأخذت خيلي تلتهم تلك الخضروات، وتغوص حوافرها في البطيخ والشمام، ولم أكن أستطيع أن أسيطر على الخيل؛ أسرع «سعيد الخيل» بحصانه ليدفع بخيلي إلى وسط مجموعة الخيول، لكن حصانه أخذ يرقص على ما تبقى من خضروات.

تعالت أصوات الناس في السوق وأخذوا يلوحون بأيديهم مما أخاف الخيل فأفلتت، وانطلقت في السوق.. وقدّر الله لم يصب أحد بأذى. اشتكت الناس لدى الشيخ سلطان بن صقر القاسمي، فوبّخ الجميع منا، وعوّض المتضررين، وأصدر أمراً بعدم دخول الخيول أسواق الشارقة وطرقاتها.

الفصل الثاني

الشيخ سلطان بن صقر القاسمي

كان الشيخ سلطان بن صقر القاسمي حاكماً للشارقة، وشقيقه الشيخ محمد بن صقر القاسمي نائباً للحاكم؛ أما أخوهما الشيخ ماجد بن صقر القاسمي فقد كان يجلس في سوق عرصة الفحم، يستمع لشكاوى الناس ليحلّها أو يدفع بها إلى قاضي البلد - ويُسمَى «الشرع» - وكان يومها الشيخ سيف بن محمد بن مجلاد، والذي كان يتقاضى لديه الناس في مجلسه العامر. فكان يرسل الأحكام إلى الشيخ سلطان بن صقر القاسمي لتنفيذ ما جاء بها أو التصديق عليها. أما وزير الشيخ فكان السيد إبراهيم بن محمد المدفع، وينحصر عمله في المراسلات والعلاقات الرسمية مع الآخرين.

يوم العيد

الناس ترقب هلال العيد عند غروب شمس ذلك اليوم، بعد صلاة المغرب. وفي ذاك الهدوء التام يدوي صوت المدفع، معلناً بأن

غداً العيد. يُسمع بعده طنين الناس، فتزدحم بهم الأسواق، بمن تأخر في تجهيز نفسه للعيد، أو جاء للفرجة، هذا جاء لشراء ملابس العيد، وذاك ينتظر دوره لدى «المحسّن» - أي الحلاق، والآخر جاء لشراء ما يحتاجه في تقديم «الفوالة» وهي ما يُقدَّم للضيف من حلوى ومنفوش وبشمك، ويُصنع من الطحينية، التي تستخرج من هرس السمسم، يقال لها «هردة». قبالة دكان المحلوي تيمور، وهو الذي يقوم بصنع الحلوى وبيعها، هناك دكان به طاحونة، يدور حولها حمار معصوب العينين، لا يتوقف عن الدوران، يقال له حمار الهردة، فصار ذلك مثلاً، فإذا قلت لإنسان: لا تُحمِّل هذا العامل فوق طاقته، يقول لك: لا تخف! هذا حمار الهردة!

صباح يوم العيد خرجت الناس في زينتها، واتجهوا إلى المصلى، والذي كان يبعد عن المدينة بمقدار كيلومتر واحد ونصف الكيلومتر، به منبر أسمنتي بثلاث درجات يقف الخطيب عليه، مواجهاً للصفوف المتراصة. وخطيب الأعياد والجمع الشيخ سيف ابن محمد بن مجلاد، صاحب الصوت الجهور.. الرجال والفتيان في الصفوف الأمامية، وفي مقدمتهم الشيخ سلطان بن صقر القاسمي وإخوته وذووه وأعيان البلد، أما النساء فكنّ في الصفوف الخلفية، وبأعداد قليلة، فإذا ما فرغوا من صلاة العيد، توجهوا إلى البلد، فإذا ما شاهد أحد الحراس من الحصن قدوم الناس بأثوابهم البيضاء، أمر بإطلاق المدفع، فيتيقن من يصلهم صوت المدفع قائلين: عيّدت الشارقة.

يتوافد إلى الحصن المهنئون للشيخ سلطان بن صقر القاسمي بالعيد. ومن بين مَنْ يفد كذلك مجموعة الحرس التابعة للشيخ لحراسة الطائرات،

وهم من أصل عُماني، أُسكنوا بالقرب من محطة الطيران في مكان يقال له «المناخ»، ورئيسهم يسمى ناصر الزيدي. فإذا كانوا في ساحة الحصن، أخذوا يغنون، وهم يرقصون، ويبرز من بينهم اثنان في أياديهم سيوف وتروس، ويقومان بتمثيل مشهد مبارزة، وفي آخر المشهد يطعن أحدهما الآخر، ويقوم بذبحه، ويبقى ممدداً على الأرض، فيوخزه بسيفه، فينهض واقفاً على رجله. والأولاد متحلقون حول المشهد، فإذا ما انتهى، أخذوا يجرون في السكك، ومن بيت إلى بيت، يطلبون «العيدية»، وهي قليل من النقود تُعطى للأولاد في ذلك اليوم.

أما في مساء ذلك اليوم، فيتوافد إلى شجرة الرولة، الوارفة الظل، الرجال والفتية والفتيات والأطفال. وتُعلَق الحبال على الأغصان الكبيرة من شجرة الرولة، وتجلس الفتيات في صفين على الحبال، وتشبك كل فتاة أصابع رجليها بالحبال التي تجلس عليها الفتاة التي تقابلها، فتتكون المرجيحة من ثماني فتيات. أما الفتيان فيقومون بشط المرجيحة، أي إبعادها إلى أعلى بكل عفة. تُباع تحت شجرة الحلويات والمكسرات.

أما شيخ الشارقة، فيجلس على الكرسي الكبير وحوله أقرباؤه وأعيان البلد، لتلقّي التهاني بالعيد، وإلى جانبهم تُقام رقصة «العيالة».

أما يوم الجمعة فيخرج الشيخ سلطان من أحد بيوته، أو الحصن، متجهاً إلى المسجد الجامع، تتبعه حاشيته، ويتقدمه أحد العساكر حاملاً بندقيته للدفاع عن الشيخ. أما الشيخ نفسه، فكان يحمل سيفاً ذهبياً معكوفاً يُقال له «الكتارة».

مزرعة الفلج

أقام عمي الشيخ سلطان بن صقر القاسمي مزرعة كبيرة في منطقة «الفلج» إلى الشرق من برج خزام، كما بنى بالقرب منها استراحة. كانت المزرعة مكونة من بئرين ثُبتت عليهما مضختان للمياه، تصبان في حوضين كبيرين. كان الحوض الغربي قد خُصص للاستحمام، وقد غُطيّ بتعريشة تسلقت عليها أشجار الياسمين، التي كانت أزهارها تتساقط على رؤوس المستحمين. كانت أشجار الياسمين قد زُرعت في قاعدة مضلّعة ومكسوة بالقيشاني المزخرف بأشكال الورود في وسط الحوض. أما حول الحوض فقد زُرِع بالرياحين، وأسراب من الغزلان تجري هنا وهناك.

اعتاد عمي الشيخ سلطان أن يأخذ معه إخوته وجميع أبناء العائلة إلى تلك المزرعة، فكان يركب معه في سيارته الخاصة إخوته؛ أما أبناء العائلة فكانوا يركبون السيارة الكبيرة، وهي بمثابة حافلة، ويغنّون في الذهاب والإياب.

رَبْــــعٌ شــــميمية	في الحـــرب حمقيـــة
يردون حـــوض المنيــــة	ورد الإتــــــــلافِ
الإتـــلافِ... الإتـــلافِ	
ســـيل بلا جـــادِ	وأســـقى على الـــوادي
من بارقٍ في تلايا الليل رفّافِ	
رفّـــافِ... رفّـــافِ	

الشيخ سلطان يتوسط في مسألة رأس الخيمة

في صباح يوم من أيام الأسبوع الأول من شهر فبراير من سنة ١٩٤٨م كنت أجلس مع شقيقتي ناعمة، والتي كانت تصغرني سناً، على التلة المطلة على الطريق الواصل بين منطقة «النخيل» وبلدة رأس الخيمة – إحدى تلال «الخرّان» الذهبية اللون. كنا نبني بيوتاً من الرمال المبللة بماء المطر، الذي نزل فجر ذلك اليوم، وكنا نزين تلك البيوت بالأزهار البرية التي جمعناها، فكانت زاهية ومتعددة الألوان.

الهدوء يخيم على المنطقة، ونسيم الصباح ينفح وجهينا بهبة ريح باردة، حتى إذا نظرنا إلى الشرق امتد بصرنا إلى السهول المرصعة بأشجار «السمر» التي كانت تتناهى عند قواعد الجبال الشاهقة الممتدة إلى الشمال لتلتقي مع العقد الأخضر الذي كان على ضفاف السهول من الناحية الغربية.

كان ذلك العقد الأخضر يمثل مجموعة القرى الصغيرة الملتفة بأشجار النخيل العالية. أما إذا امتد بصرنا إلى الشمال فنشاهد خور رأس الخيمة، وعلى ضفتيه مدينة رأس الخيمة إلى الغرب، وقرية «المعيريض» إلى الشرق، وبحيرة الخور تمتد إلى الجنوب نحو تلال الخرّان الرملية، تفصلها عن التلال أرض السبخة، المغطاة بشجيرات الطرفاء، وبعض أشجار الغاف القريبة من التلال الرملية، حيث ترد الأبقار إلى ماء «الشرح»، وهو حفر في الأرض على شكل حوض تتجمع فيه مياه الأمطار.

إلى الجنوب منا القلعة المبنية بالطوب، ويُقال لها قلعة الشيخ سلطان بن سالم القاسمي، وقد برزت من شرفاتها بندقيتان مصوبتان نحو

القادم من رأس الخيمة، وإذا بالصوت يأتي من شرفة القلعة:

«قف.. قف!».

وإذا بـذاك القـادم مـن نـاحية رأس الخيـمة ومعه أربع نساء يسقطن معه على الأرض بينما كانوا يصعدون التلة التي نجلس عليها. صـاح ذاك القـادم بـاكياً، حيـث أصـابنا الذعر من صوته الأجش وشكله المخيف:

«يا هارباً من الموت.. تلقى الموت قدامك».

الصوت القادم من شرفة القلعة:

«سكون.. سكون.. (وكان ذاك اسمه) عليك الأمان!».

سكون:

«آه يا صقر.. آه يا خالد».

سكون هو تابع للشيخة عائشة بنت صقر القاسمي، والدة صقر وخالد ابنَيْ الشيخ سلطان بن سالم القاسمي، حاكم رأس الخيمة؛ النسوة اللاتي ذهبن إلى منزلنا، تحدثن عن انقلاب حدث في رأس الخيمة على يد الشيخ صقر بن محمد القاسمي، ابن أخ الشيخ سلطان بن سالم القاسمي، وأن صقراً وخالداً قد فرا من رأس الخيمة، ولا يعلمن عنهما أي شيء.

كنت واقفاً خارج المنزل أنتظر وصول السيارة التي سبقها صوتها إلينا، فإذا بها سيارتنا، فنزل منها والدي، الذي قد خرج منذ الصباح بسيارته، والتي كان يسوقها السائق عبدالله بندري، ونزل معه شابان هما صقر وخالد ابنا شقيقته الشيخة عائشة بنت صقر القاسمي، زوجة الشيخ سلطان بن سالم القاسمي، حاكم رأس الخيمة، وكان

معهم المرافق العسكري لوالدي، ويدعى عيد بن خصيف، فدخلوا في المجلس الخارجي، وهو عبارة عن خيمة تبعد قليلاً عن مجموعة الخيام التي تمثّل المنزل، واصطحبني والدي معه إلى المنزل.

هنالك روى والدي ما حدث قائلاً:

«عندما وصلني الخبر بأن الشيخ صقر[1] بن محمد بن سالم القاسمي قد احتل حصن رأس الخيمة، وأن صقراً وخالداً هناك في رأس الخيمة، أسرعت لإنقاذهما».

يقول والدي بأنه ذهب إلى بيت الشيخ حميد بن محمد القاسمي، فوجد أن خالد بن سلطان قد التجأ إليه. ولما سأل عن صقر قيل له بأنه هرب على دراجة نارية من بيته في رأس الخيمة في الصباح الباكر.

قلت بأنني شاهدت دراجة نارية مسرعة في الصباح الباكر على الطريق أسفل التلة، قادمة من ناحية بلدة رأس الخيمة، متجهة إلى الشرق.

قال والدي:

«هذا صحيح، فقد لجأ صقر إلى بعض أصدقائه في قرية «خت»، وقد استدللت على مكانه بعد استفسار عن سير الدراجة النارية التي ذكرها سلطان، وهم معي الآن في المجلس».

انتشر في منزلنا خبر وجود صقر وخالد في المجلس، وإذا بالزغاريد من النسوة التابعات للشيخة عائشة والدة صقر وخالد تملأ المنزل، وتسابقن للوصول إلى المجلس لمشاهدة صقر وخالد وتقبيل أياديهما.

---

١ والدة الشيخ صقر بن محمد بن سالم القاسمي هي حصة بنت صقر القاسمي أخت والدي محمد بن صقر القاسمي غير الشقيقة.

قال والدي بأنه سيأخذهما إلى والدتهما، شقيقته، في الشارقة. فقلت:

«سأذهب معك».

فقال لوالدتي: «أحضري له بعض الملابس».

كان الوقت ظهراً، عندما ركبنا السيارة، بعد أن تناولنا غداءنا، متجهين إلى الشارقة. جلست مع أبي في المقعد الأمامي للسيارة. أما في القسم الخلفي من السيارة فقد جلس صقر وخالد ابنا الشيخ سلطان بن سالم القاسمي، والمرافق العسكري لوالدي عيد ابن خصيف. كما ركب معهم ضيف والدي العماني من بلاد جعلان، شخص دمث الأخلاق، طيب النفس، مزّاحاً، ضحوكاً، مضحكاً، له لحية بيضاء وبشرة سمراء، يلبس ثوباً أبيض، وخنجراً من فضة، وعصابة من صوف.

كان والدي وابنا شقيقته واجمين، بعد ذلك المصاب، السيارة تئن كأنما هي الأخرى أصيبت وتتمايل يمنة ويسرة وهي تطوي الطريق الرملي، فتقدم الجعلاني إلى ناحية الفتحة الموجودة بين مقدمة السيارة، حيث أجلس مع والدي، ومؤخرتها حيث يجلس هو. وأخذ ينشد تارة، ويروي الحكايات تارة أخرى، حتى رأيت والدي يبتسم ويحاور الجعلاني.

لم تتوقف السيارة، وهي في طريقها إلى الشارقة، إلا مرة واحدة لصلاة العصر. وصلنا مدينة الشارقة عصر ذاك اليوم، حيث توقفت السيارة أمام باب بيتنا، وكذلك في نفس المكان أمام باب بيت عمتي زوجة والدي الثانية.

أمر والدي السائق عبدالله بندري أن يأخذ ابني شقيقته إلى حيث تتواجد والدتهما. أما أنا فقد أخذني معه ومعنا الجعلاني ويتبعنا المرافق عيد بن خصيف إلى المجلس العام في بيتنا، فوجد البيت مفتوحاً مع أنه خالٍ من السكان. قال والدي لابد أن يكون سالمين بالداخل، سالمين بن سويلم من أهل عُمان، من بلدة «نخل»، كان مملوكاً اشتراه والدي وأعتقه، لكنه فضّل أن يعيش معنا.

نادى والدي: «سالمين... سالمين!».

وأنا معه أنادي: «سالمين... سالمين!».

حضر سالمين... وهو يتكئ على رجل ويسحب الأخرى في مشيته — كان ذلك من أثر شلل أصابه في صغره.

والدي (مخاطباً سالمين):

«أسخن ماء ليستحم به سلطان، وضعه في الحمام الملاصق للمجلس».

أمر والدي المرافق العسكري عيد بن خصيف أن يذهب إلى دكان الحلاق عيسى نماكوه ويخبره أن يأتي.

بعد ذلك أخذني والدي معه إلى بيت عمتي، زوجته الأخرى، حيث كانت أخواتي وأخي الصغير حميد.

بعد أن اغتسل والدي وبدّل ملابسه خرجنا إلى المجلس، وقد حمل معه قطعة من الصابون وفوطة، حتى إذا وصلنا إلى المجلس لم نجد الحلاق عيسى نماكوه إذ لم يكن قد وصل.

أخذ والدي ينظر من خلال نافذة المجلس التي تطل على الساحة التي أمام بيتنا، وإذا بالحلاق نماكوه حاملاً شنطة الحلاقة يسرع، لكنه

لا يستطيع أن يزيد من خطواته، فكان يتمايل في مشيته كبندول الساعة، لقد تقوست رجلاه إلى الخارج.

والدي: «عيسى.. تأخرت كثيراً».

عيسى نماكوه:«السلام عليك يا شيخ محمد.. كنت أحلق لشخص.. وقد حلقت نصف شعر رأسه، فكيف أتركه؟!».

والدي: «يالله، احلق لسلطان!».

وضع نماكوه عدته على الأرض، ولف جسدي بقطعة قماش، وأخذ يقص خصلات شعري بمقصه، خصلة.. خصلة، ويضعها على قطعة القماش في حضني.. وأنا أتحسّر على ذلك الشعر الذي اعتنيت به وأنزلته على صدغيَّ كعناقيد العنب.. كيف سأشاهد أصدقائي. هم بشعورهم وأنا أقرع؟! فأجهشت بالبكاء.

والدي: «عيسى.. جرحت رأس الولد؟!».

عيسى نماكوه:«أنا ما استعملت الموسى.. أنا أقطع بالمقص فقط!».

بعد أن حلق نماكوه شعري، تاركاً لي أكثر من جرح، قام سالمين وغسل جسمي بالماء الدافئ، ووالدي يقول له:

«ادلك جسده بالصابون».

ثم أخذني والدي، ونشّف جسدي، وألبسني ثوباً كنت أحضرته معي مع الملابس الأخرى في الصَّرّة، وعصبت رأسي بشالي الأحمر.

بعد صلاة المغرب ذهبت مع والدي إلى الحصن حيث كان عمي الشيخ سلطان بن صقر القاسمي حاضراً في مكتبته في الحصن. قبّلت عمي على أنفه، حسب ما أوصاني والدي، فضمّني إلى صدره

وأجلسني بالقرب منه، ولم يكن بالمكتبة إلا عمي ووالدي وأنا معهما. أخذ والدي يشرح لشقيقه الشيخ سلطان ما حدث في رأس الخيمة، وبينما هو كذلك إذ دخل علينا أحد العساكر، وقال:

«الشيخ سلطان بن سالم القاسمي حاكم رأس الخيمة قد وصل عند باب الحصن».

أمر عمي الشيخ سلطان بإدخاله، وتقدّم ليستقبله، فإذا به هو مع ابنيه صقر وخالد. فأدخلهم عمي مكتبته، وعُقد مجلس عائلي، فالشيخ سلطان بن سالم القاسمي زوج شقيقة عمي ووالدي، وهما خالا صقر وخالد ابني الشيخ سلطان بن سالم القاسمي.

كان الشيخ سلطان بن سالم القاسمي مكسور الجناح، يستجدي عمي ووالدي للقيام بعمل أي شيء لإرجاع حكم رأس الخيمة إليه.

هذه ليست المرة الأولى التي أشاهد فيها الشيخ سلطان بن سالم القاسمي، فقد شاهدته قبل بضعة أسابيع عندما رافقت والدي في زيارته للشيخ سلطان في رأس الخيمة. يومها كان البدو قد تجمعوا محتجين لدى والدي في الخرّان، وأخبروه بأن الشيخ سلطان بن سالم يقطع أشجار الغاف المعمّرة في منطقة الجِرِي، وخاصة تلك التي لها فرعان لتستعمل لمؤخرة سفن «الأبوام» الكويتية، حيث بدأت السفن الكويتية السفّارة تتحول إلى استعمال الماكينات بدلاً من الأشرعة، وقد شاهدت بنفسي بعيرين يحملان جذع شجرة كبيرة موثوقاً بينهما.

رفض الشيخ سلطان بن سالم أن يستمع لنصح والدي.

رجع والدي إلى الخزّان، وأخبر البدو بما دار بينه وبين الشيخ سلطان بن سالم.

أخبر الشيخ سلطان بن سالم عمي الشيخ سلطان بن صقر بأن أخته الشيخة فاطمة بنت سالم القاسمي كانت موجودة في حصن رأس الخيمة وقت دخول الشيخ صقر بن محمد القاسمي الحصن، حيث كانت في الدور الأرضي، فصرخت في وجوه البدو الذين نعتتهم بالخونة. يقول الشيخ سلطان بن سالم بأن ابنه خالد قد أخبره بذلك، فقد علم به عندما كان في بيت الشيخ حميد بن محمد القاسمي. وقد علم كذلك بأن الشيخ صقر بن محمد قد أمر البدو بعدم الدخول إلى الدور الأرضي والاكتفاء باحتلال الدور العلوي ومدخل الحصن حفاظاً على كرامة عمته.

كان الشيخ سلطان بن سالم القاسمي وقتها يريد أن يخرج أخته من الحصن، ويحضرها إلى الشارقة، وإيجاد حل لمسألة الحكم في رأس الخيمة.

تعهّد عمي الشيخ سلطان بن صقر القاسمي بأنه سيذهب بنفسه إلى رأس الخيمة لمقابلة الشيخ صقر بن محمد القاسمي، وتعهّد والدي بأن يكتب رسالة للشيخ حميد بن محمد القاسمي يطلب منه بأن يقوم بإخراج عمته الشيخة فاطمة بنت سالم من الحصن برأس الخيمة، وإرسالها إلى الشارقة.

قال الشيخ سلطان بن سالم القاسمي بأن سيارته جاهزة للذهاب إلى رأس الخيمة. قام والدي بكتابة الرسالة المطلوبة، وسلمها للمرافق العسكري للشيخ سلطان بن سالم، وكان اسمه الرامس،

وقد كلف بتسليم الرسالة للشيخ حميد بن محمد القاسمي. طلبت من والدي أن أذهب معهم لينزلوني في منطقة الخزّان لأذهب لوالدتي، فوافق والدي على ذلك.

جلست على المقعد الأمامي للسيارة، وكان سائق السيارة يدعى عقاب. وجلس الرامس في الجزء الخلفي من السيارة، التي كانت مكشوفة، وكان بالجزء الخلفي بعض الأكياس لا أعرف ما بها.

بعد أن تحركنا من الشارقة، وكان الوقت في بداية الليل، وإذا بالرامس يطلب مني أن أنتقل إلى الجزء الخلفي من السيارة، ليجلس هو على المقعد الأمامي إلى جانب السائق.

غطس جسمي الضئيل بين الأكياس من حمولة السيارة، وغرقت في نوم عميق، لم أستيقظ منه إلا على صوت الرامس يقول لي:

«انزل، نحن قريبون من بيتكم».

والسائق عقاب يقول:

«هل ترى أثر سيارتكم؟ اتبع ذلك الأثر وستصل إلى بيتكم».

نزلت من السيارة، ولم يعطوني برهة للتفكير، فقد تركوني على قارعة الطريق، وواصلوا السير، وأنا أنظر إلى السيارة حتى اختفى نورها بين الأشجار.

الليل مظلم، والقمر لم يبزغ بعد، لأننا في الأيام الأخيرة من شهر ربيع الأول، والمسافة إلى بيتنا تقدر بكيلومتر واحد، ولا توجد بيوت في تلك المنطقة، إلا بيت خالي سالم بن خميس السويدي، هو بالأحرى خال والدي، لكن نحن نناديه بخالي. كما يوجد بيت صغير بالقرب منه لسيدتين، شقروه وحمروه، من بني ضاوي. كل تلك البيوت

كانت بالقرب من القلعة على قمة التلة، وأنا في أسفلها، وعليَّ أن أصعد إلى قمة التلة.

كانت الذئاب بالقرب مني تعوي، فتملكني الخوف. في ليلة قبل عدة أيام دخلت الذئاب إلى زريبة أغنام شقروه، وسحبت أحد الخراف.. فخفت أن أكون مثل ذلك الخروف، فأخذت أجري بأقصى سرعة لديّ، وتعثرت عدة مرات، حتى إذا ما وصلت إلى بيتنا أخذت أنادي على والدتي حتى فتحت باب الخيمة، وهي مستغربة:

«كيف وصلت إلى هنا، ولم أسمع صوت السيارة؟!».

فقلت: «لقد أنزلوني على الطريق العام، وجئت أركض من هناك إلى هنا!».

والدتي: «حسبي الله عليهم... الدرب كله ذئاب».

في اليوم التالي لم أخرج من البيت، حتى لا ألتقي بأصدقائي ويشاهدوا رأسي الحليق. كان أصدقائي مجموعة من أولاد البدو بشعورهم الطويلة، وكبيرهم يُقال له مشروم، وكان معنا فتىً يُقال له الزعابي من الجزيرة الحمراء.

كنا نلتقي كل يوم، كل واحد منّا يحمل قوساً من مِعلاق عِذق النخلة وسهماً مثّبتاً به إبرة صنعناهما بأنفسنا لصيد الحمام والعصافير، وكنا نشعل ناراً بقدّاحة كانت لمشروم يضرب حديدتها بحجرها على القش فتشتعل النار بنفخنا فيها، ونحن متحلّقون حولها. كنا نأكل كل شيء اصطدناه بعد شيّه: جراد، سحالي، جرابيع وطيور. ونمرّ بحقول القمح التي زرعها والدي على الأمطار في «الصالحية» بالقرب من «الحيل» – إحدى قرى العقد الأخضر – نستعمل المقلاع لطرد

العصافير عن سنابل القمح.

بعد عدة أيام وصل والدي قادماً من الشارقة، وقد أحضر معه العدة والعتاد لاستقبال شقيقه عمي الشيخ سلطان بن صقر القاسمي، والذي سيحضر في اليوم التالي للتوسط بين الشيخ صقر بن محمد القاسمي، الذي استولى على رأس الخيمة، والشيخ سلطان بن سالم القاسمي الموجود في الشارقة، حيث زوجته عمتي عائشة، وفي دبي حيث زوجته الأخرى.

في صباح اليوم الذي سيصل فيه الشيخ سلطان بن صقر القاسمي، كان والدي مشغولاً بنصب الخيام ومرافقها.

عند غروب شمس ذلك اليوم وصل الشيخ سلطان بن صقر القاسمي وحاشيته وعساكره إلى المخيم الذي نصبه والدي بالقرب من بيتنا، وقضى تلك الليلة هناك بعد أن أقيمت الولائم.

في اليوم الذي يليه، وبعد تناول طعام الإفطار، ركب الشيخ سلطان بن صقر القاسمي سيارته ومعه والدي، وركبت الحاشية والعساكر السيارات الأخرى، وتوجهوا إلى رأس الخيمة لمقابلة الشيخ صقر بن محمد القاسمي.

عند الظهيرة وصل والدي راجعاً من رأس الخيمة، وأخبرنا بأن الشيخ سلطان بن صقر القاسمي رجع إلى الشارقة متخذاً الطريق الساحلي.

فسألت والدي عن النتيجة.

فأجاب: «بدون فائدة».

مرت الأيام.. وتمكّن الشيخ صقر بن محمد القاسمي من حكم

رأس الخيمة، وطالب الإنجليز بالاعتراف به حاكماً لـرأس الخيمة، فاعترفوا له بذلك.

في الأسبوع الأول من مارس من عام ١٩٤٨م، قرر والدي زيارة الشيخ حميد بن محمد القاسمي، شقيق الشيخ صقر بن محمد القاسمي، الحاكم الجديد لرأس الخيمة في رأس الخيمة.

وعندما كنا هناك، هبت عاصفة شديدة، مما اضطر والدي إلى أن يبيت تلك الليلة في بيت الشيخ حميد بن محمد القاسمي برأس الخيمة.

نام السائق عبدالله بندري والمرافق العسكري عيد بن خصيف في المجلس الخارجي، أما أنا فقد نمت مع والدي في غرفة داخلية بالبيت، وهي غرفة الشيخ حميد نفسه. وفي الصباح الباكر عندما فُتح باب تلك الغرفة شاهدت الساحة الداخلية لذلك البيت وقد أصبحت بركة ماء. فسألت والدي عما حدث ليلتها فقد كنت نائماً طوال الليل. نادى والدي على عيد بن خصيف وأمره أن يحملني إلى خارج البيت لأرى ما حل بالمدينة.

ما إن خرج بي عيد من البيت حتى شاهدت جميع البيوت، ومعظمها من السعف، قد تساوت مع الأرض، وإذا بالشاطئ أصبح قريباً من بيت الشيخ حميد، والبحر يشاهد من هناك.

كانت هناك بين ثلاثة إلى أربعة بيوت من السعف بين بيت الشيخ حميد والبحر، وقد جرفتها الأمواج، وإذا بالآبار المطوية، التي كانت بالبيوت قد جرف البحر ما حولها من رمال، وتركها كأعمدة على ذلك الشاطئ العريض، بعد أن تناهى البحر في الجزر.

أخذت أنا وعيد نهرول على الشاطئ إلى جهة الشمال، وإذا بالشاطئ يأخذنا ناحية الشرق، ويوصلنا إلى الخور.

كانت البيوت في شمال بلدة رأس الخيمة قد أزالتها أمواج البحر العالية، بعد أن أوصلت البحر الهائج بخور رأس الخيمة.

كان والدي مشغول البال على الأهل في منطقة الخرّان، فركبنا السيارة وأخذنا طريقنا إلى هناك، حتى إذا ما وصلنا لم نجد بيتنا قائماً، وكان مكوناً من عدة خيام. وإذا بشقيقي خالد والخدم يتقدمون لاستقبالنا، وإذا بالوجوه عليها بشاشة: «الحمد لله ليس هناك مكروه»، قالها والدي وهو ينزل من السيارة.

تقدّم والدي، وكلنا معه، إلى القلعة، فإذا بغدان منصوب هنا وآخر هناك. وثالث بعيداً قليلاً لملابس النساء، تتدلى منها الملابس المبلولة بمياه الأمطار.

روى شقيقي خالد لوالدي ما جرى تلك الليلة، فقال:

«كنا نائمين في الخيمة الكبيرة، والدتي وشقيقتي شيخة وناعمة وشقيقي الطفل عبدالله وأنا، فعصفت العاصفة، فما وجدنا إلا وأطناب الخيمة الكبيرة تقتلع من الأرض من كل الجهات لتبقى الخيمة محمولة على العمودين الأوسطين، فلما انكشفت الخيمة عنا، أخذت أنا وشقيقتي شيخة نجري نحو القلعة في الظلام الدامس، حتى إذا ما أبرقت السماء وجدنا شقيقنا الطفل عبدالله يحبو في الصحراء فحملناه معنا إلى القلعة».

يقول شقيقي خالد، وهو يحدّث والدي:

«عندما دخلنا القلعة فوجئنا بعدم وجود والدتي وشقيقتي

ناعمة، فأخبرت خالي سالم بن خميس بذلك، وخرجت معه نبحث عنهما في الخيمة، التي افترشت الأرض».

أخذ خالي وأنا ننادي عليهما، فسمعنا أصواتاً من تحت الخيمة الملتصقة بالأرض، فرفعنا طرفاً منها لنصل إلى موقعهما، وإذا بوالدتي تسأل عن عبدالله، فقلت لها:

«عبدالله معنا في القلعة».

قالت والدتي: «كنا نبحث عن عبدالله تحت الخيمة، التي كانت مبلولة وثقيلة، وكلما حاولنا أن نحبو ألصقتنا بالأرض، لكن المصيبة هنا يا محمد!».

والدي: «خير إن شاء الله».

والدتي: «بعد أن نمنا، نحن وزوجة خالك وطفلها في القلعة، وإذا بالماء المملوء بالطين ينزل علينا من فتحة سلالم القلعة، بعد أن احتبس فوق سطحها، ليغرقنا في بحيرة من الطين».

قال والدي: «لنرتحل إلى الشارقة، اجمعوا ملابسكم واركبوا في السيارة، واتركوا كل شيء، سيأتي به الخدم».

ركبنا السيارة متجهين إلى الشارقة، وفراق تلك المنطقة الجميلة يملأ قلوبنا.

إطلاق النار على الإنجليز

ما إن اعترف الإنجليز بالشيخ صقر بن محمد القاسمي حاكماً لرأس الخيمة حتى صبّ الشيخ سلطان بن سالم القاسمي جام غضبه على الإنجليز، وازداد نشاطه واتصالاته، مما جعله يتلقى تحذيراً

من الضابط السياسي البريطاني في الشارقة، أكد له فيه أنه ما لم ينأَ بنفسه عن النشاطات التي تهدد وتخلّ بالأمن القبلي، فسوف يطلب منه أن يقيم بعيداً عن «الساحل المتصالح»، كما كان يحلو للإنجليز أن يسموه.

لكن الإنجليز توصلوا إلى قناعة بأن الشيخ سلطان بن سالم شخص مزاجي، يصعب التعامل معه، وليس بمستبعد أن يقدم على خلق المشاكل وإثارة البلبلة مستقبلاً، فاستُدعي للمرة الثانية في يوم ٢٣ يوليو من سنة ١٩٤٨ إلى الوكالة السياسية البريطانية بالشارقة، وهي مقر الضابط السياسي البريطاني، لمقابلة السيد «بيلي» «Pelly»، الوكيل السياسي البريطاني في البحرين، والذي وصل إلى الشارقة على ظهر «المنور»؛ أي: السفينة الحربية البريطانية.

في المقابلة التي تمت مع السيد «بيلي»، كان الشيخ سلطان بن سالم قد قدم عدة أعذار ومبررات عديمة الجدوى، حسب ما يدعي «بيلي».

طلب السيد «بيلي» من الشيخ سلطان بن سالم أن يرافقه إلى البحرين، فلم يعترض الشيخ سلطان بن سالم على ذلك الطلب، حتى إذا ما خرجا مع الضابط السياسي البريطاني من بوابة الوكالة البريطانية، طلب «بيلي» من الشيخ سلطان بن سالم أن يدخل في السيارة المتوقفة أمام الوكالة البريطانية، لكن الشيخ سلطان بن سالم تمنّع، وهو يأخذ خطوات إلى الخلف. حينها أمر الضابط السياسي البريطاني عساكره الواقفين على بوابة الوكالة السياسية البريطانية أن يلقوا القبض على الشيخ سلطان بن سالم، لكنه أخرج مسدسه بسرعة فائقة وأخذ يطلق النار من مسدسه وهو يفرّ هارباً. كانت تلك الطلقات

تمر قريباً من السيد «بيلي» والضابط السياسي البريطاني المحتمين بالسيارة. كان الضابط السياسي البريطاني يصيح بعسكره:

«أطلقوا النار عليه!».

أطلق العساكر النار على الشيخ سلطان بن سالم، لكنها كانت في الهواء!

هؤلاء العساكر من أهالي الشارقة، ويقال لهم «أهل مازم»، حيث معظم حراسات القلاع والأبراج والحصون بالشارقة كانوا هم الذين يقومون بها.

قطع الشيخ سلطان بن سالم المسافة بين الوكالة السياسية البريطانية وبيتنا، وهي كيلومتر واحد، جرياً من سكة إلى أخرى حتى وصل إلى بيتنا، وقابل والدي، الذي أخذه إلى غرفة في الطابق العلوي، مدخلها من ناحية سكن العائلة، وتطل على الساحة الغربية التي أمام بيتنا، وكذلك تطل على البوابة الغربية وساحة المجالس التي تفصلها بوابة أخرى عن السكن الداخلي.

كان الوقت ظهراً، حيث قُدِّم الغداء للشيخ سلطان بن سالم، الذي كان يحاول مع والدي أن يجد له وسيلة تخرجه من الشارقة.

وما هي إلا سويعات، وإذا بأصوات السيارات تتردد حول بيتنا. نظر والدي من شباك الغرفة العلوية المطل على الساحة الأمامية، وشاهد الجنود البريطانيين وهم يحاصرون البيت من الناحية الغربية، فصاح والدي على العساكر والخدم التابعين له بأن يحملوا السلاح، وأن يغلقوا البوابات.

رد أحد الخدم بأن الجنود البريطانيين يحاصرون البوابة الشرقية المطلة

على ساحة الحصن. ولكن هناك بوابة أخرى في الجهة الشمالية من البيت، تسمى بوابة المطبخ، ليست معروفة لدى العامة من الناس، تفتح على ساحة صغيرة، تحيط بها بيوت جيراننا: مريم بنت سعد الله، وسالم ذراع، وراشد الغزال، وسكك لا تتسع إلا لمرور شخص واحد فقط بين تلك البيوت.

أخذ والدي الشيخ سلطان بن سالم إلى بوابة المطبخ، ولم يكن الجنود البريطانيون قد وصلوا إليها، وأخرجه من البيت. لا أعرف ما دبّره الوالد في تلك المسألة؛ لأنني بقيت أراقب الجنود البريطانيين المتمركزين في الساحة أمام البوابة الغربية، من خلال الشباك المطل من الغرفة العلوية على الساحة الأمامية.

شاهدت الجنود البريطانيين وهم يختبئون خلف السيارة العسكرية، وبعد برهة من الزمن تحركت السيارة العسكرية إلى الخلف لتكشف عن أكياس مليئة ومتراكمة بعضها فوق بعض، يعلوها صف من الخوذ العسكرية، وبنادق مصوبة ناحية البوابة الغربية لبيتنا.

لم أفارق ذلك المشهد حتى مالت الشمس نحو الغروب، وإذا بالسيارة العسكرية تتقدم وتحجب عني منظر الجنود خلف الأكياس. ثم تحركت ثانية، فلم تخلف إلا أكواماً صغيرة من الرمال التي أفرغت من الأكياس.

إبعاد والدي عن الشارقة

بعد عدة أيام دخل والدي البيت ضُحى، وطلب من والدتي أن تُحضر له حقيبة، وتضع ملابسه فيها. فسألت والدتي عن المسير، فقال

والدي: إن الإنجليز مصرّين على أخذي بدلاً من الشيخ سلطان بن سالم إلى البحرين.

إن السيد «بيلي» ليس غريباً على الشارقة، فهو قبل مدة سنة ونصف كان هو الضابط السياسي البريطاني في الشارقة، ويعرف والدي الشيخ محمد بن صقر القاسمي حق المعرفة؛ فوالدي كان معارضاً لإقامة محطة الطيران بالشارقة في سنة ١٩٣١م، وكان مطلبه أن تكون محطة الطيران مدنية وليست عسكرية، وكان يقوم بإزالة أي علامات توضع على الأرض لإقامة تلك المحطة. فقرر الإنجليز يومها إبعاده عن الشارقة، لولا قبول الإنجليز بالشروط التي قدّمها والدي بإعطاء خطاب ضمان يحمي استقلال الشارقة وعدم التدخل في شؤونها[١].

قام الإنجليز وطلبوا من الشيخ سلطان بن صقر القاسمي، حاكم الشارقة، أن يوافقهم على إبعاد أخيه الشيخ محمد بن صقر القاسمي إلى البحرين، ويمنع هو عنه المؤن والمواد غير الضرورية والتسهيلات الخاصة بالسفر.

أطاع والدي أمر أخيه، وسافر إلى البحرين، يرافقه إبنه الأكبر خالد وصديقه عمران بن تريم. بقي والدي في البحرين عدة أسابيع، ضيفاً على الشيخ سلمان بن حمد الخليفة، عاد بعدها ومن معه إلى الشارقة.

مدرسة الإصلاح القاسمية

في شهر سبتمبر من سنة ١٩٤٨م استقبلت مدرسة الإصلاح القاسمية طلابها. وكنت من المستجدين بالمدرسة، فأدخلت إلى

١ اقرأ: "محطة الشارقة الجوية بين الشرق والغرب"، للمؤلف.

الصف الأول، وكان عمري آنذاك تسع سنوات وشهرين؛ حيث كنت لمدة سنتين أقضي الشتاء في منطقة الخرّان برأس الخيمة. كان والدي لا يزال محجوزاً في البحرين، وقد ذهبت إلى المدرسة بنفسي. كانت المدرسة مبنية بسعف النخيل، على شكل خيام مغطاة بالخيش، والتي صُبَّ عليها القار السائل ليمنع الأمطار من اختراق السقف. أما الأرضية فكانت مفروشة بالحصر الجديدة، والتي أُحضرت مطوية؛ لذا عندما تمّ فرشها لم تكن لتستوي مع الأرض، فكانت أجزاء منها مرتفعة، وكنا نجلس عليها حتى تستوي مع الأرض. الطلبة في جميع الفصول يجلسون على الأرض، ما عدا الصف الخامس، حيث يجلس الطلبة الكبار في السن على أدراج كانت منقولة من المدرسة «التيمية»، الكائنة بالقرب من «العرصة»، في منطقة السوق. لقد شاهدت طلبة مدرسة التيمية يوماً عندما كنت في سوق العرصة المزدحم، والذي تحوّل وسط ذلك السوق ليصبح سوقاً للفواكه؛ ومرّ الطلبة في طابور طويل مخترقاً ذلك السوق فتبعتهم، وإذا بهم يقعدون القرفصاء على شاطئ البحر كالنوارس، متباعدين عن بعضهم بعضاً، تيقنت بعدها أنهم في الخلاء يتغوطون.

كانت مدرسة الإصلاح القاسمية أصلاً مسكناً لعمي الشيخ سلطان بن صقر القاسمي، وعندما هجره إلى بيت آخر أمر بتحويله إلى مدرسة، بعد إضافة الفصول العديدة إليها قبل سنتين؛ حيث كانت الحاجة لفصول عديدة لم تكن المدرسة التيمية لتوفرها. كان معلمي في السنة الأولى الأستاذ فاضل، كان رجلاً أدكن، يلبس ثوباً وصدرية، وعصابة على رأسه، وجميعها بيضاء ناصعة. أتى إلى الشارقة من دبي، مع الشيخ سعيد بن بطي المكتوم. وللأستاذ فاضل

خط جميل، تعلمت على يده أول الكتابة. كانت الكتابة على ألواح حجرية سوداء، والأقلام من حجر، لونها قريب من البياض، ومنها ما هو ملون بعدة ألوان.

أما بالنسبة لقراءة القرآن، فقد كنت أدرس لدى الشيخ فارس ابن عبدالرحمن، قبل أن أدخل مدرسة الإصلاح القاسمية.

كان ناظر مدرسة الإصلاح القاسمية الأستاذ محمد بن علي المحمود، وكان شديداً في تطبيق الأنظمة المدرسية. وفي يوم من الأيام حدث شغب في المدرسة في وقت الفسحة، وتدخل الناظر الأستاذ محمد بن علي المحمود بعصاه، وأمر بقفل بوابة المدرسة، وأخذ يطارد الطلبة مثيري الشغب، فكانوا يجرون أمامه وهو يطاردهم وبقية الطلبة من خلفهم، فعمت الفوضى في المدرسة.

كان حديث المدرسة «نجم أبو ذيّال» حيث شوهد في السماء ليلاً نجم مذنّب له ذيل طويل في أواخر سنة ١٩٤٨م.

عند دخول فصل الربيع، وارتفاع درجة الحرارة قليلاً، وجدنا العمال يقيمون مظلات من سعف النخيل أمام الفصول، ويقسمونها بعمودين من الخشب بعرض القوائم لتكوّن فصولاً مفتوحة. كانت أصوات قراءة القرآن الجماعية أو الإنشاد أو أصوات المدرسين الذين يقومون بشرح الدروس تتداخل في تلك الفصول المكشوفة.

مرض الشيخ سلطان بن صقر القاسمي

لم يكن الناس يعلمون أن الشيخ سلطان كان مريضاً، ولم تظهر عليه علامات المرض؛ فقد شاهدته في ربيع سنة ١٩٤٩م في مجلسه،

عندما أُحضر صاحب الصندوق؛ حيث وصل إلى الشارقة رجلٌ يحمل على ظهره صندوقاً له أربعة أرجل، يضع أرجل الصندوق على الأرض، ويطلب من الناس أن ينظروا فرداً، فرداً، من خلال فتحة في الصندوق، وهو يدير مفتاحاً ويحرِّك صوراً بداخل الصندوق، مقابل دفع مبالغ زهيدة.

انتشر خبر ذلك الرجل بين الناس، بأنه يقوم بالسحر، وقامت مجموعة من أعيان البلد بالذهاب إلى الشيخ سلطان بن صقر القاسمي حاكم الشارقة، وطالبته بأن يقوم بطرد ذلك الرجل من الشارقة. أمر الشيخ سلطان بأن يحضر الرجل أمامه، فبعثوا أحد العساكر ليحضره إلى مجلس الشيخ سلطان. كان المجلس في البيت الغربي، منزل زوجته الشيخة ميرة بنت محمد، وكنت مع أبنائه نجلس مع أعيان البلد الذين قدَّموا الشكوى، وإذا بالرجل وصندوقه على ظهره قد أُحضر. سأل الشيخ سلطان الرجل قائلاً:

«من أي البلاد أنت؟».

فأجاب: «من العراق».

قال الشيخ سلطان: «وما الذي تعرضه في هذا الصندوق؟».

قال الرجل: «تسلية للأولاد».

قال عمي الشيخ سلطان: «تعال يا سلطان... انظر أنت ما بالصندوق، وقل لنا ما شاهدته».

أخذ الرجل صندوقه ووضعه جهة النور المنبعث من «الفرخة» - و«الفرخة» هي باب صغير في البوابة المغلقة - وبدأ يلف بيده مفتاحاً، وبدأت الصور تتحرك بداخل الصندوق، وأنا أشاهدها من خلال

فتحة الصندوق. كان صاحب الصندوق يعلّق على كل صورة أشاهدها داخل الصندوق، وهو يقول:

«هذا الدب الكبير، يأكل حنطة، ويزق شعير».

ويصف عنترة بن شداد كما يصف أبو زيد الهلالي، حتى إذا ما انتهى من ذلك، قال عمي الشيخ سلطان:

«صف لنا يا سلطان ما شاهدت».

وقفت أمام عمي الشيخ سلطان وأعيان البلد، وأنا لم أبلغ السنة العاشرة من عمري، أشرح ما شاهدته بكل ثقة وانتباه.

قرر عمي الشيخ سلطان بعدها أن يُرَحَّلَ الرجل صاحب الصندوق من الشارقة، وأن يُعطَى بعض المال.

تيقنت أن الشيخ سلطان بن صقر القاسمي كان عليلاً، عندما شاهدته مرةً يُعطَى حقنة في زنده من قِبل ابنه خالد بعد أن قام بغلي الإبرة، قبل تناول طعام الغداء في البيت الوسطي منزل زوجته الشيخة لطيفة بنت سعيد. كنت أجلس بجانبه، عندما كان يتناول طعام الغداء مع أبنائه، وجدته يضيف السكر على الأرز، فلم أكن أستسيغ الأرز الذي تقع عليه حبيبات من السكر، أما البطاطس المقلية بالسمن فكانت لذيذة، ولأول مرة كنت أتذوقها.

في بداية شهر مايو من سنة ١٩٤٩م، أقيمت الأفراح لزواج خالد بن الشيخ سلطان بن صقر القاسمي من شقيقتي شيخة بنت محمد القاسمي، وكنت يومها خارجاً صباحاً من منزل عمي الشيخ سلطان، المعروف بالبيت الغربي، أي بيت الشيخة ميرة والدة خالد، وإذا بعمي الشيخ سلطان جالساً على الدكة أمام المنزل، ولمّا لمحني ناداني:

«سلطان.. سلطان..».

فرجعت إليه، فرفعني إليه وأجلسني بالقرب منه، ولفني بعباءته وقبلني.. ورائحة الورد تفوح من ملابسه. تساءل أحد جلسائه:

«ابن مَن هذا الولد، يا شيخ سلطان؟».

الشيخ سلطان: «هذا سلطان.. ابن أخي محمد. أسميته على اسمي».

أخرج عمي الشيخ سلطان من جيبه عملة معدنية، ووضعها في يدي، وقال:

«هل تعرف هذه؟».

قلت: «روبية».

قال، وهو يضم أصابعي على الروبية: «ألاّ تضيع منك! أو يأخذها منك أحد!».

أفلت جسمي الضئيل من بين يديه، وأنا أركض نحو بيتنا.

في اليوم التالي أُلغيت جميع مظاهر الفرح، وبان الحزن على وجوه الرجال، وانتشر الخبر بين الناس صباحاً. الشيخ سلطان مريض.

اشـتد عليه المرض الليلة الفائتة، كان الألم في الجزء السفلي من بطـنه.. فاستـدعي الطـبيب «دي. جي. ما كولي» «D. G. Mecaully» الموظف الطبي بساحل عُمان، والذي كان يسكن في مساكن القوات الجوية الملكية في الشارقة، لعلاجه.

كان الطبيب «ماكولي» يعوده كل يوم، وحرارة جسده ترتفع، ثم أُصيب بفواق (حازوقة) مستمر.. فنصح الطبيب «ماكولي» بأن يُنقل

الشيخ سلطان إلى بومبي في الهند، بعد أن بقي على تلك الحالة عدة أيام.

ذهب والـدي وإخوانه وأبناء الشيخ سلطان بن صقر القاسمي إلى مطار الشارقة لتوديع الشيخ سلطان في سفره إلى الهند. رافق الشيخ سلطان أبناؤه: محمد وسالم وعبدالله وخاله سالم بن خميس السويدي. غُصت ساحة المطار بجموع المودعين، والدموع تترقرق في عيونهم، وهمهمة الدعاء تتردد في صدورهم الحزينة؛ أما والدي فقد أجهش بالبكاء وأطال معانقته لشقيقه وهو في الطائرة قبل إقلاعها.

الفصل الثالث

نائب حاكم الشارقة

الحادثة

بعد سفر عمي الشيخ سلطان بن صقر القاسمي إلى بومبي في الهند، في شهر مايو من سنة ١٩٤٩م، أناب والدي عنه في إمارة الشارقة. وأول حادثة في تلك الفترة هي حادثة عبدالعزيز بن الشيخ سيف بن مجلاد، قاضي الشارقة، وقد شاهدت تلك الحادثة بتفاصيلها.

كنا، ذات يوم، نجلس متفرجين على لعبة «القبة» — و«القبة» تعني الكرة - وهي شبيهة بلعبة «البيسبول»، بين مصلى العيد بالشارقة وموقف سيارات الأجرة؛ وإذا بصوت اصطدام يأتي من ناحية موقف سيارات الأجرة، وإذا بالمتواجدين هناك يتحلّقون حول شيء ما. كان الناس يجرون ناحية موقع الحادثة، وأنا من بينهم، حتى إذا ما وصلت فتحت لنفسي فرجة بين الرجال. وإذا بي أشاهد رجلاً حُطّمت ساقاه، والدم ينزف منهما، وهو يردد: الله.. الله.. بالعيال؛ أيّ يقصد أولاده.

حُمل الرجل، ووُضِع في سيارة أسرعت به إلى محطة الشارقة، حيث كان هناك مستشفى للإنجليز.

خالد ابن الشيخ سلطان بن صقر كانت بيده بندقية، فأخذ سيارة وأسرع خلف السيارة التي صدمت عبدالعزيز، فلحق بها بعد أن غرزت في الرمال قرب «الحيرة»، سائقها – ويُدعَى يونس – هرب وترك النساء بالسيارة. رجعت السيارة التي نقلت عبدالعزيز إلى المحطة عائدة به، بعد أن توفِّي في الطريق إلى المستشفى. قيل إن عبدالعزيز هو بنفسه الذي اعترض طريق السيارة ليوقفها بعزيمته وبقراءة نصوص من كتاب «الغزالي».

مصيف شعم

عند قدوم فصل الصيف من سنة ١٩٤٩م، أخذنا والدي إلى «شعم» لقضاء الصيف هناك، وعاد إلى الشارقة، حيث كان نائباً لشقيقه في فترة غيابه في الهند.

شعم، بلدة صغيرة، وهي آخر بلدة تابعة لرأس الخيمة، وهي شريط رملي ضيق على شاطئ البحر، وسهل حصوي ضيق فيه بعض أشجار السمر، يقال له « الفي»، وبعده الجبال العالية، وهي تحيط بشعم من الناحية الشرقية وتوقف امتداد الشاطئ من الناحية الشمالية.

عجبت لتلك الجبال الجرداء أن تنتج أنواعاً من التين، النوع الأبيض، وهو بحجم كبير، تنزّ منه مادة عسلية من شدة النضج.. ونوع آخر، أصغر حجماً، لونه بين الأحمر والأسود، لذيذ في مأكله، يُقال له «سُقُبْ»، ونوع آخر من البندق يُسمى «ميز».

أما في الناحية الجنوبية فيوجد جبل منفصل عن سلسلة الجبال، ويظهر بشكل هرمي، على قمته توجد مبانٍ متهدمة، يقال لذاك الجبل «الصنم».

الماء في شعم عذب ووفير، من آبار على شاطئ البحر، يقال لها «البداية» (جمع بِدِي).

كان منزلنا المبني من السعف في أقصى الجنوب، على شاطئ البحر، ويبعد مسافة مئة متر عن آخر منزل في القرية، وهو منزل الشيخ سيف بن محمد بن مجلاد، قاضي الشارقة. ليس الشيخ سيف هو الوحيد الذي يقضي الصيف في شعم، وإنما معظم المصيِّفين في شعم كانوا من أهالي الشارقة.

تنحدر قبالة منزلنا من سفح الجبل إلى رمال الشاطئ تلة رملية، خالية من الحجر والمدر، لونها كالتبر، عابرة السهل الحصوي. تعودت كل صباح أن أصعد إلى قمة التلة، حيث لا تزال ظلة الجبل تغطيها، أصعدها حافي القدمين، حتى إذا ما وصلت إلى آخر تلك التلة الملتحمة بسفح الجبل نظرت من ذاك العلو الشاهق فشاهدت القرية المختفية خلف أشجار النخيل والشاطئ الرملي الأبيض باسطاً ذراعيه لاستقبال أمواج البحر المفتوح الممتد إلى ما لا نهاية.

كانت طيور الغربان تحلق وتحوم في السماء، فأقلدها رافعاً ذراعيَّ، وراكضاً بأقصى سرعة إلى الأسفل على ظهر التلة المنحدرة إلى الشاطئ، وقدماي تلامسان ظهر التلة بخفة ورشاقة.

كانت تسليتنا اليومية الاستحمام في البحر، نبحث عن المحار المدفون في رمال قاع البحر بأقدامنا، فكانت كبيرة بحجم راحة اليد،

حتى إذا ما لامست أرجلنا محاراً، غصنا والتقطناه. وهناك نوع آخر من المحار، صغير الحجم، يُسمى «حما»، تستخرجه النساء من الشاطئ غربي جبل الصنم، بعد أن ينحسر البحر بالجزر، كاشفاً عن أرض يُقال لها «حِذْ». تمر مجموعة من النساء، تحمل كل واحدة منهن على رأسها قفة مليئة بمحار «الحما»، على الشاطئ أمام بيتنا، متجهات إلى الشمال ناحية القرية، لبيع ذلك المحار.

في يوم من تلك الأيام هاج البحر، وارتفعت أمواجه، فلم نستطع النزول إلى البحر، فأخذنا نلهو على الشاطئ، فتية وفتيات، نضع بعض العلب الفارغة على لسان الموجة التي انساحت على الشاطئ وتراجعت، فكنا نركض خلف تلك العلب ونلتقطها قبل أن تطبق الموجة فمها علينا، وفي مرة كانت إحدى الفتيات، وكانت إحدى بنات الشيخ سيف بن مجلاد، لم تستطع أن تلتقط علبتها، حيث كانت أسرع منها، فتبعتها، وإذا بالموجة فاغرةً فاها، حاولت الفتاة الرجوع نحونا، لكن الموجة أطبقت عليها وابتلعها البحر. كانت الفتاة تعرف العوم، لكن التيار جرفها. كان هناك أخ لها يدعى ناصر، يكبرنا سناً، قذف بنفسه في تلك الأمواج المتلاحقة واستطاع أن يمسك بها، لكن التيار أبعدهما عن الشاطئ، ولم نكن نشاهد إلا ثوباً أسودَ طافياً على الماء، يظهر ويختفي بين الأمواج.

الصراخ يعلو من حناجر الفتيات والفتيان، وخرج الجميع من البيوت القريبة، ووصل والد الفتاة الشيخ سيف بن مجلاد، ورأيته واقفاً على شاطئ البحر متكئاً على عكازه، ورافعاً وجهه إلى السماء يدعو ربه أن ينقذ ابنته، وإذا بذاك الشاب، المفتول العضلات، يأتي

مسرعاً ويرمي بنفسه وسط الأمواج العاتية، كان من سكان شعم يُقال له حمّود، يعمل لدى الشيخ سيف بن مجلاد. كنا نشاهد من على البعد جسمين يقتربان من بعضهما بعضاً، حتى إذا التحما هللت الناس فرحاً.. وفرح الناس أكثر عندما شاهدوا أن الجسمين الملتحمين يقتربان من الشاطئ، وأخذت الصورة تتضح أكثر فأكثر، وإذا بذلك الشاب قد علّق على ظهره ابنة الشيخ سيف وأخاها، وهو يعوم بكلتا يديه ضد التيار، حتى إذا ما ألقاهما على الشاطئ رمى بجسمه المنهك هو الآخر على الشاطئ. عمت الفرحة جميع من حضر على الشاطئ في تلك الساعة.

مدرستي

بعد انقضاء فصل الصيف عدنا إلى الشارقة، حيث فتحت مدرسة الإصلاح القاسمية بابها للدراسة للعام الدراسي ١٩٤٩-١٩٥٠م، وهي المدرسة المقامة بسعف النخيل. وحضر معظم الطلبة وجميع المدرسين، إلا ناظر المدرسة الأستاذ محمد بن علي المحمود الذي انتقل إلى قطر للتدريس هناك، واستبدل بالأستاذ مبارك بن سيف الناخي كناظر لمدرسة الإصلاح القاسمية. وأُدخلت إلى الصف الثاني بالمدرسة، والتي خلت هذه السنة من الطلبة كبار السن، حيث أنهوا دراستهم في المدرسة.

في شهر يونيو من سنة ١٩٥٠م، وبعد أن انتهت الدراسة في مدرسة الإصلاح القاسمية، وصلت الأنباء بأن الشيخ سلطان بن صقر القاسمي قد أكمل آخر عملياته الجراحية وأصبح يتحدث عن موعد

عودته للبلاد بعد نهاية شهر رمضان من سنة ١٣٦٩هـ، الموافق ليوليو من سنة ١٩٥٠م.

اشترى والدي مزرعة سالم بن سلطان بن سالم القاسمي والمنزل التابع له والملاصق للمزرعة في قرية «الغب» في رأس الخيمة.

كان سالم بن سلطان القاسمي ينوب عن والده في رأس الخيمة وقت الانقلاب في سنة ١٩٤٨م، وقد هرب حينها بزورق من رأس الخيمة إلى الشارقة، وسكن بها. عندما حل صيف سنة ١٩٥٠م أخذنا والدي لنقضي فترة الصيف هناك، وبقي معنا عدة أيام ثم عاد لأنه كان عليه أن يرجع إلى الشارقة إذ كان ينوب عن أخيه في الحكم، واستعداداً لاستقبال أخيه الذي سيعود من الهند، لكنه لم يعد.

عدنا بعد قضاء فترة الصيف في رأس الخيمة إلى الشارقة، لنرى أن مدرسة الإصلاح القاسمية، والتي كانت مبنية بسعف النخيل، قد استبدلت بمبنى مبنيٍّ بأحجار مرجان البحر والجص، يقال له «بيت إسماعيل البريمي»، التاجر المعروف في الشارقة بأدويته الشعبية، وصاحب سجل مواليد الشارقة، حيث كان يسجل اسم المولود وتاريخ ولادته عندما يأتي أهل المولود لشراء الأعشاب الطبية والمواد العلاجية الأخرى منه. كان عمي الشيخ سلطان بن صقر القاسمي قد اشترى البيت من إسماعيل البريمي ليكون مدرسة بديلة عن مدرسة السعف التي غدا سقفها كالمنخل عندما تمطر السماء.

المدرسة البديلة بها خمسة فصول لدراسة الطلاب، وفصل وضع عليه ساتر من سعف النخيل للطالبات، وغرفة للمكتبة. السنة الدراسية هي ١٩٤٩-١٩٥٠م، والمتغيرات في المدرسة كثيرة:

استُبدل اسم المدرسة من مدرسة الإصلاح القاسمية إلى المدرسة القاسمية.

وهناك فصل للبنات، ومكتبة بها بعض الكتب، وطلبة الفصل الخامس قد تخرجوا من المدرسة، وحل مكانهم الطلبة الناجحون من الفصل الرابع، وانضم إلى المدرسة طلاب مستجدون للفصل الأول. أما أنا فقد كنت مع الناجحين من الفصل الثاني إلى الفصل الثالث.

ناظر المدرسة، الأستاذ مبارك بن سيف الناخي، لم يحضر إلى المدرسة في هذه السنة الدراسية. قيل لنا بأنه انتقل إلى قطر للتدريس هناك، وأصبح الأستاذ أحمد بن محمد أبو رحيمة ناظراً للمدرسة.

في أواخر سنة ١٩٥٠م تعرفت على رسام هندي بينما كنت أتجول في السوق، عن طريق أحد أصحاب المحلات التجارية في سوق الشارقة، والذي قال لي بأنه يحمل درجة «بي. اي» «B.A»، ولم أكن أعرف معناها، وقال إنه رسام، ومستعد أن يرسم لي أي شيء مقابل أن يُعطَى قيمة تذكرة على الباخرة المتجهة إلى الهند. أخذت ذاك الرسام معي إلى والدي، وأخبرته بالموضوع واقترحت أن يقوم ذاك الرسام بالرسم على جدران غرفته العلوية الخاصة.

راقت لوالدي تلك الفكرة، وكتب لي ورقة إلى صاحب الدكان الذي لديه الأصباغ، فأخذنا من عنده علب ألوان متعددة وعدداً من الفرش.

قام ذاك الرسام برسم لوحات على جدران الغرفة، وكنت أساعده في رسم تلك اللوحات، التي أضافت إلى الغرفة بهاء وجمالاً بعد أن شاهد والدي تلك اللوحات على جدار غرفته، أكرم الرسام ببعض

المال الذي سيساعده على الرجوع إلى بلده.

قطّاع الطرق

كان والدي، إلى جانب نيابته عن أخيه في فترة غيابه، مسؤولاً عن الأمن في الشارقة. وقد ازدادت هجمات قطّاع الطرق في تلك الفترة حتى وصلت آخر هجمة على بعد ميلين من الشارقة. انتشرت إشاعات حول وصول «هانكين تورفين» «Hankin Turvin» أحد ضباط الوحدات العسكرية العربية في الأردن، وكذلك أُشيع بأن الإنجليز سوف يجنّدون وحدات عسكرية من المواطنين. ليقطع الشك باليقين طلب والدي أن يزور القوات البريطانية المقاتلة المقيمة في مخيم القوات الجوية الملكية، لكنه لم يُعط فرصة لمشاهدة «هانكين تورفين».

قام والدي بدعوة الضابط السياسي في الوكالة البريطانية بالشارقة «بي. دي. ستوبارت» «P. D. Stobart» لوليمة غداء، وكان والدي يحاول أن يجذبه في موضوع وأحداث التجنيد العسكرية ووصول شخص إنجليزي بلباس عسكري عربي.

كان والدي مستاءً حين قال:

« إن أعمال قطّاع الطرق لن تتوقف ما دامت الحكومة البريطانية حصرت مصالحها في الساحل من أجل السيطرة المطلقة على الساحل؛ وقد فشلت في ممارسة سيطرتها على المناطق الداخلية».

استطاع والدي أن يلقي القبض على واحدٍ من قطّاع الطرق الذين كانوا ينهبون ما بالسيارات المارة في الصحراء أو يخطفون الأولاد ويبيعونهم عبيداً، فسجنه في سجن المحلوسة بالحصن، وقد شاهدت،

مع والدي، قاطع الطريق المسجون في المحلوسة.

يفتح باب سجن المحلوسة في القسم الداخلي من بعد البوابة؛ يُقال له «الإصباح»، حيث الحراسة مكثّفة، عندما كنا نمر في طريقنا إلى الساحة الداخلية للحصن لا نتوجس من أصوات المساجين هناك، حيث كان باب ذلك السجن في نهاية ممر ضيق، ولا يستطيع المرء أن يتحقق من شكل ذلك الباب من شدة الظلام، ولا يسمع شيئاً يأتي من داخل السجن لسماكة خشب ذلك الباب.

وقفت مع والدي أمام ذلك الباب والحارس يفتح قفلاً كبير الحجم، حتى إذا ما فُتِح القفل، دفع الحارس دفتي الباب الغليظتين إلى الداخل، دخل والدي فتبعته ومعنا الحارس. كان المكان مظلماً إلا من نور خافت يأتي من سقف السجن، ورائحة المكان كريهة، ونحن نقترب من رجل معلق بحبلٍ موثقٍ في رجليه، يتدلى من قمة عمود مغروز هناك، عارٍ إلاَ من إزار يستره، ويداه موثقتان خلف ظهره، وقد سلح على ظهره فتجمع الغائط حول مؤخرة رأسه، وبال على بطنه وصدره، فتجمّع البول في لحيته، كان يردد:

«اقتلني يا شيخ محمد ولا تعذبني».

ردّ والدي قائلاً: «سأجعلك عبرة للآخرين».

أمر والدي أن يُخرَج من السجن، ويُرسَل إلى قومه، حتى إذا ما أرادوا أن يُركبوه السيارة لم يستطع ركوبها من شدة الإعياء، فقد كان هزيلاً جداً.

وفاة الشيخ سلطان بن صقر القاسمي

في بداية سنة ١٩٥١م، نصح الأطباء في بومبي الشيخ سلطان ابن

صقر القاسمي بالذهاب إلى لندن، ليضع نفسه تحت أيدي خبراء في المسالك البولية وجراحة المستقيم؛ حيث كانت حالته معقدة جداً؛ والتي كانت نتيجة لإصابة شديدة وحادة بين الأمعاء الغليظة والمثانة، وقد أجريت له عمليات خمس مرات، لكن لم تكن النتيجة النهائية مرضية، بعد علاج دام ثمانية عشر شهراً.

في يوم الخميس ٨ فبراير من سنة ١٩٥١م، غادر الشيخ سلطان بن صقر القاسمي بومبي متوجهاً إلى لندن، على خطوط الطيران الهندي الدولية، ليتلقى العلاج هناك، وكان يرافقه ابناه خالد ومحمد، ومستشار طبي هو الطبيب «ك. م. ماساني» «K.M Masani».. وعند وصوله مطار هيثرو أُدخل مستشفى «لندن كلينك» «London Clinic».

وصلت الأنباء أن تحسناً ملحوظاً قد طرأ على صحة الشيخ سلطان بعد شهر من علاجه في المستشفى، واستبشر جميع أفراد العائلة وسكان الشارقة خيراً.

لكن في يوم ٢٣ مارس من سنة ١٩٥١م، توفي الشيخ سلطان ابن صقر القاسمي، رحمه الله، إثر عملية أجريت له في مستشفى لندن كلينك في لندن، وتقرر أن يدفن في الشارقة.

الشيخ محمد بن صقر القاسمي حاكماً للشارقة

كان والدي الشيخ محمد بن صقر القاسمي نائباً لشقيقه الشيخ سلطان بن صقر القاسمي لمدة سنتين متتاليتين في فترة غيابه للعلاج في الهند وبريطانيا، ونائباً له منذ بداية حكمه للشارقة، كما كان

رجل الأمن والشدائد في الشارقة، فانتقل الحكم لوالدي بعد وفاة الشيخ سلطان بن صقر القاسمي مباشرة – والتي حدثت يوم ٢٣ مارس سنة ١٩٥١م؛ فقد استقبل والدي يوم السبت ٢٤ مارس سنة ١٩٥١م حشود المواطنين المعزّين.

وفي يوم ٢٥ مارس من سنة ١٩٥١م، كتب والدي رسائل للعديد من الحكام والشيوخ معلناً لهم فيها أنه قد خلف شقيقه المرحوم الشيخ سلطان بن صقر القاسمي كحاكم للشارقة.

في مساء يوم ٢٦ مارس سنة ١٩٥١م، ذهب الشيخ صقر بن سلطان القاسمي لمقابلة السيد «اي.جاي.ولتون» «A.J.Wilton» الضابط السياسي البريطاني في الوكالة السياسية البريطانية في الشارقة، وادّعى أن عمه قد تسلّم الخلافة عن طريق الحيلة والتخطيط الماكر من قِبل الشيخ سلطان بن سالم القاسمي وعائلة المدفع وضد رغبات أسرة القواسم وأهالي الشارقة.

رد السيد «ولتون» بأن خلافته تمت بصورة طبيعية وهادئة، وسأل الشيخ صقر إن كان معه أي دليل يؤكد ذلك. أجاب الشيخ صقر أن المسألة ليست سوى مفهوم عام، وأن كل ما كان يطلبه هو العدالة والحصول على حقوقه، ومن غير المقبول أن تبتلع عائلة المدفع كل ثروة البلاد بينما أبناء سلطان وأسرته يعيشون على الكفاف.

سأل السيد «ولتون» إذا كان الأمر حقيقة، وأن الشيخ محمد بن صقر القاسمي قد خلف المرحوم الشيخ سلطان ضد رغبات الأسرة والأهالي، فلم نسمع بأيّ خطوات اتخذوها ليجعلوا الأمر بها معلوماً للجميع.

رد الشيخ صقر قائلاً:

«إنهم خائفون من الشيخ محمد الذي أذاع هو بمساعدة الشيخ سلطان بن سالم القاسمي قصة المجندين (ليفيز) «Levies» الذين سيقومون بقمع أي مقاومة لإفشال خططهم».

رد السيد «ولتون» قائلاً:

«إن المجندين (ليفيز) ليسوا لغرض وضع وتنصيب الشيخ محمد أو أيّ شخص آخر في الحكم».

وتساءل مرة أخرى إن كان يستطيع إبراز أيّ دليل مادي حتى يكون داعماً لادعائه.

قال الشيخ صقر:

«إن العائلة ستكتب رسالة لكم يقولون فيها إنهم يريدون صقراً وليس محمداً كشيخ لهم».

ما إن خرج الشيخ صقر بن سلطان القاسمي من الوكالة السياسية البريطانية، حتى سُمع في تلك الليلة بأصوات العسكر المسلحين تجوب أحياء الشارقة وهي تستدعي السكان للحضور إلى الحصن في اليوم التالي – الثلاثاء ٢٧ مارس سنة ١٩٥١م، قائلةً:

«يا أهالي الشارقة.. المطلوب منكم الحضور صباح غدٍ الثلاثاء إلى الحصن لمبايعة الشيخ محمد بن صقر القاسمي حاكماً للشارقة».

في صباح يوم ٢٧ مارس سنة ١٩٥١م، احتشدت الناس أمام الحصن مهنئة الشيخ محمد بن صقر القاسمي بتولي الحكم. وفي نفس الوقت وصل الشيخ عبدالله بن عبدالعزيز النجدي، وهو رجل كبير السن

يسكن في البريمي، إلى الوكالة السياسية البريطانية، وقابل السيد «ولتون» الضابط السياسي البريطاني .يقول «ولتون»:

«إن الشيخ عبدالله النجدي قصّ لي مكرراً نفس القصة التي رواها صقر بالأمس، وزاد عليها بعض التلميحات عن الصفات الشخصية لمحمد بن صقر وسلطان بن سالم، ونصحني أن أطرد الأخير في الحال».

يقول «ولتون»:

«أشرت إليه بأن الشيخ سلطان بن سالم كان هنا من أجل جنازة ابن عمه».

فقال النجدي:

«حسناً.. تخلَّص منه بأسرع ما يمكن طال ما إن الأمر قد انتهى، وستجد أن الأمر قد حَسَم نفسه».

الإنجليز يكرهون الشيخ سلطان بن سالم القاسمي، فهو الذي أطلق النار على السيد "بيلي" المقيم السياسي البريطاني في البحرين، وكذلك على الضابط السياسي البريطاني في الشارقة. أما الشيخ محمد بن صقر القاسمي فيعرفون أنه الرجل القوي المعارض لكثير من الأمور المتُخَذة من قِبل الإنجليز.

يقول «ولتون»:

«شعوري الخاص أن محمداً من المحتمل أن يبرهن على أنه ملك قوي، ولن يتمكن حتى سلطان من حثه على لؤم وخبث حقيقيين؛ لأنه ليس من طبيعته أن يكون عنيفاً. أي أمور شيطانية تكون حاضرة في كونه حاكماً ستكون نتاج ضعف تجاه

الفعل، وليس بخلاف ذلك».

وفي صباح يوم ٢٨ مارس سنة ١٩٥١م، تجمّعت عائلة القواسم – كبيرها مع صغيرها – يتقدمهم الشيخ محمد بن صقر القاسمي حاكم الشارقة، في الغرفة العلوية وفي الساباط الذي أمامها. كان الشيخ سلطان بن سالم القاسمي، الحاكم السابق لرأس الخيمة، حاضراً، وكذلك إبراهيم بن محمد المدفع وزير المرحوم الشيخ سلطان بن صقر القاسمي. كما حضر الضابط السياسي البريطاني في الشارقة «ولتون» «Wilton» معزّياً.

وفي صباح يوم ٢٩ مارس سنة ١٩٥١م، حضرت العائلة بأكملها، وحضر الشيخ سلطان بن سالم القاسمي، وإبراهيم المدفع كذلك، وحضر الوكيل السياسي البريطاني في الشارقة للمرة الثانية، ناقلاً تعازي الوكيل السياسي البريطاني في البحرين «سي. جاي. بيلي». وقف إبراهيم بن محمد المدفع، وتحدّث مؤبناً ومادحاً المرحوم الشيخ سلطان بن صقر، وأنهى حديثه آملاً أن يقتفي الشيخ محمد نفس الطريق من التعاون المخلص والصداقة المثمرة مع حكومة جلالة ملك بريطانيا، كما تميزت في عهد شقيقه.

عند خروج الوكيل البريطاني، طلب منه الشيخ محمد بن صقر القاسمي أن ينقل شكره للوكيل السياسي البريطاني في البحرين، «بيلي»، على رسالة التعزية. كما طلب منه كذلك أن ينقل له رغبته المخلصة في التعاون مع الحكومة البريطانية في كل شيء.

كان الشيخ صقر بن سلطان القاسمي حاضراً في كل مناسبة، ولم يقل أيّ شيء سوى التعبير عن المشاعر التقليدية للضابط السياسي

البريطاني، وسؤاله عن استرجاع جثمان والده لدفنه.

في لندن تمّ غسل جثمان المرحوم، وتكفينه، ووضعه في تابوت لنقله إلى الشارقة. وفي اليوم الثلاثين من مارس من سنة ١٩٥١م، وصل إلى مستشفى «لندن كلينك» كل من خالد بن سلطان ومحمد بن سلطان ابنيّ المرحوم الشيخ سلطان بن صقر القاسمي لأخذ جثمان والدهما الراحل، لنقله من لندن إلى الشارقة على متن طائرة مؤجرة لهما بواسطة شركة بترول العراق، صاحبة الامتياز البترولي في الشارقة، وكانت تُسمّى لدى عامة الناس بشركة «لرمت» «Lermitte» - مدير الشركة المذكورة، على أن يرافقهما عربي يدعى منير شما، وهو أحد موظفي هيئة الإذاعة البريطانية لخدمة الشرق الأوسط، وكان يقوم بدور المترجم، وعلى أن يعود على نفس الطائرة إلى لندن. كان في وداع خالد ومحمد، ابنيّ المرحوم، «سي.إم. روز» «C. M. Rose» الضابط السياسي لشعبة الخليج في الدائرة الشرقية في وزارة الخارجية البريطانية بلندن، والذي كان مسؤولاً عن المرحوم وولديه في لندن في فترة العلاج، وقد أخبر كلاً من خالد ومحمد بموضوع التجنيد لفرقة «الليفيز»، وأن الشارقة قد اختيرت كمكتب رئيسي للقيادة. كان «روز» قد طلب منه المقيم البريطاني في البحرين أن يسأل خالد، ابن المرحوم الشيخ سلطان، عن مسألة الخلافة، فأجاب:

«عندما سألت خالداً عن هذه المسألة أكد على أن عمه هو من سيتولى خلافة الحاكم. وأخبرني بعدم وجود لمسألة تولي البكر الأمر، وأن المسألة تمّ التقرير بشأنها بناء على رغبة عامة الناس. كان له رأيٌ قليل المستوى عن صقر، وآخر رفيع بأن لا غنى عن

عمه، إذا كان على الأخير أن يتولى الخلافة».

مواراة المرحوم التراب

وصل الخبر بأن الطائرة المقلة للجثمان قد تحركت من لندن باتجاه الشارقة.

في صباح يوم الاثنين الثاني من إبريل من سنة ١٩٥١م، وصلت الطائرة المقلة لجثمان المرحوم الشيخ سلطان بن صقر القاسمي إلى مطار الشارقة، فنزل على سلم الطائرة كل من خالد ومحمد ابني المرحوم، ومن ثم منير شما. تعانق والدي مع ابني شقيقه وهما يبكيان، ووالدي يذرف الدمع، وكنت أنا ملتصقاً بوالدي.

نُقِل الجثمان، والذي كان في تابوت خشبي بنّي اللون، لامع، وله حلقات برونزية للنقل على جانبيه، ووضع على سيارة عسكرية مكشوفة، من نوع «لاندروفر» «Land-rover» ، واتجهت من محطة الشارقة إلى المسجد الجامع. وبما إن الجثمان كان قد غُسل وكُفّن إسلامياً في لندن، فقد أُخرِج من التابوت ووُضِع في نعش، ثم تمت الصلاة على المرحوم وحُمل نعشه على الأكتاف إلى مقبرة «الجبيل»، وجموع الناس تتبع الجنازة وحولها إخوان المرحوم وأبناؤهم وأنا معهم، تملأ عيوننا الدموع، حتى وصل الجثمان إلى المقبرة. كان القبر مُعدّاً، فأُخرِج الجثمان من النعش، وإذا به قد نزف دماً، وقد لاحظته عند منطقة البطن.

أُنزِل الجثمان في الجزء الأول من القبر قبل اللحد، ونزل والدي في القبر، وأخذ والدي ومن معه في إرخاء الخيوط التي تلزم الكفن، انكبَّ والدي على الجثمان باكياً. تمت مراسم الدفن، واتجهت الجموع

إلى الحصن لتقديم العزاء.

كان ذلك يوماً كَدِراً هبت فيه الريح الجنوبية «السهيلي» مثيرةً الغبار. اعتقاد جرى بين الناس أن يوماً مغبراً كهذا يوم شؤم، وقد كان.

النزاع من أجل الحكم

بعد مراسم دفن الجنازة عاد الجميع إلى الحصن لتلقي العزاء. يقول «ولتون»، الوكيل السياسي البريطاني في الشارقة، في رسالته للوكيل السياسي البريطاني في البحرين ما يلي:

«عندما عدت من دبي يوم الاثنين ٢ إبريل، بعد زيارة صاحب السعادة (المقيم السياسي البريطاني في الخليج)، وجدت أن الجنازة قد تمت مراسمها في الصباح. رافق خالد ومحمد جثمان والدهما من لندن، ولم يضيعا أي وقت من انتظاري مع صقر ومعبّرين عن دهشتهما من أن صقراً لم يتول الخلافة في الحكم بعد، وعدم رغبتهما في قبول أي حل آخر سوى ما يتوجب عليه القيام به».

ويذكر كذلك قائلاً:

«أن خالداً فيما يبدو قد غيّر رأيه منذ أن تحدّث إلى «روز» .

قام السيد "ولتون"، الوكيل السياسي البريطاني في الشارقة، بإرسال رسالة للشيخ محمد بن سالم القاسمي، والد الشيخ صقر حاكم رأس الخيمة، يطلب منه فيها أن يكون وسيطاً بين طرفي النزاع القائم في الشارقة.

- يوم الخميس ٥ إبريل سنة ١٩٥١م، وصل الشيخ محمد بن سالم القاسمي إلى الشارقة، وقابل «ولتون» في الوكالة السياسية البريطانية بالشارقة، والذي طلب نصحه للوصول إلى تسوية عبر حل يتفق عليه الجميع.

- يوم الجمعة ٦ إبريل سنة ١٩٥١م، الشيخ محمد بن سالم القاسمي يتنقل بين حصن الشارقة، حيث يقيم الشيخ صقر بن سلطان القاسمي، وبيت الشيخ محمد بن صقر القاسمي، وبيت الشيخ ماجد بن صقر القاسمي، حيث اجتمع أعمام الشيخ صقر، وهم إخوة الشيخ محمد بن صقر القاسمي: الشيخ ماجد والشيخ حميد والشيخ راشد والشيخ خالد بن خالد القاسمي.

- يوم السبت ٧ إبريل سنة ١٩٥١م، قابل الشيخ محمد بن سالم القاسمي السيد «ولتون» في الوكالة السياسية البريطانية بالشارقة، وأخبره بأن كلا الطرفين متمسكان على ما صمما عليه:

١- الشيخ صقر بن سلطان القاسمي: لن يقبل أيّ حل أقل من تعيينه خليفة لوالده في الحال.

٢- الشيخ محمد بن صقر القاسمي: يتحدث عن كونه سيتقاعد بعد سنة أو سنتين، لكنه أيضاً كان مصمماً على عدم القيام بذلك الآن.

٣- الأعمام: لم يتمكنوا من وضع حل لمسألة الخلافة. اقترح الشيخ محمد بن سالم القاسمي على السيد «ولتون» أن يحضر الأعمام لديه لمناقشة الأمر معه.. وبعد تردد من قِبل الأعمام، حدّدوا حضورهم يوم الخميس ١٢ إبريل سنة ١٩٥١م.

مرت سبعة أيام عصيبة على الشارقة؛ الشيخ صقر بن سلطان القاسمي وإخوته يتمركزون في الحصن، والشيخ محمد بن صقر القاسمي وإخوته يتمركزون في بيت الشيخ محمد بن صقر القاسمي.

- يوم الخميس ١٢ إبريل سنة ١٩٥١م وصل إلى الوكالة البريطانية بالشارقة، في تمام الساعة التاسعة والنصف صباحاً، كل من الشيخ ماجد والشيخ حميد والشيخ راشد والشيخ خالد بن خالد لمقابلة السيد «ولتون»، وانتهت المقابلة بتصريحاتهم جميعاً بأن الأمر يرجع للحكومة البريطانية، عندها قرر السيد «ولتون» أن يستدعي أسرة القواسم كلها إلى الوكالة السياسية البريطانية بالشارقة.

- يوم الجمعة ١٣ إبريل سنة ١٩٥١م: في صبيحة يوم الجمعة حضر جميع أفراد أسرة القواسم، ما عدا الخصمين، إلى الوكالة السياسية البريطانية بالشارقة، وقابلوا السيد "ولتون"، والذي أخبرهم أن القرار لابد أن يصدر منهم هم، وليس من أية جهة أخرى. ومن ثَمّ تركهم مع الشيخ محمد بن سالم القاسمي، كي يحاولوا الوصول إلى قرار. وإلى أن حان موعد الصلاة لم يتمكنوا من الوصول إلى شيء، سوى أنهم قالوا إنهم راغبون في أن يكون الحاكم مَنْ يتمكّن من إثبات جدارته.

يقول «ولتون» في رسالته للمقيم السياسي البريطاني في البحرين:

«إذا ما صوتت العائلة بقوة لصالح صقر، ورفض محمد أن يتزحزح، فلست متأكداً من كيفية مواصلة الأمر، أعتقد أنه في مثل تلك الظروف علينا الاعتراف رسمياً بصقر، ورفض أي تعاملات مع محمد، وقد يفسح الأخير الطريق دون أن نلجأ للقوة».

- يوم السبت ١٤ إبريل سنة ١٩٥١م: أدرك الشيخ صقر بن سلطان القاسمي أن لا أحد من أعمامه يمكنه أن يلزم نفسه بأي شيء، وأن مجلس العائلة يمكن أن يؤخر هذا الأمر إلى أجل غير مسمى؛ فذهب إلى الوكالة السياسية البريطانية بالشارقة، وقابل السيد «ولتون»، وسأله ما إذا كانت الحكومة البريطانية لا تمانع في قيامه بجولة لنيل التأييد من قِبل رجال المنطقة البارزين، ومدى استعداد السيد «ولتون» للاستماع لرغباتهم.

ردّ السيد «ولتون» بأنه لن يكون هناك ما يمنع ذلك، وأكد له بأنه على استعداد للاستماع لوجهات نظرهم فيما يتعلق بموضوع الخلافة، وأنه حقيقة لا يود شيئاً أفضل من معرفة رغبات كافة الجماهير والسكان.

- يوم الأحد ١٥ إبريل سنة ١٩٥١م: قام الشيخ صقر بن سلطان القاسمي في ذلك اليوم بالاتصال بعدد من رجالات البلد البارزين، وطلب منهم الذهاب إلى الوكالة السياسية البريطانية بالشارقة والإدلاء بصوتهم لصالحه. واستمر على ذلك لمدة يومين.

- يوم الاثنين ١٦ إبريل سنة ١٩٥١م: كانت محاولة الشيخ صقر ابن سلطان القاسمي لاستطلاع آراء سكان الشارقة قد أزعجت الشيخ محمد بن صقر القاسمي بشكل واضح، حيث كثر اللغط بين الناس مما أساء إلى سمعة عائلة القواسم؛ فذهب في ذلك اليوم إلى منزل السيد علي البستاني مساعد الوكيل السياسي البريطاني، ليلاً، محاولاً إقناعه كي يتدخل في الأمر، كوسيط بينه وبين الشيخ صقر، في التفاوض بشأن مخصصاته، إذا هو انسحب،

لكن السيد علي البستاني حبّذ فكرة طرح ذلك الأمر على الشيخ محمد بن سالم القاسمي.

الشيخ صقر بن سلطان القاسمي حاكماً للشارقة

- يوم الثلاثاء ١٧ إبريل سنة ١٩٥١م: استدعى والدي الشيخ محمد بن صقر القاسمي إخوته، في صبيحة ذلك اليوم إلى منزلنا وعقد اجتماعاً مغلقاً معهم.

روى لنا والدي ما حدث:

«طلبت من إخوتي أن يتركوا سلاحهم، ويأتوا معي للذهاب إلى حصن الشارقة لمقابلة الشيخ صقر بن سلطان القاسمي. وأمام بوابة الحصن لم يُفتح باب الحصن، حتى تأكد الحرس هناك أننا غير مسلحين، بالنظر إلينا من الفتحتين المخصصتين لرماية من يحاول كسر البوابة. فُتحت البوابة، وإذا بصقر واقف قبالة البوابة من الداخل، وهو يصيح: «عمي».. ويقبّلني، وهو يردد بأنه لن يخرج عن طوعي. تأكدت حينها أن السيد علي البستاني قد أخبره بموضوع التنازل».

يقول والدي: «جلسنا مع صقر، وقلت له: إن هذا الملك استعيد بالقوة، ولا تتصور أن الإنجليز سيحكّمونك، لكنني أنا الذي سأحكّمك. أمور الحكم كثيرة، امضِ بالأمور التي تقدر عليها، والتي تستعصي عليك راجعني أنا وأعمامك لحلها».

يقول والدي بأن صقر قام وقبّله، وقبّل أعمامه، بعد أن باركنا له بالحكم.

وبينما والدي كان يروي لنا ما حدث، وإذا بالمدافع من أمام الحصن تطلق خمس طلقات، وعلى صوتها أسرع الشيخ محمد بن سالم القاسمي إلى بيتنا، ثم خرج ودخل الحصن، ومن هناك إلى السيد «ولتون» في الوكالة السياسية البريطانية بالشارقة حاملاً معه رسائل من والدي الشيخ محمد بن صقر القاسمي معلناً فيها استقالته، وانسحابه لمصلحة الشيخ صقر بن سلطان القاسمي، ورسالة من الشيخ صقر بن سلطان القاسمي، معلناً توليه الحكم.

- يوم الأربعاء ٢١ مايو سنة ١٩٥١م: صبيحة ذلك اليوم، خرجنا من المدرسة القاسمية واتجهنا إلى الساحة الأمامية للحصن، وقمنا برفع علم الشارقة، وفي مقدمتنا مدير المدرسة الأستاذ أحمد ابن محمد أبو رحيمة والمدرسون، فوجدنا أمامنا خيمة نُصبت قِبالة بوابة الحصن، ورتّب مدير المدرسة وضعنا في طابور من الشرق إلى الغرب ناحية الحصن، وأمامنا خطوط بيضاء على الأرض تفصل بيننا وبين الخيمة؟ حتى إذا ما وصلت قوات سلاح الجو الملكي بالشارقة والمجندون (الليفيز)، نقلونا إلى وضع فيه يبدأ طابورنا من بوابة الحصن وبمحاذاة الحصن.

- بدأت مراسم اعتراف الإنجليز بالشيخ صقر بن سلطان القاسمي حاكماً للشارقة كما يلي:

١- وضع استحكامات سلاح الجو الملكي والقوات المجندة (الليفيز) أمام الحصن، في ثلاثة جوانب من الميدان المخطط، حيث توجد مقاعد الحكام ومجموعة من الأوربيين في الخيمة المنصوبة.

٢- وصول المقيم السياسي في الخليج وصحبه لأخذ مقاعدهم.

٣- خروج الشيخ صقر من الحصن ومروره من خلال أقواس من سعف النخيل، وتلقيه التحية. ثمّ تفقُد قوات الحرس؛ بعدها تمت تحيته بواسطة المقيم السياسي البريطاني في الخليج، والذي رافقه حتى الجلوس، فأخذ مقعده على اليمين، وأخذت بطانته مقاعدها في يمين الخيمة.

٤- كلمة المقيم السياسي في الخليج.. وجاء فيها: اعتراف الحكومة البريطانية بالشيخ صقر بن سلطان القاسمي حاكماً للشارقة خلفاً لوالده.

٥- كلمة سمو الشيخ صقر بن سلطان القاسمي حاكم الشارقة، وجاء فيها: تعهده بالمواثيق الموقّعة بين الحكومة البريطانية ووالده.

٦ - مغادرة المقيم السياسي وصحبه — التحية المناسبة.

٧ - دخول سمو الحاكم الحصن — التحية المناسبة.

أما والدي فقد ابتعد عن تلك الاحتفالات، كما ابتعد عن مجلس الشيخ صقر بن سلطان القاسمي في الحصن، إثر حادثة حدثت عندما أتى مشتكٍ، وجلس بين يدي والدي يشكو له، فما كان من الشيخ صقر بن سلطان القاسمي حاكم الشارقة إلاّ أن نهر المشتكي قائلاً:- «أنا الشيخ، ليس هو. تعال هنا!».

ما إن أغلقت المدرسة القاسمية بالشارقة أبوابها، في نهاية شهر مايو من سنة ١٩٥١م، حتى أخذنا والدي إلى رأس الخيمة لقضاء فترة الصيف هناك في منطقة «الغب». وكنت وقتها قد ختمت القرآن على

يد الأستاذ «فاضل». وختم القرآن كان بتلاوته صحيحاً، وليس بحفظه كله. وجرت العادة على أن يقُدَّم من يختم القرآن غداءً للمدرسين والطلبة.

في الغب في رأس الخيمة، تمَ زواج شقيقتي الكبرى شيخة بنت محمد القاسمي والذي تأجل لمدة سنتين لأسباب مرض ووفاة عمي المرحوم الشيخ سلطان بن صقر القاسمي، حيث كان العريس ابنه الشيخ خالد مرافقاً لوالده في فترة علاجه في الهند وفي بريطانيا. وقد قضى والدي مدة الصيف كلها معنا في الغب برأس الخيمة.

الفصل الرابع

تطـور التعليم في الشارقة

مرّ التعليم في الشارقة في تلك الفترة بخمس مراحل:

المرحلة الأولى: وهي العام الدراسي ١٩٥١ - ١٩٥٢م

عندما عدنا إلى الشارقة، بعد قضاء فترة الصيف برأس الخيمة، لندخل المدرسة القاسمية، في شهر سبتمبر ١٩٥١م، كانت المدرسة هي المدرسة نفسها (بيت البريمي)، أما الفصل الدراسي فقد كان الصف الرابع، وكان أستاذي أستاذاً آخر يُدعى عبدالله القيواني بدلاً من الأستاذ فاضل. أما ناظر المدرسة فكان الأستاذ أحمد بن محمد أبو رحيمة. وبعد أيام قليلة من دخولنا الصف الرابع وإذا بناظر المدرسة الأستاذ أحمد أبو رحيمة يدخل مصطحباً معه شاباً ضئيل الجسد قدّمه لنا قائلاً:

«هذا الأستاذ نصر الطائي، عُيّن مدرساً للغة الإنجليزية للصفين الرابع والخامس؛ وحيث إن الصف الخامس عدد طلابه قليل

وعددكـم أنتم أكـبر فقـد أتى ليأخذ بعضـاً مـن طلبة الصف الرابع ليكمل بهم العدد المطلوب للصف الخامس».

أخذ الأستاذ نصر يمتحن الطلبة واحداً تلو الآخر، حتى أتى دوري فخرجت إلى السبورة، فأخذ يُملي عليَّ البيت التالي:

إذا المرءُ لم يدنس من اللؤم عرضه
فكـل رداءٍ يرتديـه جميـلُ

انتهى الامتحان الشفوي، وخرج ناظر المدرسة وأستاذ اللغة الإنجليزية من الصف الرابع، فكنت الطالب الوحيد الذي اصطحباه معهما إلى الصف الخامس.

في الصف الخامس كان جميع الطلبة أكبر مني سناً، وقد تعلّموا قبلي نوعاً من علم الحساب، والذي كان يُستعمل في التجارة في تلك الفترة.

أوكل الأستاذ أحمد أبو رحيمة مدرس الصف إلى أحد الطلبة ويُدعى محمد حبيب اليوسف أن يقوم بشرح علم الحساب البدائي لي فقام به خير قيام.

أما مدرس اللغة الإنجليزية، الأستاذ نصر الطائي، فقد كان شديداً في معاملته للطلبة، لم يسلم منه أي طالب من دون عقاب إلاّ أنا، فلم أنـل منه إلاّ المعاملة الحسـنة. ولقـلة عـدد الكتب اشترك كل طالبين في كتاب واحد، فكان من نصيب الطالب (أ) القاطن في الجهة الجنوبية من مدينة الشارقة اشتراكه مع الطالب (ب) القاطن في شمال مدينة الشارقة. وكلما سأل الأستاذ نصر الطالب (ب) عن بعض الكلمات كان الرد منه: ليس في نصفي. وتكررت تلك العبارة في ذاك الدرس، فسأل الأستاذ نصر عن حكاية نصفي. فأجاب الطالب (ب):

«أنا في شمال المدينة، وهو في جنوبها، فكيف نذاكر مع بعض، فقطعنا الكتاب إلى نصفين، وجاء حظّي أن هذه الدروس ليست في نصفي».

في صباح يوم من أيام شهر نوفمبر سنة ١٩٥١م، زار الشارقة الشيخ عبدالله السالم الصباح، أمير الكويت، وفي مجلس الشيخ صقر بن سلطان القاسمي حاكم الشارقة في الحصن، قدّم الأستاذ أحمد أبو رحيمة الطالب تريم بن عمران ليلقي كلمة ترحيبية بمقدم الشيخ عبدالله السالم الصباح، ومن ضمن الكلمة تقديم طلب من طلبة الشارقة بمدهم بالكتب والمدرسين.

عند خروج الشيخ عبدالله السالم الصباح من بوابة الحصن، شاهد صفاً من طلبة الصف الخامس يتقدمهم الأستاذ أحمد أبو رحيمة. وقبل أن يركب السيارة مال ناحيتنا، ومعه الشيخ عبدالله الجابر الصباح رئيس المعارف بالكويت، وهو يقول:

«يا أستاذ.. طلبكم حوّلناه للشيخ عبدالله الجابر الصباح».

كان ذلك بداية يوم سعيد، فرح الطلبة والمدرسون، وعقدوا آمالاً على ما سيأتي من الكويت، حيث كانت الكتب التي في مكتبتنا تأتينا من مصر عن طريق الهند، وتستغرق الشحنة المرسلة من مصر بالبحر إلى الشارقة أسابيع عدة.

في صباح يوم من أيام شهر ديسمبر سنة ١٩٥١م، وبعد أن دخل الطلبة إلى صفوفهم، أخبر ناظر المدرسة وهو مدرس صفّنا الأستاذ أحمد أبو رحيمة، بأن الأستاذ فاضل مدرس الصف الثالث غائب. وسألَنا الأستاذ أحمد أبو رحيمة:

«مَنْ منكم يعرف بيت الأستاذ فاضل؟».

فأجبته: «أنا.. لأنه يسكن بالقرب من بيتنا».

قال الناظر: «اذهب واستفسر منه، لماذا لم يحضر إلى المدرسة اليوم؟».

قلت: «لقد صلى الفجر معنا اليوم».

خرجت من المدرسة، حتى إذا ما وصلت إلى البيت الذي يسكن فيه الأستاذ فاضل، وجدت باب بيته وكأنه مغلق، لكنه انفتح عندما دفعت به إلى الداخل.

كان باب الغرفة الوحيدة في البيت، والتي يسكن بها، مشرعاً.. فدخلت فوجدته متكئاً على الجدار ممدداً رجليه إلى الأمام، وعيناه مفتوحتان تنظران إلي.

ناديته: «أستاذ فاضل.. أستاذ فاضل!».

لا جواب!

أمسكت إحدى رجليه وهززتها، فلا حراك.

«مات.. مات الأستاذ فاضل!».

وأخذت أجهش بالبكاء، وأنا في طريقي إلى المدرسة، وأردد:

«مات الأستاذ فاضل! مات الأستاذ فاضل!».

حتى إذا ما وصلت إلى قبالة الأستاذ أحمد أبو رحيمة، كانت آخر الكلمات:

«مات الأستاذ فاضل!».

هب ناظر المدرسة من مكانه، ونادى على المدرسين، وانتقلوا إلى البيت الذي كان يسكن فيه الأستاذ فاضل، فغسلوه، وكفّنوه، ونقلوا جثمانه

إلى مسجد «البدو» - قبالة المدرسة القاسمية - وصلى عليه المدرسون والطلبة وجمع من الناس، بعد صلاة ظهر ذلك اليوم. نُقل بعدها ليدفن.. أما الطلبة فقد مُنحوا إجازة لبقية دوام ذلك اليوم.

في شهر مارس سنة ١٩٥٢م زار المدرسة القاسمية في الشارقة وفد تربوي من الكويت، بقيادة يوسف الفليج، التاجر المعروف في الكويت، للاطلاع على مستوى التعليم في المدرسة وعدد طلابها. وقد أقيم حفل ترحيبي لذلك الوفد، وألقيت القصائد والخطب، أما أنا فقد كتب لي الأستاذ نصر الطائي كلمة باللغة الإنجليزية ألقيتها، فأُعجب بها الحضور.

في شهر إبريل سنة ١٩٥٢م تم الاستغناء عن الأستاذ نصر الطائي مدرس اللغة الإنجليزية، لتصرفات ما كان عليه أن يأمر بها، فقد كان إذا أخطأ لديه الطالب يقوم بضربه ضرباً مبرحاً على رجليه المثبتتين بـ«الفلقة»، وهي عبارة عن قضيب خشبي تُربط إليه رجلا الطالب وتُرفعان إلى أعلى، ويُضرب على أخمص قدميه، وفي بعض المرات كان يضع في كلتا يدي الطالب حجرين من مرجان البحر ليرفعهما إلى أعلى وهو جالس على مقدمة قدميه. كما كان يعلق على صدر الطالب لوح حجر وهو الذي يكتب عليه الطلبة، ويؤتي بلوح آخر يُعلق على ظهره، وقد كتب عليهما العبارة التالية:

«أنا الكسلان، شاهدوني واضحكوا».

أما إذا كان العقاب شديداً، فكانت العبارة:

«أنا الحمار، شاهدوني واضحكوا».

كان يُطاف بالطالب على الفصول، وبالعبارات السابقة، وجموع

الطلبة تضحك وتستهزئ بالطالب المعاقب.

كان الأستاذ نصر قد قرر منع التحدث باللغة العربية في الصف في حصة اللغة الإنجليزية، وعلى الطلبة أن يتحدثوا باللغة الإنجليزية، ومن يتلفظ باللغة العربية يُعطى قطعة خشب دائرية مميزة، ويؤخذ منه آنتان للصندوق. فإذا ما تلفظ طالب آخر باللغة العربية صاح الطلبة: «Give him the log!» – أعطه الخشبة!

يُؤخذ من الذي تلفَظ بالعربية آنتان، ترجع آنة واحدة لصاحب قطعة الخشب السابق، وآنة واحدة للصندوق (١/١٦ روبية).

كانت اللغة الإنجليزية تُدرّس في المدرسة لأول مرة، لذلك تحوّل التفاهم بين الطلبة للغة الإشارة.

وفي ذات مرة سأل الأستاذ نصر الطائي الطلبة عن معنى كلمة عربية باللغة الإنجليزية، وإذا بأحد الطلبة في آخر الصف رافعاً يده، وبحركة من سبابته، ملحاً على الجواب، حيث لم ترتفع يد أخرى حينها في الصف، فالتفت الجميع لمشاهدة ذلك الطالب، وإذا به يبين بلغة الإشارة:

وضع سبابته ناحية صدره، بمعنى أنا. ثم وضع سبابته والوسطى، موجهتين إلى أسفل، وحركهما بحركة مخالفة واحدة للأخرى، بمعنى (أذهب). ثم وضع إبهامه على سبابته، وبحركة أمامية وخلفية من عند أسفل بطنه، بمعنى (أتبوّل).

ضحك الطلبة! فقال أحدهم: «اضحكوا بالإنجليزية!»، فعوقب على ذلك.

عاقب الأستاذ نصر الطائي مرة سعود بن سلطان القاسمي، الطالب

في الصف الرابع، بأن ضربه على يديه. فاشتكى سعود بن سلطان القاسمي على الأستاذ نصر إلى أخيه الشيخ صقر بن سلطان القاسمي حاكم الشارقة، وبيّن له ما يدور في المدرسة. لذلك أبعد الأستاذ نصر الطائي عن المدرسة وعن الشارقة كذلك.

بقي من المدة الدراسية في المدرسة القاسمية بالشارقة بضعة أسابيع.. فتبرع مساعد الضابط السياسي البريطاني في الوكالة السياسية البريطانية بالشارقة «بك ماستر» «Buck Master» بتدريس اللغة الإنجليزية ليلاً بمدرستنا، فلم يستمر، فاستُبدل بجاسم بن محمد بن جاسم، وكان وقتها موظفاً في الوكالة السياسية البريطانية في الشارقة، فلم يستمر هو الآخر. كان ذلك قريباً من وقت إغلاق المدرسة في نهاية شهر مايو سنة ١٩٥٢م، للعطلة الصيفية.

أمضينا العطلة الصيفية في رأس الخيمة، بمنطقة الغب، وكان معنا في ذلك الصيف مطر فيروز، عائداً من الرياض، حيث كان يدرس الفقه في أحد المعاهد هناك.

كان مطر فيروز صبياً يتيماً، أصيب بالجدري في أواخر سنة ١٩٣٥م؛ عندما حل بالشارقة وبقية الإمارات، وقد تقرر نقله إلى المحجر، حيث يوضع به المصابون بمرض الجدري، وكان يسمى «المجدّر». فلما علم والدي بذلك، طلب أن يأخذه عنده في بيته، وهنا خافت والدتي على أولادها، فرد عليها والدي: هذا صبي صغير وقد كفّ بصره، ونتركه لدى مَنْ في المجدّر؟! أنا سأقوم بمداواته.

قام والدي بمداواة الفتى مطر حتى شفي من المرض. وقد كلّف شقيقتي الكبرى شيخة أن تأخذه معها عند الذهاب إلى مدرسة

المطوع «فارس» والإياب منها. حتى إذا ما ختم حفظ القرآن، بعثه والدي إلى الرياض لإكمال تعليمه في معهد للدراسات الإسلامية.

في الغب أسكن مطر في «المجلس»، وهو عبارة عن عريش من سعف النخيل. وتعودت أن آخذه يومياً في الصباح الباكر، ممسكاً بيده، إلى مسافات بعيدة.. مرة يمشي، ومرات كان يهرول.. وكنت عينه التي يبصر بها، فكان يحدثني عن السيرة النبوية وبعض الأحاديث النبوية الشريفة، ومرات يتغنى بأبيات شعر، جلّها حِكم وأمثال.

المرحلة الثانية: وهي العام الدراسي ١٩٥٢-١٩٥٣م

عندما ذهبت إلى المدرسة القاسمية في الشارقة، وجدت أموراً كثيرة قد تغيرت:

أولاً: ناظر المدرسة الأستاذ أحمد بن محمد أبو رحيمة قد ترك المدرسة، وسافر إلى المملكة العربية السعودية.

ثانياً: الطلبة: بعضهم انضم لقوة ساحل عُمان، التي أُنشئت في تلك الفترة، والبعض الآخر انضم للقاعدة البريطانية. أما تريم بن عمران وأخوه عبدالله، فقد انتقلا إلى أقربائهما في الكويت، ليدرسا في مدارسها، ومحمد بن حمد الشامسي انتقل إلى البحرين للدراسة هناك، وقد سكن في القسم الداخلي في البحرين.

أما الطالب علي بن محمد أبو رحيمة، وهو شقيق الأستاذ أحمد بن محمد أبو رحيمة ناظر المدرسة، وكان أكبر طالب في صفّنا، فاستلم التدريس في الصف الخامس، والذي كان طلبته هم المنقولون من الصف الرابع وأنا معهم، حيث رجعت بمفردي لزملائي.

وكان الأستاذ علي أبو رحيمة قد قام بتأليف وتمثيل أول مسرحية في المدرسة القاسمية، وكان عنوانها «الحطاب وبنت السلطان».

كان مبنى المدرسة القاسمية قد اشتراه الشيخ سلطان بن صقر القاسمي من إسماعيل البريمي، وجعله مقراً للمدرسة القاسمية. أما بعد وفاة الشيخ سلطان بن صقر القاسمي فقد كان مبنى المدرسة من نصيب الشيخة «ميرة بنت محمد السويدي»، أرملة الشيخ سلطان، من الميراث، وأخذت تطالب بالمبنى.

كان هناك مبنى كبير في حي الشيوخ، تابع لمحمد بن علي ابن كامل، الذي قد توفيت ابنته. .والدة سالم بن عبدالرحمن المدفع فيه، فهجره محمد بن كامل إلى بيت آخر. قام الشيخ صقر بن سلطان القاسمي بشراء ذلك البيت، ونُقلت مدرسة القاسمية إلى بيت ابن كامل، كما نُقل قسم البنات إلى الجزء الشمالي من البيت، بعد أن فُصل بسور من السعف.

أما ناظر المدرسة، فقد أُحضر من البحرين، ويدعى الأستاذ إسماعيل.

كان الأستاذ إسماعيل، ناظر المدرسة، قد ألبس الطلبة الكبار في المدرسة سراويل قصيرة، وأخذ يجول بهم في شوارع مدينة الشارقة، ويقوم بإجراء التمارين الرياضية مساءً أمام سكان المدينة، الذين كانوا يسارعون لمشاهدة تلك الاستعراضات. فاحتج المحافظون من أهالي الشارقة، وهدد بعضهم بإخراج أبنائهم من المدرسة، فتم توجيهه بعدم دوام الطلبة مساء، وأن تقام التمارين الرياضية في المدرسة في أثناء الدوام الرسمي. أما البنات، فقد خُصص لهن جزء من المدرسة عُزِل

بسياج من سعف النخيل.

في بداية سنة ١٩٥٣م وصلت إلى الشارقة سيدتان قادمتان من عُمان، إحداهما تدعى «سارة هوسمن»، كبيرة في السن، إحدى قدميها خشبية؛ وأخرى تدعى «مريم خاتون»، وهما من الإرسالية الأمريكية في عُمان.. واستأجرتا من والدي بيت السركال، وحولتاه إلى مستشفى «سارة هوسمن» للولادة. وقد وُلد معظم أبناء وبنات الشارقة في ذلك المستشفى.

عندما أغلقت المدرسة القاسمية أبوابها لعطلة الصيف، أخذنا والدي وكالعادة إلى منطقة الغب في رأس الخيمة لقضاء فترة الصيف، وفي هذه المرة تأخر والدي بالرجوع إلى الشارقة، فحذروه قائلين بأن (البلد تنكر من يتأخر)، أي يصاب بالحمى. وكانت العامة لا تعرف أسباباً لذلك، لكن والدي كان يعرف أن السبب هو البعوض الذي كان ينتشر في تلك الفترة، فاتخذ والدي الاحتياطات اللازمة لذلك.

عند تأخرنا هذه الفترة في منطقة الغب، قيل لنا إن هناك مهرجاناً يقال له «النيروز»، ومعناه عند العامة: نهاية الموسم؛ أي بعد أن يُجمع التمر الذي نشف على عذوقه، ويُفرش في حوش أرضيته صلبة، تتم تنقيته، وتركه معرضاً للشمس، يقال لذلك المكان «المسطاح». بعد عدة أيام يوضع في أكياس من سعف النخيل، فإذا كان الكيس صغيراً قيل عنه «جراباً»، وإذا كان كبيراً قيل عنه «جلة»، ثم تُقفل وتوضع في حجرة مظلمة وبابها محكم، حتى لا تدخلها الحشرات أو القوارض، يقال لها «المدبسة». تُصف «الجليل» (وهو جمع جلة) على بعضها على مجارٍ تحتها.. وبفعل الضغط والحرارة ينز التمر دبساً

يجري في المجاري، فيتجمع في زير من الفخار مدفون بأرضية المدبسة.

بعد تلك العملية يكون أصحاب مزارع النخيل والمزارعون فيها قد أتموا الحصاد، وذلك هو (النيروز) - أي نهاية الموسم.

يبدأ النيروز وهو نطاح بين ثورين، حيث يحضر أصحاب المزارع ثيرانهم، التي كانوا يستعملونها لجرّ الدلاء في سقي مزارعهم، كما يحضر الأهالي من كل حدب وصوب، إلى منطقة مستوية، قبالة منطقة «شمل»، ويتم الاختيار بين الثيران المتكافئة.. ويبدأ النطاح بين ثورين، حتى إذا ما انهزم أحدهما، يُقدم ثوران آخران. وهنا تقدم شقيقي صقر، وقد أحضر أحد ثيران مزرعتنا، وكان كبيراً في حجمه، له قرنان مقوسان، قد سنهما شقيقي بمبرد جعلهما كرؤوس الرماح، وكان ذلك ممنوعاً في النيروز.

قُدم لثور شقيقي عجل مكتمل، قرناه صغيران، صاحبه «سيف الرمس». وتقابل الثوران. كانت عملية النطاح تحدث بقرون الثيران، لكن ثور شقيقي خرق القانون، وضرب ثور سيف الرمس بقرنه الحاد وأحدث له جرحاً من إذنه وعلى طول رقبته حتى كتفه. هنا ثار ثور سيف الرمس ونطح ثور شقيقي في بطنه، وأسقطه أرضاً، وأخذ بنطحه في أي مكان من جسمه. هنا وقف ثور شقيقي، وهرب من المعركة، فتبعه ثور سيف الرمس حتى دخل ثور شقيقي مزرعتنا، فدخل ثور سيف الرمس وراءه، فتناطحا طوال الليل.

المرحلة الثالثة: وهي العام الدراسي ١٩٥٣-١٩٥٤م

عندما عدنا إلى المدرسة القاسمية «بيت ابن كامل» في أوائل سنة

سبتمبر ١٩٥٣م، كانت المدرسة القاسمية في الشارقة قد ضُمت إلى دائرة المعارف في الكويت في العام الدراسي ١٩٥٣-١٩٥٤م.

وفي بداية شهر سبتمبر سنة ١٩٥٣م، وصل إلى الشارقة اثنان من المدرسين مبعوثَين من قبل دائرة المعارف في الكويت، هما مصطفى طه، كناظر للمدرسة، والأستاذ أحمد قاسم البوريني مدرساً.

قام ناظر المدرسة والمدرسون بإجراء امتحانات لتحديد مستويات الطلبة، وكانت النتيجة أن ترتبت الصفوف من الأول إلى الرابع الابتدائي. وقد تأسس أول فريق لكرة القدم بالمدرسة.

أما مدرسة البنات، فقد تم تحديد المستوى بين الطالبات، وكان ناظر المدرسة يقوم بالتدريس، مع مدرّسة مواطنة تدرس القرآن الكريم.

في العطلـة الصيفية ارتحـلنا إلى رأس الخيمة، حيث هنــاك

مزرعتنا في الغب، وكان والدي معنا في تلك الفترة، ومرافقه العسكري، ويُدعى سيف الدح، وكان ينام مفترشاً الأرض أمام المجلس الخارجي.. فقام مرة وأمر المرافق الثاني ويدعى «مسعود» أن يطلق النار من بندقيته على أشجار النخيل في المزرعة، فهب والدي وأبناؤه إلى حيث يقف مسعود؛ فلما سأله والدي عن سبب إطلاق النار، قال مسعود:

«إن سيف الدح هو الذي أمرني بذلك».

قال والدي: «وعلى ماذا كنت تطلق النار؟».

قال مسعود: «على الشراع الذي كان ماراً وسط المزرعة».

قال والدي: «وهل شاهدته؟».

قال مسعود: «لا، ولكن سيف الدح هو الذي أخبرني».

تأكدت مع إخوتي صقر وعبدالعزيز أن ذلك كان من تدبير سيف الدح لتخويفنا، والذي كان يحاول أن يجمع ثمرات اللوز المتساقطة ليلاً، بعد صلاة الفجر، من الشجرة الكبيرة والعالية والملساء الفروع والتي لا يستطيع أي فرد أن يتسلقها، بأوراقها الكبيرة وثمرتها التي كانت بحجم كفي؛ هي ليست باللوز المعروف في الشام، وإنما شجرة محلية تكثر بالبحرين. فقررنا أن نذهب إلى المزرعة، قبل أن يأتي سيف الدح ليستحم في حوض الاستحمام ليلاً.

عندما شاهدناه قادماً، اختفيت أنا مع عبدالعزيز خلف جذوع النخيل، أما صقر فقد غطس في حوض الاستحمام، وترك وجهه فقط فوق سطح الماء.

وصل سيف الدح إلى الحوض، حيث كان المكان يلفه الظلام.. وحينما نزل إلى الحوض، غاص صقر وأمسك برجلي سيف الدح تحت الماء، فصرخ سيف صرخة عالية، ودفع بجسمه إلى خارج الحوض، ما عدا رجليه، حيث أمسكهما صقر وشدهما إلى قاع الحوض. وهنا صرخ سيف صرخة ثانية أعلى من الأولى، ودفع بجسمه إلى خارج الحوض، أبعد من المرة الأولى، وأخذ يركض على الممر المؤدي إلى بوابة المزرعة، ومنها إلى الأرض الفضاء، ومن ثم إلى المجلس، عارياً، لا يستر عورته أي شيء.

عند جلوسنا مع والدنا في الصباح، حول مائدة الإفطار، كان سيف الدح يتحدث عما جرى له في الليلة الفائتة، حيث قال:

«كانت أصابعه كالمناشير، وقد ضربته، وتغلبت عليه، وهرب مني».

كان يجلس إلى جانب سيف الدح شقيقي صقر، ومعه صرة بها

الملابس التي تركها سيف خلفه الليلة الفائتة. وبينما كان سيف يتحدث، وكزه شقيقي صقر وبإشارة من رأسه منبهاً سيف إلى أن ينظر إلى ما بخلفه، فلما شاهد سيف الملابس سكت عن الكلام.

انتشر الخبر بأن هناك (جان) في مزرعة الشيخ محمد بن صقر القاسمي بالغب. وتأكد ذلك أكثر عندما جلبت معي من الشارقة قناعين شكلاهما مخيفان، فكنت ألبس أحدهما وأخرج للمارة من تحت القنطرة التي تنقل الماء، فمنهم مَنْ يخاف ويهرب، ومنهم من يرفع سكينه عليّ فأهرب.

وذات يوم حضر للقرية شخص يبيع الليمون على حمارة له، ومعها وليدها، فلما حمل بائع الليمون بعضاً منه ليعطيه للخادمة بداخل بيتنا، أنزلت أنا وصديق لي يُدعى «راشد بن سلطان المخاوي» الخرج الذي به الليمون، وركبنا الحمارة، ولبس كل منا قناعه، فأنا في مواجهة رأس الحمارة، وراشد يواجه دبرها، ورافعاً ذيلها.. ودخلنا الحارة الشرقية من قرية الغب، وإذا بالنساء يصرخن حاملات أطفالهن، والأولاد يتبعوننا، بينما الغبار يتطاير والصراخ يتعالى.

المرحلة الرابعة: وهي العام الدراسي ١٩٥٤-١٩٥٥م

في بداية شهر سبتمبر من سنة ١٩٥٤م، وصل إلى الشارقة الأستاذ محمد ذياب الموسى كمدرس في المدرسة القاسمية بالشارقة. وفي شهر نوفمبر من العام نفسه، قام الأستاذ محمد ذياب الموسى، بعد أن تم استلام الملابس والأدوات الكشفية، بتأسيس أول فرقة كشافة في الإمارات، وفي الشارقة بالذات، بقيادته، وكان العريف الأول لها

سلطان بن محمد القاسمي.

وفي يناير من سنة ١٩٥٥م، تم تأسيس أول فرقة أشبال في الإمارات، وفي الشارقة بالذات، بعد أن تم استلام ما يلزم لتأسيس تلك الفرقة، حيث تأخر وصولها من الكويت. أُوكلت قيادة فرقة الأشبال للأستاذ «أحمد قاسم البوريني»، وكان العريف الأول لفرقة الأشبال «سلطان بن صقر القاسمي»، ابن حاكم الشارقة.

ومنذ بداية العام الدراسي، تم تكوين فريق كرة القدم للمدرسة القاسمية.

وإلى مدرسة البنات الملاصقة لمدرسة البنين وصلت المعلّمة شريفة لتقوم بتدريس البنات.

انتقل طلاب المدرسة القاسمية إلى المبنى الجديد، والذي بُني على طراز مدرسة في منتصف المسافة بين مدينة الشارقة والقاعدة البريطانية، وتُرك (بيت ابن كامل) ليكون مدرسة للبنات في نهاية العام الدراسي ١٩٥٤م – ١٩٥٥م.

في الإجازة الصيفية، وفي شهر يونيو سنة ١٩٥٥م بالذات، سافرت مع العائلة إلى المملكة العربية السعودية لأداء فريضة الحج، وسيأتي شرح تلك الرحلة في الفصل القادم.

المرحلة الخامسة: وهي العام الدراسي ١٩٥٥ - ١٩٥٦م

أصبح الأستاذ محمد ذياب الموسى ناظراً للمدرسة، ووصلت البعثة المصرية المكوّنة من الأستاذ عبدالرحيم محمد والأستاذ غريب عبدالصالحين، وانضم إلى فصلنا الطالب محمد بن حمد الشامسي والذي كان يدرس بالبحرين، كما انضم كذلك الطلبة تريم بن عمران

بن تريم وعبدالله بن عمران بن تريم وسعيد عبيد الشاعر والذين قدموا من مدارس في الكويت.

كان هناك المهرجان الرياضي السنوي، ومشاركة كشافة الشارقة في المخيم الكشفي في الكويت.

مشاركة كشافة الشارقة في المخيم الكشفي العاشر في الكويت

في بداية سنة ١٩٥٦م، قرر الأستاذ محمد ذياب الموسى، قائد الكشافة ومدير المدرسة القاسمية في الشارقة، المشاركة بفرقة من كشافة الشارقة في المخيم الكشفي العاشر في منطقة الفنيطيس بالكويت، وقد أطلق عليه «الجامبوري الأول»والذي كان سيقام في ١٥ مارس سنة ١٩٥٦م.. وتشكلت تلك الفرقة من كل من:

١- رقيب أول سلطان بن محمد القاسمي رئيساً للفرقة.

٢- عريف الطليعة سعود بن سلطان القاسمي.

٣- الكشاف حميد بن ناصر العويس.

٤- مساعد عريف الطليعة سالم بن إبراهيم المزروع.

٥- مساعد عريف الطليعة بيات محمد الحريز.

وحتى يكون مظهرنا لائقاً، كلفني الأستاذ محمد ذياب الموسى بشراء قماش لتفصيله «بدلات» لأعضاء الفرقة، وشراء قمصان وأحذية وجوارب وملابس داخلية؛ فأخذت أعضاء الفرقة معي إلى السوق، وقمت بشراء كل ما يحتاجون إليه.

أما جوازات السفر فقد قام بإنجازها سعود بن سلطان القاسمي.

في الثاني عشر من مارس من سنة ١٩٥٦م أوصلنا الأستاذ محمد ذياب الموسى إلى مطار الشارقة، وسلمني جوازات السفر وأعلاماً للكشافة وأعلام الشارقة ومبلغاً من المال، وأوصانا أن نتحلى بالأخلاق الحميدة وأن نمثّل بلدنا ومدرستنا خير تمثيل.

ركبنا طائرة من طيران الخليج، نقلتنا إلى مطار البحرين، ومن ثَمَّ إلى مطار الكويت حيث كان الوقت بعد الظهر، فكان في استقبالنا مندوب من قِبل دائرة المعارف في الكويت ومعه سالم بن عبدالله المحمود الذي كان يتلقى تعليمه في الكويت.

من مطار الكويت نقلتنا سيارة إلى مدينة الكويت مع كل من مندوب المعارف وسالم بن عبدالله المحمود، وأوصلتنا إلى «بيت شرق»، حيث كان سالم بن عبدالله المحمود وبعض الطلبة من إمارات الساحل يسكنون في ذلك البيت ويتلقون تعليمهم في الكويت، وأسكنونا في غرفة كبيرة بها خمسة أسرّة.

في اليوم الثالث عشر من مارس من سنة ١٩٥٦م اصطحبنا سالم بن عبدالله المحمود في جولة حول معالم الكويت فزرنا سور الكويت وبواباته ومعالم أخرى في المدينة.

في صباح اليوم التالي لبسنا ملابسنا الكشفية وحزمنا أمتعتنا وركبنا سيارة نقلتنا إلى منطقة تدعى «الفنيطيس».

وعندما وصلنا إلى هناك إذا بتلك البوابة الكبيرة قد كتب على أعلاها: «المخيم الكشفي العاشر – الجامبوري الأول»، وعلى جانبيها كتبت أسماء الفرق المشاركة في ذلك المخيم، وكان عددها ست عشرة فرقة، وهي كالتالي:

كشافة الثانوية	كشافة المباركية
كشافة الشارقة	كشافة الصديق
كشافة الفنطاس	كشافة المرقاب
كشافة فيلكا	كشافة صلاح الدين
كشافة الشرقية	كشافة العمرية
كشافة الشامية	كشافة المثنى
كشافة الفحيحيل	كشافة الصباح
كشافة الجهراء	الكشاف الوطني

وعُلقت الزينات والأعلام لافتتاح المخيم في يوم ١٥ مارس سنة ١٩٥٦م.

عند وصولنا إلى المخيم الكشفي أرشدونا إلى مكان معسكرنا في المخيم، وإذ بنا نفاجأ بالأستاذ أحمد قاسم البوريني الذي كان مدرساً بالمدرسة القاسمية في الشارقة وقائداً لفرقة الأشبال بها في استقبالنا بصفته قائد كشافة مدرسة الفحيحيل والتي اشتركنا معها في مخيم واحد.

تسلّمنا من إدارة المخيم خيمتنا والأدوات اللازمة لنصبها وفرشاً ومراتب للنوم وبطانيات وشراشف؛ فقمنا مباشرة بنصب خيمتنا، ورفعنا علم الشارقة عليها.

في مساء ذلك اليوم اشتركنا في الاستعراض التمهيدي للافتتاح الذي كان موعده في اليوم التالي. كما أعيد الاستعراض التمهيدي مرة ثانية صباح يوم الخامس عشر من مارس سنة ١٩٥٦م.

في عصر ذلك اليوم، حضر الشيخ عبدالله الجابر الصباح رئيس المعارف في الكويت، فاستقبله مدير المعارف الأستاذ عبدالعزيز حسين والقائد العام للمخيم الأستاذ عيسى أحمد الحمد والأستاذ حسن العلي مساعد القائد العام.

أُجلس الشيخ عبدالله الجابر الصباح على كرسي في ظل خيمة كبيرة. وبعدها بدأ طابور العرض لكل الفرق المشاركة في المخيم بالمرور أمام الشيخ عبدالله الجابر الصباح.

بعد انتهاء العرض، رُسِمَت على الأرض، وأمام الشيخ عبدالله الجابر الصباح، نصف دائرة، وجلس جميع من كان في المخيم من الكشافة على خط نصف الدائرة.

وبدأ الحفل بكلمة من الأستاذ عبدالعزيز حسين مدير المعارف، وكلمة قائد المخيم الأستاذ عيسى أحمد الحمد.

بعد ذلك مباشرة أذاع مذيع الحفل ما يلي:

كلمة كشافة الشارقة يلقيها سلطان بن محمد القاسمي.

فقمتُ، وألقيت كلمة مرتجلة شكرت فيها صاحب السمو الشيخ عبدالله السالم الصباح، حاكم الكويت، والشيخ عبدالله الجابر الصباح، رئيس المعارف في الكويت، والأستاذ عبدالعزيز حسين، مدير المعارف في الكويت، على ما قدموه لنا من مدرسين وكتب وأدوات مدرسية.

وقلت في ختام الكلمة: يقول المثل:

«من علمني حرفاً كنت له عبداً.. فما بالكم بمن علمني حروفاً على مدى سنوات؟!».

فناداني الشيخ عبدالله الجابر الصباح، وأجلسني بالقرب منه، وسأل عن الشيخ صقر بن سلطان القاسمي حاكم الشارقة.

بعد انتهاء الكلمات، بدأت كل فرقة تستعرض ما لديها من مهارات، حتى إذا جاء دور كشافة الشارقة تقدم بيات بن محمد الحريز من كشافة الشارقة، وعرض عرضاً مثيراً، إذ وضع رجليه على رقبته، وأخذ يمشي على يديه، مما دفع بالشيخ عبدالله الجابر إلى القيام من مكانه والذهاب إلى بيات الحريز الذي يقوم بالاستعراض.

بعد انتهاء الاستعراض قام الشيخ عبدالله الجابر الصباح بجولة في المخيم، وزار مخيمنا مع قادة المخيم الكشفي.

بعد انتهاء مراسم الافتتاح التُقطت لنا الصور التذكارية أمام خيمة كشافة الشارقة، لأعضاء فرقة الشارقة وفرقة مدرسة الفحيحيل وكشافين من طلبة الإمارات في الكويت.

كان للمخيم مركز للتموين، يتم من خلاله توزيع الأطعمة الطازجة وغير الطازجة، وينقلها الكشافون في صناديق إلى مقارهم، كما يقوم الكشافون بالطبخ بأنفسهم.

بالليل كان يحلو السمر، بإلقاء الشعر والأغاني والرقصات الشعبية.
في ليلة من تلك الليالي هبت عاصفة على الكويت، مصحوبة بأمطار غزيرة، وكنت من ضمن فرقة الطوارئ، حتى إذا ما سمعت صوت الصافرة أسرعت إلى مكان التجمع مع مَنْ اشترك في فرقة الطوارئ. تسلّمنا أدوات للحفر وأخرى للقطع، وحبالاً، وأسرعنا إلى مكان الخيام التي سقطت على الأرض، وذلك نتيجة عدم تثبيت أعمدة الخيام والأوتاد، وذلك راجع لإهمال الكشافين لعدم القيام بالأعمال

الصحيحة، وكذلك لصلابة أرض الفنيطيس. فكنت أضرب الأرض بالعتلة ثلاث مرات فلا يخرج من الحفرة إلا القليل من الرمل المتحجر. ولشدة ظلام تلك الليلة فقد هويت بالعتلة على الحفرة، وكانت يد سالم بن عبدالله المحمود من كشافة مدارس الكويت داخل الحفرة، وقد سَلّم الله يده، فقد كانت أصابع يده ملمومة. وقد نصبنا الكثير من الخيام في تلك الليلة.

كانت هناك رحلات إلى مناطق مميزة في الكويت، وكان من أهمها رحلة إلى «الروضتين»، وهي أرض منبسطة يكسوها عشب كثير.

بعد انتهاء المخيم الكشفي في الفنيطيس، رجعنا إلى مدينة الكويت وأقمنا في «بيت شرق» مدة يومين، انتظاراً لموعد قدوم الطائرة التي ستقلنا إلى الشارقة. وفي اليوم المحدد للسفر، سافرنا من الكويت على طيران الخليج إلى مطار البحرين ومن ثم إلى مطار الشارقة.

المدرسة الإنجليزية الخاصة

كنت في بداية العام الدراسي ١٩٥٤- ١٩٥٥م، عندما قيل لي بأن هناك رجلاً هندياً قد فتح مدرسة خاصة في "غرفة" عبدالرحمن المدفع - و«الغرفة» هي التي تكون في الدور الثاني من المبنى، على شاطئ خور الشارقة - فذهبت إلى هناك مساء ذات يوم، فقال لي، حينما قابلته، إن اسمه: «دي. اس. دسلفا» «D.S.D'silva»، وإنه يعمل في الصباح في محطة مكافحة الجراد بالشارقة، بكتابة التقارير المطلوبة، أما في المساء فإنه يقوم بتدريس اللغة الإنجليزية للمنتسبين لتلك المدرسة.

بعد انضمامي لتلك المدرسة زاد عدد الدارسين فيها، مما اضطر «دسلفا» إلى أن يطلب منا البحث عن مكان آخر به عدد من الحجرات، فوجدنا مجلس عيسى بن عبيد النابودة، فاستأجره «دسلفا» ليكون «المدرسة الخاصة». في تلك المدرسة كنا نتعلم كتابة الرسائل للشركات التجارية، وكتابة التقارير عن موضوعات كان هو يقترحها. كما قام «دسلفا» بشراء عدد من آلات طابعة، فتعلمنا الكتابة عليها.

في الصباح كنا نذهب إلى المدرسة القاسمية، وبعد الظهر نذهب إلى المدرسة الخاصة. عند سماعنا أذان العصر كنا نذهب للصلاة في المسجد الجامع القريب من المدرسة الخاصة، فسألنا «دسلفا» يوماً عن سبب خروجنا يومياً من المدرسة عند ساعة محددة. فقلنا بأننا نذهب للمسجد لأداء الصلاة.

قال: «خذوني معكم».

قلت له: «أنت مسيحي، ولست بمسلم!».

فسكت، ولم يعلق.

حتى إذا ما وجدني جالساً بعيداً عن الدارسين، اقترب مني وطلب مني أن أشرح له الإسلام.

وما هي إلا أيام قليلة حتى وجدته يطلب الدخول في الإسلام.

قلت: «لدخول الإسلام لابد من عملية الختان».

قال: «موافق».

قلت: «في هذه الليلة».

قال: «في أي وقت؟».

قلت: «بعد خروج جميع الدارسين، وخروج الطباخ حسين

كيدي».

قال: «أما الطباخ حسين كيدي فسأعطيه إجازة من بعد غروب الشمس».

خرجت من المدرسة الخاصة، واتجهت إلى السوق حيث دكان الحلاق والمطهِّر علي دوقلاه، فطلبت منه أن ينتظرني، ولا يقفل الدكان حتى أحضر عنده لأخذه إلى بيت به عملية ختان.

بعد صلاة المغرب مررت بجارٍ لي يدعى خليفة بن محمد الحضري، وهو في نفس عمري من السنين، فأخبرته عمّا رتبت وطلبت منه أن يأتي معي ليساعدني في تلك العملية.

اصطحبنا الحلاق دوقلاه إلى المدرسة الخاصة، دفعنا باب الحوش فانفتح، ودخلنا غرفة نوم «دسلفا»، وإذا به واقف.

قال الحلاق دوقلاه: «أين الولد؟».

قلت: «ليس بولد..وإنما هذا الرجل».

قال الحلاق دوقلاه: «يالله!! هذا؟!.. لا يمكن!».

كان «دسلفا» رجلاً طويلاً، أما الحلاق دوقلاه فكان قصيراً، وكبيراً في السن.

قلت للحلاق دوقلاه: «لا تخف..نحن سنربطه لك».

قال الحلاق دوقلاه: «هذا لو رفسني لكسّر عظامي».

قلت «لدسلفا»: «انزع ملابسك السفلية، واجلس على الأرض».

جلس «دسلفا» على الأرض، فربطت غترتي (كوفيتي) في رجله اليمنى، وشددتها بربطها مع يده اليسرى، وهي خلف ظهره.. وكذلك فعل خليفة، بربط غترته في رجل «دسلفا» اليسرى وشدها بربطها بيد

دسلفا اليمنى وهي خلف ظهره، وشددنا طرفي الغترتين واضعين ركباتنا على ظهر «دسلفا».

قلت للحلاق دوقلاه: «توكل على الله».

أجرى الحلاق دوقلاه عملية الختان، وضمد مكان القطع، وسحبنا «دسلفا» إلى مرتبة على الأرض لكي يرقد عليها، فكان كالحمل الوديع.

لفَّ الحلاق دوقلاه قطعة القماش التي وضعها لعملية الختان بما فيها من أشياء وضم أدواته، وخرجنا معه بعد أن صككنا على «دسلفا» الأبواب.

في الصباح الباكر من اليوم التالي مررت بخليفة الحضري واصطحبته معي إلى المدرسة الخاصة، حتى إذا ما اقتربنا من غرفة نوم «دسلفا» وإذا بأنين ينبعث منها. دخلنا عليه، فوجدناه متعباً حيث لم ينم ليلتها؛ فأحضرنا له الفطور، فطلب منا أن نذهب لمحطة مكافحة الجراد ونخبرهم بأن «دسلفا» مريض ويطلب إجازة لمدة أسبوع واحد.

أخذنا نعالج «دسلفا» بالطرق البدائية مثل ما مر علينا في عملية الختان ونحن صغار السن.

أحضرت كمية من بعر الماعز، قد مر عليه حول كامل، وحفرت حفرة في حوش المدرسة، وأشعلت النار في البعر الذي وضعته في الحفرة، وقلت لـ«دسلفا»:

«ضع مكان الختان في الحفرة».

قال: «ماذا؟..هل جننت؟.. الحفرة بها نار مشتعلة!».

قلت: «حتى يبرأ سريعاً».

قال: «سأحترق!».

قلت: «من بعيد، وفوق الدخان فقط».

فبرئ جرحه بعد ذلك.

أسـلم «دسلـفا»، وأخذ يتعلم الصلاة وقراءة القرآن، وقال لي ذات يوم:

«أريد أن أصلي في المسجد».

- ألبسته لباساً عربياً، وأخذته إلى المسجد في يوم جمعة، وجلسنا في الصف الثالث بعد أن صلينا ركعتين كنت فيهما رافعاً صوتي ليقلدني.

خطب الخطيب، وأقيمت الصلاة، حتى إذا ركعنا، لم يسمع مني شيئاً، فقال لي باللغة الإنجليزية:

«ارفع صوتك».

فلم أرد عليه.

فإذا اعتدلنا وقوفاً، قال لي، وباللغة الإنجليزية:

«ارفع صوتك».

فلم أرد عليه كذلك.

وفي السجود الأول، كرر عليّ الطلب:

«ارفع صوتك».

فلما اعتدلت جالساً، وإذا به يجلس أمامي، ويمسكني من كتفيّ بشدة، وهو يصيح عليَّ:

«لم نتفق على هذا الأسلوب!».

لم أتمالك نفسي من الضحك، وفي السجدة الثانية رأيتني

أقفز من فوق صفوف الساجدين هارباً ومن خلفي «دسلفا» ينادي باللغة الإنجليزية وهو بين صفوف المصلين في المسجد:

«انتظر.. انتظر.. انتظر».

كانت تلك أول وآخر صلاة يصليها «دسلفا»، وأي صلاة!

بعد نهاية العام الدراسي، تمت الترتيبات لشراء آلات طابعة لتطوير مدرسة «دسلفا»، الذي استقال من منصبه ليتفرغ لمدرسته، والتي كان مقرّها بالقرب من بيت محمد بن حمد الشامسي الذي رجع من البحرين حيث كان يدرس هناك لينضم للمدرسة القاسمية بالشارقة في العام الدراسي ١٩٥٥ – ١٩٥٦م.

جُمع مبلغ من المال من الدارسين لشراء آلات طابعة، وكان محمد الشامسي هو الذي يقوم بجمع تلك الأموال. فذهب مع «دسلفا» في أحد الأيام إلى دبي لشراء آلات طابعة.. وفي سوق دبي اختفى كل من «دسلفا» ومحمد الشامسي عن بعضهما بعضاً في الزحام، ولم يستدل أحدهما على الآخر.

بعد صلاة المغرب، ذهبت إلى مدرسة «دسلفا»، وكنت لا أزال أتدرب على آلة الطابعة، وكان مَنْ أنهى دوره على آلة الطابعة يريد أن يخرج لآخذ أنا مكانه، فقلت له:

«إن «دسلفا» سكران، فلا تتركني وحدي».

قال: «كيف عرفت؟».

قلت: «ذهبت لأشرب ماء، فوجدته مع شخص آخر يشربان الخمر في غرفته».

كانت الدراسة ليلاً، وبكراسي وطاولات موضوعة في حوش

المدرسة.. وإذا بمحمد الشامسي قد وصل؛ و ما إن شاهده «دسلفا» حتى أخذ يوبخه، ومحمد الشامسي يرد عليه.. فتعالت أصواتهما، واستمرت مدة طويلة، فأزعجت الجيران ومنهم عمير بن عبدالله الفلاسي، والذي أخبر الشيخ صقر بن سلطان القاسمي حاكم الشارقة عن الموضوع.

وما هي إلا دقائق، وإذا بالطرق على باب مدرسة «دسلفا»، فذهبت لأفتح الباب وإذا باثنين من عساكر الشيخ صقر حاكم الشارقة ولديهما أوامر بترحيل «دسلفا» من البلد.

تعهدت لهما بأنني سأرحله عن البلد في صباح اليوم التالي .في صباح اليوم التالي، استأجرت سيارة ووضع «دسلفا» فيها أثاثه ورحل إلى دبي.

بعد عدة أسابيع، جاءنا من دبي الخبر التالي:

«سقط رجل من الدور الثالث، من بناية فمات، فتبين أن اسمه «دي. اس. دسلفا».

الفصل الخامس

الحج

قرر والدي أن يذهب لزيارة ابنته شقيقتي شيخة بنت محمد القاسمي في الدمّام بالسعودية، والتي لحقت بزوجها خالد بن سلطان القاسمي في ١٥ نوفمبر سنة ١٩٥٤م، والذي هجر الشارقة بسبب خلاف نشب بينه وبين أخيه الشيخ صقر بن سلطان القاسمي. اصطحب والدي معه والدتي وجدتي وشقيقي الأكبر خالد وشقيقتي الصغرى ناعمة وشقيقي الأصغر عبدالله وأنا معهم ومولى لجدتي يقال له مبارك.

كما قرر والدي أن يرسلنا إلى الحج بعد زيارة شقيقتنا في الدمّام.

البحرين

في أواخر شهر يونيو سنة ١٩٥٥م ركبنا سفينة الخطوط الملاحية البريطانية الهندية ظهراً من الشارقة متجهين إلى البحرين. كانت تلك السفينة من الكبر وكأنها قرية، فيها رائحة الفواكه الهندية الطازجة،

حيث وصلت إلى الشارقة قادمة من الهند، كما تفوح رائحة الأبخرة المنبعثة من المطبخ لتفتح شهية المسافرين. والمسافرون على تلك الخطوط نوعان: إما السكن في الغرف المكيفة وإيجارها مرتفع أو النوم على ظهر السفينة وهو رخيص جداً.

لقد نمنا تلك الليلة في الغرف المكيفة حيث كان الجو خارجها حاراً جداً لنصل إلى البحرين في اليوم التالي.

في البحرين نزلنا ضيوفاً على الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة حاكم البحرين، فأنزلونا في فندق «محمد نور» المطل على سوق الخضار والفواكه، حيث صحونا في الصباح على أصوات البائعين. استأذنت والدي لأذهب إلى السوق فأمرني بألاّ أتأخر حيث ستأتي السيارة التي ستقلنا إلى مجلس الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة.

منذ أن خرجت من الفندق وأنا أسال عن مكتبة «المؤيد»حتى دلوني عليها، فدخلتها فوجدتها مليئة بالكتب التي رُصّت على الأرفف من الأرض حتى سقف المكتبة. انشغل نظري بالكتب عن الجالس على كرسي وأمامه طاولة، والذي نبهني قائلاً:

«ماذا تريد يا ولد؟».

التفت إليه وإذا به رجل كبير في السن حييته وسألت: «أأنت المؤيد؟».

قال: «نعم، وماذا تريد؟».

قلت: «أنا صديقك سلطان القاسمي، من الشارقة».

قال: «أنت سلطان؟! الذي يراسلني من الشارقة؟!».

قلت: «نعم».

قال: «كم عمرك؟».

قلت: «ست عشرة سنة».

قال: «وماذا تفعل بالكتب التي تشتريها والأخرى التي أهديها إليك؟».

قلت: «أقرؤها».

ورويت للمؤيد حكايتي مع الكتب:

عندما توفي عمي الشيخ سلطان بن صقر القاسمي في لندن، مرَّ أسبوع حتى وصول جثمانه إلى الشارقة، كنا نجلس في تلك الفترة مع ابن الفقيد سالم بن سلطان القاسمي في الغرفة الملحقة بمكتبة والده في البيت الغربي.

كان سالم يكبرني سناً، وكذلك أخوه عبدالله وأخي عبدالعزيز وأبناء الأعمام، فكانوا يتسلون بلعب الورق، أما أنا فكنت أقرأ في الكتب الموجودة في المكتبة، وأطلع على عناوينها. فحفظت أسماء أمهات الكتب التي كان عمي الشيخ سلطان قد قرأها، منها «الشوقيات» للشاعر أحمد شوقي، و«جواهر الأدب»، وكتاب «الحيوان» للجاحظ، وإذا في بداية الكتاب كتب عمي بخط يده العبارة التالية: «هذا الكتاب لا يُقرأ»، فلم أقرأ أي شيء فيه. ووجدت اسم «مكتبة المؤيد» على بعض المراسلات.

هنا سأل المؤيد:

«ما قرابة المرحوم الشيخ سلطان بن صقر بك؟».

قلت: «عمي».

فهز رأسه وكأنه يقول: «لا غرابة!».

ثم واصلت كلامي قائلاً:

«كنت أجمع المصروف الذي كان يُعطى لي من قطع نقدية معدنية وأحولها إلى أوراق نقدية، وأضعها في الرسالة وأرسلها لك لشراء الكتب، والتي كنت أحفظ عناوينها مثل «الشوقيات» و«جواهر الأدب» و«كتاب الحيوان» والذي تأكدت بعد قراءته أنه لا يصلح لصغير سن أن يقرأه.

كنت قد اشتريت من مكتبتك كتاب عنترة بن شداد وأبو زيد الهلالي، وجواهر الأدب، وكتاب ألف ليلة وليلة، وغيرها.

كنت أقوم بقراءة بعض الروايات لزملائي وقت المذاكرة أو في بعض بيوت جيراننا».

قال المؤيد:

«المكتبة تحت أمرك.. خذ ما شئت من الكتب، واعتبرها هدية مني لك».

شكرته وقلت: «أنا في عجالة الآن لأني سأذهب إلى مجلس الشيخ سلمان مع والدي، وأعود إليك مرة ثانية».

دخلنا مجلس الشيخ سلمان، وإذا به قد غص بضيوف الشيخ سلمان حتى إذا ما وصل والدي قريباً من الشيخ سلمان قام باشّاً يستقبل والدي، وأُفسِح لوالدي وشقيقي خالد وأنا مكانٌ بالقرب من الشيخ سلمان.

كانت الحياة والحركة تدب في مجلس الشيخ سلمان، من قادم يحيي، أو خارج مودع، بأصوات مرتفعة يسمعها الجميع، ويرد الشيخ سلمان بالمثل. حتى إذا هدأ المجلس أخذ الشيخ سلمان يسأل ضيوفه

واحداً واحداً عن أحوالهم، من البعيد الذي بقرب الباب أو القريب من كرسيه.

في مساء ذلك اليوم زرت مكتبة المؤيد للمرة الثانية، فكان بها زحام شديد، فأجلسني المؤيد على كرسي، وطلب لي كوباً من الشاي ثم قدم لي مجموعة من الكتب. شكرته على هديته وطلبت منه أن يتركها معه، لأني سأعود إلى البحرين بعد أداء فريضة الحج.

في عصر اليوم التالي، أخذنا والدي إلى «الرفاع» وكان بعيداً عن «المنامة - العاصمة»، لتوديع الشيخ سلمان فاستقبلنا ابناه، عيسى وخليفة، وكانا يركبان حصانين عندما وصلنا إلى الرفاع فنزلا من حصانيهما وجلسا معنا على كرسي كبير من الخشب حتى حضر والدهما، والذي دخل مع والدي في حديث طويل لا نعلم فحواه، فالرجلان تربطهما صداقة منذ سنة ١٩٤٨م، عندما أُبعد والدي إلى البحرين من قِبل الإنجليز، حيث أصر الشيخ سلمان على أن ينزل الشيخ محمد بن صقر القاسمي ضيفاً عليه.

ودع الشيخ سلمان والدي بمثل ما استقبله به.

الدمّام

في عصر اليوم الرابع من زيارتنا للبحرين، ركبنا طائرة أقلتنا إلى مطار الظهران في المملكة العربية السعودية، حيث استقبلنا الشيخ خالد بن سلطان القاسمي زوج شقيقتي، والذي أخذنا إلى بيت الضيافة في الدمّام.

الطريق من الظهران إلى الدمّام مرصوفة، وإلى غربها رمال بيضاء

تحفها أشجار «الأثل» الكبيرة. فإذا ما دخلنا مدينة الدمّام قابلتنا تلك الرمال الذهبية الناعمة والتي يقال لها «العدامة»، حيث بيت الشيخ خالد بن سلطان وكذلك بيت الضيافة بالقرب منه.

في صباح اليوم التالي لزيارتنا للدمام، أخذنا والدي لزيارة الأمير سعود بن جلوي أمير المنطقة الشرقية. كان مجلس الأمير يغشاه الصموت والسكون، الحركات محسوبة والأصوات همساً، والأمير جاثم متكور على كرسيه تملأ لحيته معظم وجهه.

لم نطل الجلوس حيث خرجنا مع أخٍ للأمير يدعى الأمير سعد بن جلوي وكان مرحاً.

في الفترة التي قضيتها في الدمّام، قمت بزيارة أستاذي، الأستاذ أحمد بن محمد أبو رحيمة حيث كان يعمل في الدمّام.

بعد قضاء عدة أيام من زيارتنا للدمام، تمت الترتيبات من قبل الحكومة السعودية لمتابعة سيرنا لقضاء فريضة الحج على ضيافة الحكومة السعودية.

جدة

ركبنا جميعاً، ما عدا والدي الذي بقي في الدمّام، صباحاً من مطار الظهران على متن الخطوط الجوية السعودية متجهين إلى جدة، وكانت طائرات تلك الخطوط من الطائرات ذوات المحركين فقط.

قطعت الطائرة بسلام كل المسافة، حتى إذا ما كنا في منطقة الجبال في الربع الأخير من المسافة توقف أحد المحركين، وبقيت الطائرة تطير بمحرك واحد، وتتمايل يميناً وشمالاً، وتهوي إلى أسفل ثم تحلق، فأمرنا

المضيف أن نربط الأحزمة. بعدها خرج علينا ذلك المضيف ليقول لنا:

«ارتفعت حرارة المحرك الثاني ..تشهدوا..الطائرة ستسقط!».

لاحظنا أحد الطيارين يشد المضيف من قميصه من الخلف ليدخله إلى قمرة القيادة ويغلق بابها. كان الجميع يتشهدون، وآخرون يتقيأون على أرضية الطائرة.

توقف المحرك الثاني ..الطائرة تتجه إلى الأرض في طيرانها.. الجبال تقترب.. القيء كأنه وادٍ مرّ بنا ليتجمع عند الكراسي الأمامية. من نوافذ الطائرة نلاحظ تحتنا أرضاً منبسطة.. خبطت الطائرة الأرض ثم درجت.. ثم ارتفعت.. فخبطت ثانية ثم درجت.. ثم توقفت.

فتح المضيف باب غمرة القيادة وهو يقول:

«سلامات..سلامات!».

نزل من الطائرة أحد الطيارين والمضيف، وأنا معهما، وإذا نحن قد نزلنا في طريقٍ وسط الجبال، وإذا بهذه السيارة التي وصلت.. حمراء.. نصف نقل، تنقل براميل من المياه، فسأل الطيار سائقها:

«من أين أتيت؟».

قال سائق السيارة: «أتيت من «المويه»، أنقل مياهاً لمنجم «الظُلم».. منجم للذهب».

طلب المضيف من سائق السيارة أن يعطيه ماء؛ لأن المياه في الطائرة قد استهلكت.

المياه من براميل السيارة حارة.. ودرجة حرارة الجو مرتفعة لأننا في منتصف النهار، ولا يوجد أكل في الطائرة إلاّ بعض جبن مالح مع قليل من الخبز.

الطيار الثاني كان مشغولاً بالاتصال بطائرة ستقلع من مطار الرياض وستحط في هذا الطريق وعلينا أن نصلح ما قطعته الوديان من الطريق.

نزل الرجال، وخلع المضيف سجادة من المطاط كانت على أرضية الطائرة، وأخذنا نضع عليها الحجارة ثم نسحبها إلى المكان الذي يريد قائد الطائرة إصلاحه.

أخذ منا العمل عدة ساعات حتى استوى الطريق.

طلب منا أحد الطيارين أن نعطيه كل الغتر البيضاء والتي على رؤوسنا، فجمعناها، فأخذ يلف كل غترة حول صخرة صغيرة ويضعها على استقامة الطريق من الجهتين؛ فإذا به قد كوّن علامات المطار الجديد!

نزلت الطائرة القادمة من الرياض بسلام وفتح بابها، وإذا بالمضيف التابع لها يقول:

«لدينا سبعة كراسي فرّغناها لضيوف الحكومة لأن لديهم أطفالاً».

أُنزلت جدتي ووالدتي وشقيقتي ناعمة وشقيقي عبدالله، وكان شقيقي الشيخ خالد وأنا نساعدهم على النزول، حتى إذا ما ركبنا جميعاً لم نجد كرسياً للتابع مبارك.

قال المضيف:

«أنا حسبتها.. سبعة كراسي.. لابد أن أحداً من الطائرة الأخرى قد ركب الطائرة! سآتي بقائمة الركاب».

وبحركة من يدي عرف المضيف أن الذي يجلس إلى يميني.. هو الذي ركب الطائرة، فطلب المضيف من الراكب أن ينزل.

كان رد الراكب بعد أن ربط حزام الأمان ومسك قفله بكلتا يديه:

«والله.. لو قطعتموني لن أفك هذا الحزام».

قال شقيقي خالد: «نترك مبارك مع الرجال الذين في الطائرة المعطلة».

درجت الطائرة على المدرج الذي قمنا ببنائه، والذي تركنا عليه غترنا، ثم حلقت الطائرة تاركة خلفها مطاراً، سمي فيما بعد بمطار الظلم!

كان الراكب الذي يجلس عن يميني، هو نفسه الذي كان يجلس عن يميني في الطائرة المعطّلة، كان حينها ينظر إلى مروحة الطائرة المتوقفة فيغطي وجهه بكلتا يديه ويبكي. أما في الطائرة التي تقلنا فكان ينظر إلى مروحة الطائرة فلا يجدها من سرعة دورانها فيبتسم.

نزلنا في مطار جدة، ومنه إلى فندق بساتين جدة.

كان الفندق مكوناً من عدة فيلات ومجموعة من الغرف بين بساتين من أشجار الزينة والزهور، ويقع على أطراف مدينة جدة بالقرب من موقع توزيع المياه العذبة المسمى: «الكنداسة».

جدة مدينة جميلة تقع على ساحل البحر، سوقها مسقوف، ومبانيها المتعددة الأدوار بها مشربيات، والأمير بها يقال له: قائم مقام جدة.. زرناه في مكتبه الكائن على شاطئ البحر.

المدينة المنوّرة

كانت الحكومة السعودية قد استأجرت لنا سيارتين من شركة باخشب باشا لنقل الحجاج.

كانت السيارة الرئيسية يسوقها سائق يدعى عبدالرحمن، سمين

وثقيل الوزن، كانت السيارة دائماً تميل ناحيته. أما السيارة الأخرى، فكان بها التابع مبارك وحقائبنا.

خرجنا من جدة بعد أن بقينا فيها ثلاثة أيام متوجهين ظهراً إلى المدينة المنوّرة على الطريق الساحلي.

عند غروب الشمس توقفنا عند قرية على ساحل البحر الأحمر يقال لها رابغ، بها مطعم على الطريق العام يقدم السمك المقلي مع الخبز الطازج. ثم واصلنا السير بعد صلاة المغرب والعشاء لنصل إلى المدينة المنورة بعد منتصف الليل، حيث نزلنا في فندق التيسير، المتعدد الطوابق، ذي السقوف العالية والدرجات المرتفعة لسلالمه، في منطقة السوق بالقرب من الحرم النبوي الشريف.

في اليوم التالي زرنا المسجد النبوي، وصلينا ركعتين ثم زرنا قبر رسول الله محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلّم، فسلّمنا عليه، وأخذ شقيقي خالد يدعو فبكى وأبكانا معه.كما سلّمنا على خليفة رسول الله أبي بكر، ومن بعده خليفته عمر بن الخطاب.

في عصر ذلك اليوم، ذهبنا لزيارة البقيع حيث قبور الصحابة والتابعين، فسلّمنا عليهم جميعاً.

قبل أن يحل الظلام على المدينة شاهدت رجلاً يحمل عدداً من الفوانيس المضاءة والمعلقة على قضيب، يحملها على كتفه، وبيده الأخرى قضيب في آخره خطاف، وفي أماكن معينة كان الرجل يقف ويرفع واحداً تلو الآخر من الفوانيس المضاءة بالقضيب الذي في يده بواسطة الخطاف إلى أعلى، ويعلقه على وتدٍ حديدي مثبت في الجزء العلوي من جدران طرقات المدينة، ويستمر هكذا.. وما هي إلاّ برهة

وإذا الأسواق والطرقات مضاءة حتى المسجد النبوي.

في صباح اليوم الثاني لزيارتنا للمدينة المنوّرة زرنا جبل أُحد وسلّمنا على شهداء أحد. أما في مساء ذلك اليوم، فقد تجولنا في أسواق المدينة.

مكة المكرّمة

في صباح اليوم الثالث ودعنا المدينة متوجهين إلى مكة، متخذين الطريق الذي يمر بأبي حليفة، ميقات أهل المدينة، ولم يكن قد تم رصفه، فكان طريقاً حصوياً تسير عليه السيارة بيسر، حتى إذا ما وصلنا إلى ذي الحليفة ميقات أهل المدينة أحرمنا بالعمرة، وهو أن نطوف ونسعى ونتحلل. فإذا ما قرب موعد الوقوف بعرفة، أحرمنا بالحج، فنطوف ونسعى ومن ثمَّ نخرج إلى عرفة.

دخلنا مكة ليلاً مكبرين ومهللين، فطفنا وسعينا، وحلق مَنْ حلق، وقصر مَن قصر. ثم أخذتنا السيارات إلى جرول - حي من أحياء مدينة مكة. هناك نزلنا في فندق التيسير، والمكوّن من عدة طوابق، ضيوفاً على الحكومة السعودية؛ فتحللنا من إحراماتنا.

في اليوم التالي تعرفت على المسؤول عن التغذية في الفندق، وكان مصرياً، يدعى محمود، يدّعي أنه كان طباخاً للملك فاروق، والذي عرّفني بدوره على اللواء بالداخلية ويدعى عبدالرحمن وكان نزيلاً بالفندق لفترة الحج، وقد حضر للإشراف على الترتيبات الأمنية للحجاج، وكان وقتها يهم بالخروج لمتابعة دوامه في محكمة الحميدية، سألته أن يأخذني معه إلى مكتبة بوشناق والملاصقة لمحكمة الحميدية

في المسعى قبل الصفا، حيث شاهدتها الليلة الماضية ونحن نسعى، على أن يوصي عليّ صاحب المكتبة لأنني سأبقى أقلّب الكتب، وليس في ذهني من كتاب معين.

استأذنت شقيقي خالد بالذهاب إلى مكة، بعد أن عرّفته على اللواء عبدالرحمن.

قدمني اللواء عبدالرحمن لصاحب المكتبة بوشناق خير تقديم، وظهر لي أن بينهما معرفة سابقة حيث وضع لي السيد بوشناق كرسياً لأجلس عليه، وانشغل هو بأمور مكتبته.

تقع مكتبة بوشناق في الجزء الأول من المسعى، ناحية جبل الصفا، حيث يفصل الجزء الأول من المسعى عن الأجزاء الأخرى الطريق العام الوحيد في مكة، وكان حصوياً، حيث كان مجرى الوادي. يعرف ذاك الفاصل بمنطقة الهرولة، فكان كثير من الحجاج يظن أن تلك الهرولة للمرور من أمام السيارات. كان الثلثان الآخران من المسعى عبارة عن سوق مسقوف، على جوانبه الحوانيت حتى جبل المروة، ويفصل بين الذاهبين والقادمين في المسعى سور حديدي.

كان أصحاب المحلات التجارية يدخنون الشيشة فيتصاعد الدخان ليدخل صحن الحرم من الأبواب المفتوحة ناحية المسعى.

صحن الحرم به أربعة مقامات لأربعة أئمة، الحنبلي والحنفي والمالكي والشافعي الذي كان مقامه فوق مبنى بئر زمزم، أما المقامات الأخرى فكانت عبارة عن مظلة في صحن الحرم؛ وكان لكل مقام إمام يجتمع إليه الناس يسألونه عن أمور دينهم تبعاً لمذهبهم.

أما باب إبراهيم فكان يطل على مجموعة من الحجرات، مؤجرة

الشيخ سلطان بن صقر القاسمي حاكم الشارقة.

حصن الشارقة.

أمام حصن الشارقة: الشيخ سلطان بن صقر القاسمي حاكم الشارقة، وإلى يمينه الشيخ سيف ابن محمد بن مجلاد، وإلى يساره ضيف إنجليزي، وإلى يسار الضيف الوزير السيد ابراهيم بن محمد المدفع.

شجرة الرولة يوم العيد.

طلبة وطالبات مدرسة التيمية بالشارقة سنة ١٩٤٢م.

طلبة مدرسة الإصلاح القاسمية تحت مظلات سعف النخيل .

الشيخ محمد بن صقر القاسمي نائب حاكم الشارقة وإلى يمينه الشيخ صقر بن سلطان القاسمي وامامه ابنه خالد بن صقر بن سلطان القاسمي والذي استبدل إسمه بسلطان بعد وفاة جده — وفي آخر الصف الرسام الهندي .

الشيخ محمد بن صقر القاسمي نائب حاكم الشارقة.

الشيخ سلطان بن صقر القاسمي حاكم الشارقة، في فترة علاجه بالهند.

علم الشارقة منكّس على حصن الشارقة.

الشيخ محمد بن صقر القاسمي حاكم الشارقة.

الشيخ خالد بن سلطان القاسمي والشيخ محمد بن سلطان القاسمي في لندن، مع والدهما الذي يتعالج هناك.

الطائرة المقلة لجثمان المرحوم الشيخ سلطان بن صقر القاسمي.

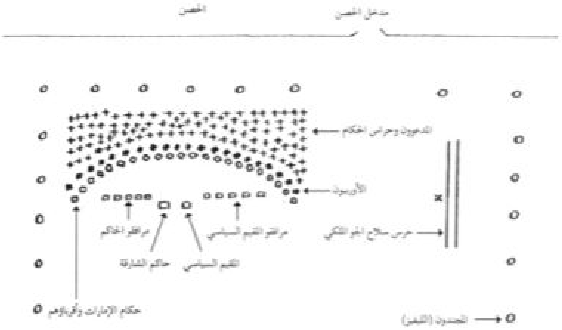

رسم يوضح جلوس المدعوين في خيمة احتفال التنصيب.

طلبة المدرسة القاسمية.

الشيخ راشد بن سعيد المكتوم نائب حاكم دبي في احتفال التنصيب.

الشيخ صقر بن سلطان القاسمي حاكم الشارقة يلقي خطابه في حفل تنصيبه.

طلاب الصف الرابع في المدرسة القاسمية بالشارقة للعام الدراسي ١٩٥١ – ١٩٥٢م، أخذت الصورة بعد أن انتقلتُ إلى الصف الخامس.

طالبات من فصل البنات في المدرسة القاسمية بالشارقة للعام الدراسي ١٩٥١ – ١٩٥٢م.

فريق لكرة القدم للمدرسة القاسمية للعام الدراسي ١٩٥٣ – ١٩٥٤م. سلطان بن محمد القاسمي في الصف الثالث (الثاني يمين الصورة).

فريق الأشبال بالمدرسة القاسمية بالشارقة.

المدرّسة شريفة وطالبات الصف أولى روضة في المدرسة القاسمية للبنات للعام الدراسي ١٩٥٤ – ١٩٥٥م.

المدرّسة شريفة وطالبات الصف الثاني روضة في المدرسة القاسمية بالشارقة العام الدراسي ١٩٥٤ – ١٩٥٥م.

الحفل الذي أقيم في المدرسة القاسمية (بيت ابن كامل) احتفاءً بالوفد الكويتي الذي زار المدرسة.

كشافة وأشبال المدرسة القاسمية للعام الدراسي ١٩٥٥م – ١٩٥٦م.

المبنى الجديد للمدرسة القاسمية بالشارقة. أول يوم رياضي في المدرسة الجديدة.

اول يوم رياضي في المدرسة الجديدة.

للحجاج، وكانت تنبعث من بينها روائح كريهة.

بقينا في مكة أكثر من عشرة أيام، فُتح خلالها باب الكعبة، وتوافد الحجاج من الرجال نحو باب الكعبة حيث كان هناك حبل يتدلى من سطح الكعبة والأيادي ممسكة به، تحاول أن ترتفع إلى مستوى باب الكعبة، ومن ثمّ تدخل الكعبة. تعلقت في ذاك الحبل حتى إذا ما ارتفعت فوق رؤوس المتعلقين بالحبل، وإذا بأحدهم يمسك بالغترة التي ألفها حول عنقي ويشّدها إلى أسفل ظنّاً منه أنها الحبل، فسقطت على الأرض بين أرجل المتعلقين بالحبل، وقدّر الله أني سلمت من دوس الأرجل. لففت غترتي على وسطي وبعُدت عن المجموعة المتعلقة بالحبل وجريت بأقصى سرعة، ثم قفزت أعلى من رؤوس المتعلقين بالحبل وأمسكت بالحبل، فإذا بشخص على باب الكعبة يمسك بيدي ويشد الحبل ناحيته، فدخلت إلى داخل الكعبة لأجدها مظلمة. وبعد برهة استطعت أن أتعرّف على مكونات الكعبة؛ ففي وسطها عمودان من الخشب، وفي الركن الذي به الملمس تتدلى منه مشكاة، وفي نهاية الركن الذي إلى اليمين من الباب توجد فتحة في سقف الكعبة يدخل منها النور، وهي التي منها يخرج القائمون على الكعبة إلى سطح الكعبة. صليت ركعتين في كل جهة من الجهات الأربع.

في اليوم الثامن من ذي الحجة لسنة ١٣٧٤هـ، وهو يوم التروية وكان يوم خميس، الموافق ٢٨ يوليو سنة ١٩٥٥م، أحرمنا ونوينا الحج.. فطفنا وسعينا، وانتقلنا بعدها إلى منى، فبتنا بها. وفي اليوم التالي، كان يوم عرفة يوم جمعة، فوقفنا بعرفة ونحن ندعو، حتى إذا

غربت الشمس انصرف الجميع إلى مزدلفة، وصلّوا المغرب والعشاء جمعاً، وأخذوا بجمع الحصى لرمي الجمرات بها، ونمنا حتى الفجر. بعدها توجهنا إلى منى وهو يوم النحر، فرمينا جمرة العقبة.

توجهت مع شقيقي خالد والتابع مبارك إلى مكان النحر، فاختار ثوراً سميناً، وكان عن سبعة أفراد، حيث كنا سبعة. بعد ذلك حلق من وجب عليه الحلق منا، وقصرت النساء، وتحللنا، فلبسنا ملابسنا وتوجهنا إلى مكة لطواف الإفاضة، ومن ثم السعي.

جدتي لم تكن معنا لأداء طواف الإفاضة والسعي لأنها كانت مريضة، فوجب أن تطوف وتسعى في مساء ذلك اليوم. وُضعت جدتي جالسة في سرير رفعه شخصان على رأسيهما، وطافا بها حول الكعبة. أما وقت السعي، فقد أجلستها على كرسي متحرك، فقلت لصاحب الكرسي: «أنا سأسعى بها». فوافق صاحب الكرسي. وبدأت بالسعي مع جدتي حتى إذا ما وصلت للشوطين الأخيرين وإذا بمجموعة من الصبية رأتني دخيلاً على مهنتهم، وكنت ألبس ملابس بالزيّ الحجازي، نزل الصبية بي ضرباً حتى فلت الكرسي المتحرك من يدي وأخذ يتحرك بسرعة، حيث كانت أرض المروة منحدرة، وجدتي تنادي: «سلطان.. سلطان!».

كنت مستنداً إلى السور الفاصل في المسعى والصبية ينهالون عليّ ضرباً، وإذا بمجموعة من الحجاج الأفارقة متماسكة مع بعضها بعضاً أزاحت الصبية عني، لكنها داستني بأقدامها وأنا أصرخ..حتى هبّ الناس من حولي يرفعونني من على الأرض وأنا لا أقوى على الحركة، فأخذت أنادي:

«جدتي.. جدتي!».

قضينا أيام التشريق، وهي ثلاثة أيام، في منى نرمي الجمرات. بعدها عدنا إلى مكة فطفنا طواف الوداع، ومن بعده إلى مطار جدة حيث نقلتنا الطائرات إلى مطار الظهران.

في الدمّام بقينا يومين لنستقل بعدها سيارتين لنقلنا إلى قطر عن طريق العجير.

وفي قطر زرنا الشيخ علي بن عبدالله آل ثاني. وبعد ذلك نقلتنا الطائرة إلى مطار الشارقة.

الفصل السادس

العدوان الثلاثي على مصر

في التاسع والعشرين من أكتوبر سنة ١٩٥٦م اعتدت بريطانيا وفرنسا وربيبتهما إسرائيل على مصر، وضربت محطة الإرسال التابعة لإذاعة صوت العرب في المقطم، وتوقف إرسال صوت العرب، ووصل إلينا صوت العرب بعدها من دمشق. الناس هائجة، وهي لا حول لها ولا قوة. اللعنات تنهال على المعتدين، والهتافات بالنصر لمصر من الحناجر، وأنا مشغول البال، كل ما يدور في ذهني هو: كيف أستطيع أن أجعل المعتدي يخسر ولو بمقدار إبرة؟

الاستطلاع

خرجت يوم الأول من نوفمبر سنة ١٩٥٦م، واتجهت إلى القاعدة البريطانية في الشارقة، وكانت سيارتي معروفة لدى المسؤولين في القاعدة حيث كنت أحد لاعبي فريق إدارة وزارة الأشغال العامة البريطانية في القاعدة البريطانية بالشارقة، وكنت دائماً أقوم

بالاتصال باللاعبين وإعلامهم بمواعيد المباريات وأقوم كذلك بنقلهم إلى الملاعب، فقد كنت مسؤولاً عن الفريق.

كانت وجهتي حظيرة الدبابات بالقرب من ورشة تصليح السيارات، والتي كان يعمل بها أحد اللاعبين ويدعى عبدالرحمن داموني، وكنت في مرات عديدة أنقله بعد انتهاء دوامه بسيارتي إلى بيته، حيث كانت تربطني به صداقة حيث كنا نلعب معاً كرة القدم في فريق الأشغال البريطانية.

عندما وصلت إلى باب الورشة، طلبت أن ينادوا على عبدالرحمن، حتى إذا حضر أخذته بعيداً عن بوابة الورشة إلى حيث أوقفت سيارتي، وأخرجت بعض الأوراق التي كتبت عليها أسماء اللاعبين باللغة الإنجليزية وموعد المباراة القادمة. كانت الرياح شديدة وآتية من ناحية الغرب، فتركت بعض الأوراق تتطاير من يدي ناحية حظيرة الدبابات القريبة من السياج الخارجي للقاعدة. أخذت أركض خلف الأوراق، فسبقني إليها الحارس الإنجليزي الواقف أمام باب حظيرة الدبابات، وأخذ يقرأ ما بها.

قال وهو يسلمها لي: «حظاً سعيداً».

عَلقت ورقة في السور الخارجي، وهو مكوّن من أسلاك شائكة، فقلت للإنجليزي:

«أنا لا أستطيع أن أصل إليها، فالأسلاك الشائكة مكهربة».

قال الإنجليزي: «ليست مكهربة».

قلت: «وحتى بالليل؟».

قال: «وحتى بالليل».

فذهبت بنفسي والتقطت الورقة، وإذا بالسياج مكوّن من ثلاث طبقات من الأسلاك الشائكة لا يستطيع الهرّ أن ينفذ من خلالها.

في الثاني من نوفمبر سنة ١٩٥٦م، وكان الوقت بعد الظهر، ذهبت إلى القاعدة البريطانية، ووجهتي كانت لترتيب إحدى المباريات مع فريق المحطة. عندما وصلت إلى بوابة القاعدة البريطانية، وكان إلى جانبها مباني خدمة الطائرات الحربية، كانت هناك سيارة كُتب على مؤخرتها بحروف كبيرة وباللغة الإنجليزية: اتبعني.

تحرك أمامي فتبعته على طول مدرج المطار إلى الناحية البرية حتى وصل إلى مخزن الذخيرة، فتوقف هناك. وأوقفت سيارتي خلفه وعيناي تفحصان مخزن الذخيرة. نزل من سيارته، وهو غاضبٌ ومتسائلٌ:

«لماذا تتبعني؟».

فأشرت بإصبعي إلى اللوحة، قائلاً: «أنت الذي أمرت أن أتبعك».

ضحك وقال: «ذلك لقائد الطائرة الحربية لأرشده إلى المكان الذي يوقف الطائرة به، ولكن إلى أين كنت ذاهباً؟».

قلت: «لأقابل المسؤول عن فريقكم، فريق المحطة، لترتيب مباراة معكم».

قال: «أنت سلطان؟!».

قلت: «نعم».

قال: «الآن اتبعني».

كان مخزن الذخيرة نصفه تحت الأرض والنصف الآخر أعلى من

مستوى الأرض بقدر متر ونصف، وعلى جدرانه فتحات زجاجية لإدخال النور إلى المخزن. ولم يكن هناك سور حول المخزن.

في تلك الليلة قطعت مسافة أربعة كيلومترات من بيتنا حتى أصل إلى موقع مخزن الذخيرة لأتأكد إن كانت هناك حراسة ليلية حول مخزن الذخيرة أم لا.

القمر قد غاب، والليل حالك، وملابسي داكنة، ونباتات الرمرام والحمض منتشرة على المسافة التي بيني وبين المبنى، قدرتها بمسافة ثلاثمائة متر، فزحفت على بطني حتى إذا ما وصلت قريباً من المبنى وإذا بي أشاهد حراسة مشددة وسيارة تقف هناك. رجعت وأنا أزحف، وإلى مسافة أبعد من ذي قبل.

في اليوم الثالث من نوفمبر سنة ١٩٥٦م، ليلتها ذهبت إلى القاعدة البريطانية، وكانت نيتي أن أستكشف مدى قوة الحراسة حول الطائرات الحربية، فاكتشفت من خلال مروري بالطريق العام وقت خروج ودخول العمال في الساعة الثامنة مساءً أن الحراسة مكونة من جنديين بريطانيين يحمل كل واحد منهما بندقية وفي مقدمتها حربة. كان الجنديان يتركان الحراسة ويذهبان إلى مخمرة في الفندق التابع للمطار لشراء علب البيرة ثم يعودان ليجلسا على البراميل المصفوفة والفاصلة بين الطريق العام والطائرات الحربية.

وجودي هناك ليس منكوراً، ففي الفندق يعمل بعض أعضاء فريق كرة القدم الذي أنتسب إليه. المكان مناسب، ويسهل منه تنفيذ أي عملية ضد تلك الطائرات.

في اليوم الرابع من نوفمبر سنة ١٩٥٦م، ذهبت بعد الظهر إلى

مبنى مرسلات اللاسلكي والهاتف[1]، والواقع بين القاعدة البريطانية ومدينة الشارقة، وهو مكان ذو أهمية كبيرة بالنسبة للاتصالات الدولية التابعة للقاعدة البريطانية، وكذلك لحركة المرور الجوي بالنسبة للطائرات العابرة في السماء. ذهبت إلى هناك بحجة أن أقابل أحد لاعبي فريق كرة القدم، وكان مهندساً هندياً اسمه «صدّيقي».

اكتشفت المكان، ففي الخارج لا توجد حراسة إلاّ على المدخل الرئيسي للمبنى، وخلف المبنى كانت هناك بوابة من خشب مغلقة بدون حراسة وبدون أسوار؛ فإذا ما دخلت إلى داخل المبنى طلبت من "صدّيقي" أن يأخذني في جولة داخل المبنى، فلاحظت أن البوابة الخلفية عليها من الداخل أسلاك ممدودة وأجهزة تعمل بالكهرباء قريبة من تلك البوابة. تأكدت بعد ذلك أن المكان مناسب.

في اليوم الخامس من نوفمبر سنة ١٩٥٦م، خرجت من بيتنا عصراً، واتجهت إلى الصحراء حيث منطقة «الفلج».. بها محطة لضخ المياه للقاعدة البريطانية، والتي كانت تنقل عن طريق أنابيب مدفونة تحت الأرض، ما عدا جزءاً مكشوفاً، كشفته الرياح، شاهدته مراراً عندما كنت أذهب إلى هناك للمذاكرة، حيث اعتدت أن أذاكر في الصحراء. شاهدت الأنبوبة المكشوفة كما كانت، فأكدت مكانها.

في اليوم السادس من نوفمبر سنة ١٩٥٦م، خرجت من بيتنا بعد صلاة العشاء، واتجهت إلى «المريجة»[2]، حيث يوجد مبنى «غري مكنزي» ملك لأولاد المرحوم الشيخ سلطان بن صقر القاسمي، وكان

---

١ الموقع مدرسة ميسلون بشارع الزهراء.

٢ المريجة حي من أحياء الشارقة.

سابقاً مؤجراً لشركة الخطوط الملاحية البريطانية الهندية، أما في تلك الفترة فقد استأجره القائد الإنجليزي لفرقة المجندين «الليفيز».

كانت سيارة المندوب السعودي في البريمي، التي أخذها القائد الإنجليزي لنفسه بعد أن استولى على البريمي، وقام بترحيل المندوب السعودي وشيوخ البريمي إلى السعودية، موجودة أمام ذاك المبنى، وليس عليها أي حراسة إلاّ رجلاً كبير السن، يدعى ابن مظلوم، يجلس عند مقدمة السيارة.. إذن المكان مناسب.

بعد كل ذلك الاستطلاع الشامل، قررت أن أبدأ العمل..

العملية الأولى

في اليوم السابع من نوفمبر سنة ١٩٥٦م، خرجت من بيتنا بعد المغرب، وتوجهت إلى محطة موقف السيارات حيث سيارتنا في مرآب هناك، وكانت هناك صفيحة زيت بحجم جالون، فارغة، كنت قد استبدلت زيت السيارة منها، وفتحت لولباً في قاع خزان بنزين سيارتنا، وملأت الصفيحة منه، ورجعت إلى المنزل بالصفيحة. لبست بنطلوناً أسود وبلوفراً بنيّاً داكناً وحذاءَ مطاط كنت ألبسه في المباريات والألعاب الرياضية، وخرجت من المنزل وأنا أحمل صفيحة الوقود، وبجيبي علبة ثقاب (كبريت)؛ وإذا باثنين من أصدقائي يجلسان على الكرسي الكبير أمام بوابة منزلنا، أحدهما محمد بن سلطان بن عبدالله، زميلي في نفس الفصل، والآخر حمد بن عبدالرحمن المناعي، وكان أصغر منا، وهو من الفصول التي تلي فصلنا. فأخبرتهما بأني أنقل وقوداً لسيارتي التي توقفت في الطريق بين دبي والشارقة.

قال أحدهما: «نذهب معك».

قلت: «السيارة بها نساء».

قال الآخر: «نوصلك، وترجع إلينا بعد توصيل أهلك».

سألتهما: «هل أنتم رجال؟».

فأجابا: «نعم!».

قلت: «وهل تخافان الموت؟».

قالا: «لا؟!».

قلت: «خلال الفترة التي تلت العدوان، ونحن يومياً نهتف بالنصر لمصر، والذل والخذلان للمعتدين، ولم نفعل شيئاً.. والآن لابد من عمل شيء، فإما إن تأتيا معي، أو تسترا عليّ..».

قالا: «نذهب معك».

اتجهت بهما إلى خارج البلدة، وهما يحملان صفيحة البنزين بالتناوب، حتى إذا ما وصلنا بالقرب من مبنى مرسلات اللاسلكي والهاتف قلت لهما: لنستريح قليلاً.

كان المبنى على بعد مئة متر منا، وكان مضاءً من الجهة الأمامية فقط حيث يجلس الحارسان المسلحان، فأخذت أشرح لهما خطتي:

«١- سقف المبنى مغطى بالقار، وإذا ما لامسه اللهب سيشتعل.

٢- البوابة الخلفية كبيرة، ومن الخشب، فبصب البنزين عليها وإشعالها ستتناول ألسنة النيران السقف المذكور وكذلك الأجهزة بالداخل.

٣- أنت يا حمد، تبقى هنا، حتى إذا ما شاهدت الاشتعال تجري بسرعة وتنتظرنا عند بيوت السعف، على تلك الأرض المرتفعة».

كان حمد المنّاعي أقصر وأعرض منا، وليس له في الجري شأن. أما أنا، فقد كنت الأول في سباق الجري لمئة متر، ومحمد بن سلطان كان ترتيبه الثاني. أما في سباق الجري لأربعمئه متر، وكذلك لسباق الجري لثمانمئة متر، فكان محمد بن سلطان الأول في السباقين، وأنا الثاني.. لذلك وجب إعطاء حمد المنّاعي تلك المسافة حتى لا يتخلف خلفنا.

كان القمر آخذاً بالأفول، حتى إذا ما غاب تحركت ومعي محمد بن سلطان يحمل صفيحة البنزين إلى المبنى. فأخبرته أن يصب البنزين على البوابة، ومن أعلى، ويبتعد. فما إن صبّ البنزين على البوابة حتى سقط البنزين على «البسطة» التي أمام البوابة، والتي كانت مبنية من الأسمنت، فأحدث سقوط البنزين عليها صوتاً أخاف محمد بن سلطان ورمى صفيحة البنزين وهرب. فأسرعت والتقطت الصفيحة وما زال شيء من البنزين بها، وبدأت أصب البنزين منها على البوابة، وأشعلت فيها النار، فاشتعلت البسطة التي تحتي، حيث قد تجمع عليها البنزين الذي يتساقط من البوابة. قفزت من على البسطة وأنا أجري بأقصى سرعة، والتفت إلى الخلف لأشاهد ألسنة النيران تتناول سقف المبنى، فحولت ليل المكان إلى نهار.

خرج موظفو المبنى وانضموا إلى الحارسين، وتعالت أصواتهم، وإذا بهم يركبون سيارة فتتجه بهم نحونا. حينها كنت قد التقيت بمحمد، ومن بعده حمد، فأخذنا نجري بين بيوت السعف، من عريش إلى عريش، والتي كانت خالية من السكان، لأنها للمصيف فقط. وبأنوار السيارة كانوا يبحثون عنا في تلك «العرش». أما نحن فقد كنا قد

وصلنا إلى أطراف المدينة.

العملية الثانية

في اليوم الثامن من نوفمبر سنة ١٩٥٦م، في صباح ذلك اليوم كان حديث المدينة عن الحريق الذي حدث الليلة الفائتة. أما في ظهيرة ذلك اليوم فقد اتجهت إلى موقف السيارات حيث توجد هناك منجرة تابعة لشخص من عدن يدعى صالح العدني، وكان يترك منجرته مفتوحة الأبواب وبدون حراسة، ظهراً فدخلتها، وأخذت منها منشاراً لقطع الحديد وبعض ريش المنشار كاحتياطي.

بعد صلاة المغرب حضر حمد المنّاعي ومحمد بن سلطان إلى بيتنا، ومن هناك تحركنا إلى خارج البلدة حيث الرياح قد كشفت عن أنبوب نقل المياه للقاعدة، فأخبرتهما عن نيتي في تلك الليلة.

بدأنا نقطع الأنبوب الحديدي والمياه تخرج من مكان القطع بشدة، حتى إذا اكتمل القطع لم نستطع أن نقوم بفصل جزء الأنبوب عن الجزء الآخر، لأن الأنبوب ثقيل ومدفون في الأرض. تركنا المياه تنهمر منه بغزارة.

تلك العملية لم تعرف بها البلدة، حيث كانت بعيدة في الصحراء.

العملية الثالثة

في اليوم التاسع من نوفمبر سنة ١٩٥٦م، أتاني حمد المنّاعي ظهراً، ليقول لي بأن محمد بن سلطان لن يستطيع أن يشارك في تلك الليلة لأنه مشغول.

قلت: «إن العملية تحتاج إلى شخص ثالث».

سأل حمد المناعي: «ما هي؟».

أجبت: «لا أعرف!».

أخذ حمد المنّاعي يفكر، ثم قال:

«عندي شخص يدعى علي بن خادم، يسكن قريباً من بيتنا، في المريجة».

قلت: «هل هو ثقة؟».

قال: «نعم».

قلت: «أحضره معك، بعد صلاة المغرب».

حضر كل من حمد المنّاعي وعلي بن خادم إلى بيتنا بعد صلاة المغرب، فحملا صفيحة البنزين التي كنت قد اشتريتها من محطة البنزين وقد أفرغت نصفها في سيارتي لتكون سهلة الحمل، وحملت أنا قضيباً خشبياً طويت على طرفه خرقاً قديمة، وبجيبي علبة ثقاب (كبريت). واتجهنا إلى المريجة.

والمكان المقصود مسكن القائد الإنجليزي لفرقة المجندين (الليفيز).

وفي سكة المأتم، وهي قبالة المكان المقصود، وقفت معهما أشرح لهما الخطة وهي:

١- أزحف أنا تحت السيارة لأستكشف المكان.

٢- حمد يناولني صفيحة البنزين، ثم يأخذها فارغة.

٣- علي بن خادم يناولني القضيب، ثم يقوم بإشعال النار في طرفه.

٤- وهروبنا بعد العملية من خلال سكة المأتم، ومن ثم إلى السبخة، ناحية الجبيل.

تحركنا إلى مسكن القائد الإنجليزي حيث مؤخرة سيارته على البوابة المفتوحة والمطلة إلى الجنوب. يفصل بيننا وبين السيارة سور أسمنتي. زحفت تحت السيارة وإذا هناك الحارس ابن مظلوم يجلس عند العجلة الأمامية، ويجلس إلى جانبه العبار عبادوه، وهو الذي يعبّر الناس بالعبرة (زورق) من المريجة إلى الليّة. عبادوه يستأذن ليذهب إلى دكان الخباز لشراء الخبز قبل أن يقفل الدكان، وابن مظلوم يقول له: «ما زال هناك وقت».

خرجت من تحت السيارة، وطلبت صفيحة البنزين وأفرغت ما بها، تحت السيارة حيث هناك خزان بنزينها، وأرجعت الصفيحة إلى حمد. بعدها ناولني علي بن خادم القضيب، والذي كان مبلولاً بالبنزين ناحية الخرق، وأشعل النار فيها، فوضعتها تحت السيارة، فشبت النار فيها.

كنا نحن قد انسحبنا إلى سكة المأتم، ومن هناك كنا نشاهد عبادوه يركض إلى البحر حاملاً صفيحة ليأتي بماء البحر لإطفاء الحريق. لكن انفجار خزان بنزين سيارة القائد أبعد عبادوه من الوصول إلى السيارة.

هربنا، نحن الثلاثة، إلى السبخة ناحية الجبيل، ثم رجعنا إلى موقع الحادثة، حيث تجمهر الناس، ونحن معهم، حول هيكل السيارة، وقد احترقت.

في اليوم التاسع من نوفمبر سنة ١٩٥٦م، كان الحادث حديث المدينة، وكذلك حديث مدرستنا، حيث وصلها في ذلك اليوم الوكيل السياسي البريطاني بسيارته قادماً من دبي[1]، والتي كان

١ انتقلت الوكالة السياسية البريطانية من الشارقة إلى دبي سنة ١٩٥٤م، حيث يوجد في دبي أعداد من البريطانيين

العلم البريطاني يرفرف عليها. ترجل المعتمد،ثم دخل مكتب ناظر المدرسة القاسمية الأستاذ محمد ذياب الموسى. وبعد برهة خرج وركب سيارته وغادر المدرسة.

كنت أراقب كل ذلك من خلال نافذة في الصف الذي كنت فيه. استمرت مراقبتي، فشاهدت فرّاش المدرسة عبيد التقي يخرج من مكتب الناظر ويتجه نحو الصف الذي كنت فيه ويطرق الباب ويقول لمدرس الصف: «الناظر يريد سلطان».

أمرني مدرس الصف أن أذهب إلى الناظر.

وهناك وقبل أن يتحدث الأستاذ محمد ذياب الموسى في الموضوع طلب مني أن أخرج إلى الساحة التي أمام مكتبه، وأن أتأكد من عدد الطلبة الدارسين في المدرسة.

قلت: «أعرف العدد، ٦١٧ طالباً».

قال الأستاذ محمد ذياب: «أتريد أن تحرم إخوانك من التعليم، وأخواتك في مدرسة فاطمة الزهراء؟ أنا لم أتحدث أو سأتحدث لأيّ طالب غيرك! ارجع إلى صفك!».

العملية الرابعة

رجعت إلى صفي، وأنا أكثر إصراراً، فالعملية القادمة كبيرة ستهزّ الدنيا.. حرق ثلاث طائرات حربية بريطانية.. ربما هي التي كانت تقتل الأطفال والنساء في بور سعيد.. لقد جمعت كمية كبيرة من الخرق من مكبات الزبالة في البلد لاستعمالها في العملية.

وشركات بريطانية عدة.

ما إن انتهى الـدوام المدرسي، وبينما نحن نخرج من الصف، همسـت فـي أذن محمـد بن سلطـان قائـلاً:

«موعدنا اليوم.. بعد صلاة المغرب!».

وفي ساحة المدرسة، أخذت أتلفت فإذا بحمد المنّاعي قادم نحوي، فقلت له:

«موعدنا اليوم.. بعد صلاة المغرب!».

قال حمد: «هل أحضر علي بن خادم؟».

قلت له: «لا، هذه المرة سيحضر محمد بن سلطان، وقد حدثته بذلك».

بعد صلاة المغرب حضر كل من حمد المنّاعي ومحمد بن سلطان، وحملا صفيحة البنزين المفتوحة من أعلى، والتي عملت لها حلقتين لتُحمل بهما. كان في الصفيحة حبل طويل لففت عليه كمية كبيرة من الخرق، وفي أوله ثبّتُ حجراً، والذي سأضعه في فتحة شفط الهواء بالطائرة الحربية، وأمد الحبل الملفوف عليه الخرق والمبلل بالبنزين إلى مسافة، وأشعل النار في أوله حتى تسري النار إلى الطائرة.

وصلنا إلى القاعدة البريطانية. وعلى جانب من الطريق الواصل من الشارقة إلى القاعدة انبطحنا على الأرض، بين شجيرات الرمرام والحمض، حتى لا نشاهد من قِبل المارة أو أنوار السيارات العابرة، وانتظـرنا قليـلاً، حتى قـرب ورود العمـال من الشارقة إلى القاعدة.

قلت لهما الآن سأذهب لاستكشاف المكان. ذهبت بسرعة حتى إذا ما عدت، رويت لهما التالي: هناك جنديان بريطانيان يقفان أمام بوابة الفندق يشربان «بيرة»، ولدى كل واحد منهما بندقية وفي

مقدمتها حربة. سيستغرقان بعض الوقت حتى يعودا إلى مربض الطائرات الحربية لحراستها، وقبل أن يعودا إلى مربض الطائرات نكون نحن قد أنهينا العملية.

هنا بدا الخوف على محمد بن سلطان حين قال:

«أنا لست معكما!».

قلت له: «لماذا؟».

قال: «تقول بنادق وحراب، وأنت ليست معك حتى سكينة؟!».

قلت: «معي الإيمان.. أقوى من البنادق والحراب».

هنا يتدخل حمد المنّاعي، قائلاً: «اتركه يرجع..أنا معك!».

قلت له: «أسرع، ولا تتوقف.. لأنهم سيلاحقوننا بالسيارات، مثلما حدث عند مبنى المرسلات اللاسلكية».

انتظرنا قليلاً حتى وصل محمد بن سلطان إلى مدينة الشارقة. عندها قلت لحمد المنّاعي: «هيا بنا، لقد أخّرنا كثيراً».

حملنا صفيحة البنزين وبها الحبل الطويل إلى مربض الطائرات، حيث المكان ساكن إلا من أصوات صراصير الليل والتي كانت تكثر في ذلك المكان.

قلت لحمد: «هل تسمع؟».

قال: «ماذا؟!».

قلت: «صوت الصراصير.. لو لاحظت شيئاً، صوّت بصوت الصراصير».

نحن الآن تحت عمود النور، الكاشف لثلاث طائرات حربية، وهناك بقعة ظلماء تحت عمود النور.

وبينما نحن نختبئ في البقعة الظلماء، وبين البراميل الممتـدة من مربض الطائرات والطريق العام، وأمامنا الطائرة الوسطى.. همست لحمد، بعد أن أخرجت طرف الحبل الذي به الحجر، وقلت له:

«عندما أكون تحت الطائرة، إرم الحجر إليّ، مع جزء من الحبل».

حبوت إلى الطائرة الوسطى، وكانت قريبة جداً من موقعنا. ذلك النوع من الطائرات وطيئة وقريبة من سطح الأرض، وظلها على الأرض مظلم.

سمعت صوتاً: «زيز..زيز..زيز».

التفت إلى حمد وإذا به يشير بإصبعه إلى ناحية الجنوب، فالتفت، وإذا بي أشاهد أربعة أرجل عسكرية، لا يظهر لي منها إلا ما تحت الركبة. لففت جسدي الضئيل على عجلة الطائرة وصرت جزءاً منه، حيث إنني كنت ألبس ملابس داكنة.

مرّ الجنديان بين الطائرة الأولى والطائرة الوسطى، حيث كنت أختبئ.

قال أحدهما لزميله: «أعطني سيجارة».

قال زميله: «ليس هنا..لنبتعد عن الطائرات».

ابتعد الجنديان بضعة أمتار.. وكلما حاول أحدهما إشعال السيجارة تطفئها الرياح؛ فاقترب الاثنان من بعضهما لإشعال السيجارة. كنت وقتها قد حبوت إلى البراميل، وأخذت أحبو في ظلالها حتى مسافة، ثم اعتدلت لأجد حمداً في انتظاري، حيث قال:

«أين حساباتك.. وتقديراتك؟!».

قلت: «المسألة كانت في بضع دقائق..والذي تسبب فيها محمد

ابن سلطان بتأخيرنا، ونحن نجادله».

ثم سألت حمداً: «أين صفيحة البنزين؟».

أجاب: «تركتها هناك بين البراميل، بالقرب من الطائرة الوسطى».

قلت: «إن الجنديين يجلسان دائماً على تلك البراميل في تلك البقعة الظلماء حيث تركت أنت صفيحة البنزين. لننتظر قليلاً حتى يشتاقا لخمرهما ويذهبا إلى الفندق».

رجعنا إلى مربض الطائرات لإكمال العملية، وإذا بنا نشاهد عدداً من الجنود وسيارات حربية ترد إلى المكان الذي تركنا صفيحة البنزين فيه.

قلت لحمد:

«لقد اكتشف الإنجليز صفيحة البنزين، لنهرب».

قال: «إلى البلد؟!».

قلت: «لا.. إلى الصحراء وعلى طول سياج القاعدة».

أخذت السيارات العسكرية تجول بأنوارها حول المكان الذي كنا فيه، وتتجه إلى البلد، بينما نحن نوغل في الصحراء.. ونتجه شمالاً لندخل البلد من الناحية الشمالية، بينما نحن قد خرجنا منها من الناحية الجنوبية.

صلاة الفجر

وصلت إلى بيتنا قبيل الفجر، فدخلت إلى الغرفة الكبيرة التي ننام فيها، ويقال لها «المخزن».. ينام فيه معظم أفراد العائلة.

في جهة من المخزن نام والدي على سرير، بينما نامت والدتي،

مع أولادها الصغار شقيقي عبدالله وشقيقتي ناعمة، على فرش على الأرض. أما السرير الآخر فكان في الجهة الأخرى من المخزن. تسحبت حتى السرير الآخر، وتمددت عليه، فلم يأتني النوم، حتى سمعت والدتي تنادي والدي عندما قام لصلاة الفجر، قائلة:

«محمد.. محمد..».

والدي: «نعم».

والدتي: «تصرف مع هذا الولد.. منذ عدة أيام وهو لا يأتي إلا وجه الفجر!».

والدي: «أستحي أكلمه!».

والدتي: «كيف تستحي من ولدك؟!».

قام والدي وترك الفراش، وذهب إلى الحمام ليتوضأ في الغرفة الأخرى، والتي يقال لها «القطيعة»، حتى إذا انتهى من وضوئه وقف على الباب الفاصل بين المخزن والغرفة التي بها الحمام، وأخذ يناديني:

«سلطان..سلطان..».

أجبت: «نعم».

والدي: «قم توضأ، لنذهب إلى المسجد».

قمت بسرعة، حتى إذا ما وصلت إلى الباب الواصل بين المخزن والقطيعة فإذا بوالدي يملأ الباب بجسمه، فحاولت أن أمر من خلال ما تبقى من فراغ، وإذا بوالدي يمسك كتفي بكلتا يديه ويوجهني نحوه، ويحدّق بي وكأن عينيه تسألان:

«أأنت الذي تقوم بهذه الأفعال؟».

فهززت رأسي وكأني أقول: «نعم... أنا».

ضمني والدي إلى صدره، وأخذ يقبلني.

سمعت والدتي طقطقة التقبيل، فقالت: «عجيب أمرك أيها الرجل، بدلاً من أن توبّخ الولد تقوم بتقبيله عن فعله!».

والدي: «يا مريم، هذا الولد قام بعمل لم أستطع أن أقوم به».

وبينما هو يحدّق في وجهي، أذّن مؤذّن الفجر: الله أكبر.. الله أكبر.

الفصل السابع

حوادث جرت في الشارقة

كانت مدينة الشارقة هادئة، الحركة فيها تتمثل في خروج العمال والموظفين من بيوتهم في الصباح الباكر إلى عملهم في محطة الطيران أو في القاعدة البريطانية في الجهة الجنوبية الشرقية من مدينة الشارقة، يلي ذلك خروج الطلبة من بيوتهم متجهين إلى المدرسة القاسمية الواقعة بين مدينة الشارقة ومحطة الطيران؛ أما البنات فكن يتجهن إلى مدرستهن في وسط المدينة.

كثرت الحوادث في مدينة الشارقة في المدة ما بين سنة ١٩٥٨م وسنة ١٩٥٩م، نذكر بعض تلك الحوادث فيما يلي:

إبعـاد المدرسين

بانتهاء العام الدراسي ١٩٥٦ – ١٩٥٧م كان الأستاذ هاشم عمارة ناظر مدرسة دبي قد أبعد من دبي بطلب من الإنجليز من مكتب الكويت بدبي، حيث كان من البعثة الكويتية للتعليم، كما أُبعد

كذلك الأستاذ فائز أبوالنعاج من المدرسة القاسمية بالشارقة، ولم تُجْدِ محاولات الشيخ صقر بن سلطان القاسمي نفعاً لإبقائه حيث برّر ذلك بأنه المدرس الخاص لابنه. وأتى الضرر الأكبر على المدرسة القاسمية عندما تقرر من قِبل الإنجليز منع الأستاذ محمد ذياب الموسى ناظر المدرسة القاسمية بالشارقة من العودة إلى الشارقة. حتى إذا ما بدأت المدرسة القاسمية العام الدراسي ١٩٥٧ – ١٩٥٨م لم يكن هناك ناظر للمدرسة، مما دعا مكتب الكويت بدبي إلى أن يعيّن أحد المدرسين وكيلاً للمدرسة حتى وصول ناظر جديد لها.

كان الأستاذ محمد ذياب الموسى منذ أن وصل إلى المدرسة القاسمية مدرّساً وهو يضيف أنشطة مدرسية كل سنة إلى جانب الارتقاء بمستوى التعليم. وكانت أواخر أنشطته المهرجان الرياضي السنوي والذي كان يقام في شهر إبريل من كل سنة. وكان يحضره شيوخ الإمارات وجمع غفير من سكان دبي والشارقة وعجمان. كما كانت هناك المسرحية المشهورة "المروءة المقنّعة" للشاعر الفلسطيني محمود غنيم، وقد قمت بالتمثيل بها بالدور الرئيسي «جابر عثرات الكرام». حضر تلك المسرحية شيوخ الإمارات وأعداد كبيرة ممن اشتروا التذاكر في أيام العيد التي سبقت القيام بالمسرحية. وقد جُمع مبلغ من المال قُدّر باثنين وثلاثين ألف روبية، أكثرها جاء من تبرعات شيوخ الإمارات، وكان تبرع الشيخ راشد بن سعيد المكتوم حاكم دبي سخيًاً. كان الغرض من جمع تلك الأموال هو بناء فصول دراسية إضافية لمدرسة القاسمية بالشارقة.

امتحانات المتوسطة في الكويت

قبل انتهاء العام الدراسي ١٩٥٧-١٩٥٨م، والذي كنا فيه في الصف الرابع المتوسط، كان امتحان الشهادة المتوسطة للمدرسة القاسمية بالشارقة، وهو أول امتحان من نوعه يجب أن يُنقل إلى الكويت.

استأجرت دائرة المعارف في الكويت طائرة خاصة من طائرات طيران الخليج لتنقلنا إلى الكويت عبوراً بالبحرين. وكان عددنا ثلاثة عشر طالباً. كان المشرف على البعثة الأستاذ جاسم بن سيف المدفع، ويساعده الأستاذ صدقي ذياب الموسى.

حينما وصلنا إلى مطار الكويت أخذ أحد مسؤولي الجوازات يقلب جوازات سفرنا وهو يضحك ثم يحادث الموظف الثاني، والثالث، والرابع، ويضحكون وهم يقلبون جوازات سفرنا. خرج إلينا أحدهم ليسلمنا جوازات سفرنا بعد أن ختمها بختم الدخول وهو يضحك، قائلاً:

«مولودون في يوم واحد؟».

لم نستطع الإجابة، ولم نكن نفهم ماذا كان يقصد!

بعد مراجعة دفاتر جوازات سفرنا، تبين أن الأستاذ غريب عبدالصالحين من البعثة المصرية والذي قام بتسجيل أسمائنا في دفاتر الجوازات قد كتب تاريخ ميلادنا جميعاً بتاريخ ١/١/١٩٤٢م، فجعلنا أضحوكة بذلك.

نزلنا بالكويت في منزل رقم ٢١ من منازل ثانوية الشويخ.

وقبل بداية الامتحانات سألت الأستاذ صدقي ذياب الموسى عن

عنوان أخيه محمد ذياب الموسى، فأخبرني أنه في مدرسة "أبي حليفة" بالكويت، فاستأجرت سيارة أجرة لتقلّني إلى مدرسة أبوحليفة خارج مدينة الكويت حيث زرت أستاذي الأستاذ محمد ذياب الموسى المدرس بتلك المدرسة، وسألته:

«ما الذي دفعك إلى أن تختارني أنا بالذات لتوجه إليّ الإنذار في حوادث سنة ١٩٥٦م؟».

أجاب الأستاذ محمد ذياب الموسى:

«كان المدرسون الذين يدرسونكم قد نبهوني قائلين بأن سلطان القاسمي يمر بحالة نفسية فلم يعد مثلما كان. وأضافوا بأنهم يدرسون الطلبة في غرفة الصف من خلالك إلى درجة أنك كنت تلاحق المدرس بنظرك عندما يتحرك المدرس في كل الاتجاهات حتى وإلى الخلف، أما يومها فقد كنت شارد الذهن».

وبعد أن قدمنا امتحان المتوسطة بيسر، أخذتنا دائرة المعارف في حافلة إلى الأحمدي لمشاهدة مدينة الأحمدي النموذجية والمنشآت البترولية.

غادرنا الكويت بالطائرة الخاصة المؤجرة من طيران الخليج عائدين إلى الشارقة. وكان على الطائرة أن تتزود بالبنزين من البحرين، ونكون نحن وقتها عابرين فقط. ما إن وصلت طائرتنا إلى البحرين، وإذا بموظف الصحة يدخل الطائرة ويطلب منا البطاقات الصحية، فسألنا عنها فتبيّن أن المسؤول عن رحلتنا قد نسيها في الكويت.

قال: «لابد من إعطاء التطعيم».

تقدمت إليه قائلاً: «نحن لا شأن لنا بالبحرين».

قال : «يجب أن تكون معكم بطاقات صحية».

قلت، وأنا قد فتحت جواز السفر :

«انظر، هذا دخول الكويت، وهذا خروج الكويت، إذن كيف أدخلونا إلى الكويت؟!».

قال : «لا شأن لي بذلك».

قلت، وأنا أكشف عن زندي : «انظر..علامة التطعيم لا تزال متقيحة!».

قال : «هذه قرحة في زندك!».

قلت لجميع الطلبة: «اكشفوا عن زنودكم».

فشاهد زنودهم، وقال : «ولو.. لابد من التطعيم».

قلت: «والله..لن يكون!».

قال : «والله..لن تتحرك الطائرة!».

وجلسنا مدة ربع ساعة، وجميع الطلبة يترجونني أن أوافق. وقالوا:

«هو جرح بسيط بالمشرط».

طُلب منا أن ننزل جميعنا من الطائرة ونذهب إلى مبنى المطار.. فأخذنا ننتظر حتى حضر موظف الصحة، فقلت له:

«أين الدكتور الذي سيقوم بعملية التطعيم؟».

قال موظف الصحة: «أنا».

قلت بتعجب: «أنت!!».

قال : «ما ملأت عينك؟ لابد أن أكون أجنبياً حتى أملأ عينك».

قلت : «حاشا لله، ولكن كنت تستطيع أن تقوم بالتطعيم والزنود مكشوفة».

قال: «الطعم كان هنا في الثلاجة».

أخذ الدكتور موظف الصحة يجري عملية التطعيم حتى انتهى جميع الطلبة من التطعيم وبقيت أنا وحدي معه.

قلت: «أنا أقسمت يميناً.. وسأموت ولن ترضى أنت أن أموت بسببك».

قال: «لا..لا أرضى».

قلت: «أعطني المشرط وأنا أشرط زندي وأضع الطعم عليه تحت إشرافك».

قال: «قبلت».

وهكذا كان.

كبو السلاح

في أواخر سنة ١٩٥٨م كثرت الكلاب الضالة في مدينة الشارقة، فأمر الشيخ صقر بن سلطان القاسمي حاكم الشارقة أن يتم التخلص منها.

وفي مساء يوم من تلك الأيام، سمعت إطلاق نار في ساحة الحصن فخرجت من بيتنا لأستجلي الأمر، وإذا بعسكري قد أردى كلباً قتلاً، وأخذ يصوِّب بندقيته ناحية كلبة أخرى أخذت تستنجد بي. لكن الرصاصة قد انطلقت لتصيب الكلبة في نهاية عمودها الفقري، فتقع على الأرض ثم تقوم لتسحب مؤخرتها التي أصابها الشلل.

أخذت أنهر العسكري حتى أبعدته عنها. حملت تلك الكلبة إلى بيتنا وداويتها وصنعت لها بيتاً من الخشب، وأخذت أراعيها بإطعامها

وسقيها وتنظيفها حتى برأ جرحها. وكانت في كل مرة إذا ما أردت أن أتركها تتبعني ساحبة عجزها، فأحاول أن أرجعها إلى بيتها، لكنها تأخذ في مداعبتي وكأنها تطلب مني أن أبقى معها.

كنت عند رجوعي من المدرسة أمرّ بها أولاً لأطمئن على صحتها.. وفي ذات مرة، وجدت الكلبة مبلولة، وإذا بها ترتعش!

مَنْ الذي قام بغسلها؟! ومَنْ وضع ذاك الحبل حول رقبتها؟! واكتشفت أَثَرَ سحبها لعجزها وهي آتية من البوابة الغربية. فتبعت الأثر، وإذا بها آتية من ناحية السوق الواقع على شاطئ البحر. سألت أصحاب المحلات التجارية إن كانوا شاهدوا كلبة مشلولة مرت من هناك.

أجابوا بأن شخصاً كان يسحب كلبة بحبل من رقبتها ورماها في البحر، وحاول أن يغرقها.. لكنها سبحت بعيداً عنه، ولم تقترب من الشاطئ.

رجعت إلى البيت، فوجدتها قد ماتت.

وفي مكان آخر، تجمّع الشباب لمشاهدة ذاك العسكري وهو يصوّب بندقيته نحو كلبة أخرى كانت تنبش في القمامة، وكان هناك شخص يلبس لباساً مثل لباسنا ويندس بيننا، فإذا ما خاطبه أحد أشار إلى أذنه بأنه لا يسمع، وعلى شفتيه بأنه لا يتكلم، ويتلفظ فقط بكلمات هي: هوب..أي..هوب.

وبينما كان العسكري مصوباً بندقيته نحو الكلبة..والجميع يترقب انطلاق الرصاصة، فإذا بصوت البندقية يأتي:

« تِكْ »..

قال «هوب آي هوب»: كذَبتْ..(أي كَبَتْ).

فالتفت إليه الشباب ليمسكوا به، لكنه فلت من بين أيديهم وهرب من البلد.

تبيّن فيما بعد أنه جاسوس للإنجليز.

كان هناك رجل يُدعى سيد عبدالله ويطلق على نفسه لقب «زعيم البلوش»، ويقيم في الشارقة. وكان سيد عبدالله من البلوش الذين ثاروا على رضا شاه في إيران قبل عشرين عاماً من الحادثة التالية، وقد هرب مع كثيرين آخرين واستقر في الشارقة وأصبح من رعاياها، ويحمل وقتها جواز سفر صادراً من الشارقة، وهو من أتباع الشيخ صقر بن سلطان القاسمي حاكم الشارقة، الذي ظل يدفع له على مدى سنوات مبلغ ٢٠٠ روبية شهرياً:

وقعت مشاجرة في الشارقة بتاريخ ٩ ديسمبر سنة ١٩٥٨م بين رجل بلوشي وزوجته، وعُرض الرجل البلوشي على الشيخ صقر، فقال الشيخ صقر إن القضية يجب أن تُعرض على الشيخ سيف المدفع الذي يتولى القضاء في الشارقة، وطُلب من الشيخ سيف أن يسوي الخلاف بين الرجل وزوجته.

عندما سمع سيد عبدالله بهذا، رفض أن يسمح للرجل البلوشي بعرض الدعوى على الشيخ سيف، وذهب بنفسه ليقابل الشيخ صقر مساء الخميس ١١ ديسمبر، وكان ذلك في المجلس العام. قال سيد عبدالله للشيخ صقر بأن البلوش رعاياه، وأن من واجبه أن يسوي خلافاتهم. وقد سئم الشيخ صقر من احتجاجات سيد عبدالله، وطلب منه أن يصمت، وأمره لاحقاً بالخروج من المجلس؛ فأخرج

سيد عبدالله مسدساً وصوّبه على الشيخ صقر. وكان مدرس مصري يُدعى محمد أبوالمعاطي جالساً في المجلس، فضرب سيد عبدالله من الخلف وانتزع منه المسدس. وفي الوقت ذاته أخذ الشيخ صقر بندقية من أحد أتباعه وصوبها على سيد عبدالله، وأطلق النار، ولكن السلاح كبا. وحاول مرة أخرى أن يطلق النار، لكن الرصاصة لم تخرج من البندقية..وهنا أمسك عساكر الشيخ صقر سيد عبدالله.. وبعد أن أوسعوه ضرباً، اقتادوه إلى السجن.

هدد الشيخ صقر بأن يُسلّم سيد عبدالله للسلطات الإيرانية حيث إنه مطلوب لديها. عندها وصل «الميرزا بركت»، زعيم البلوش على ساحل الباطنة في عُمان، إلى الشارقة، وطلب من الشيخ صقر أن يسلمه سيد عبدالله ليأخذه معه إلى عُمان. وقد تعهد «الميرزا بركت» بأن سيد عبدالله لن يعود إلى الشارقة.

في نهاية ديسمبر سنة ١٩٥٨م حدث حريق في خيمة من سعف في «حي البلوش»، واحترقت صاحبة الخيمة وماتت، فاتُهم زوجها بأنه هو الذي أحرقها. أُلقي القبض على الرجل البلوشي وأُحضِر لدى القاضي، فحكم عليه بالإعدام رمياً بالرصاص. لم يكن سيد عبدالله زعيم البلوش في الشارقة، ولم يكن هناك من يُدافع عن هذا الرجل، فاقتادوه خارج البلد بالقرب من شجرة الرولة التي كانت تُقام تحتها الأعياد والأفراح لتنفيذ حكم الإعدام.

كنت وقتها خارجاً من بيتنا لأشاهد تنفيذ الحكم مثل غيري من الناس الذين أخذوا يهرولون نحو شجرة الرولة. وعلى باب بيتنا تسمّرت تلك المرأة البلوشية التي كانت تقوم بالكناسة في بيتنا

ودموعها تنهمر، قالت:

«إلى أين؟».

قلت: «لأشاهد إعدام الرجل».

قالت: «لا تذهب!».

قلت: «لماذا؟».

قالت: «هذا ظلم!».

قلت: «كيف؟!».

قالت: «أنا جارة المرأة التي احترقت، وخيامنا ليس عليها أسوار، ولم يكن زوجها هناك، بل كانت تطبخ، فاحترقت الخيمة التي كانت بها، فاحترقت».

قلت: «هل معك شهود على ذلك؟».

قالت: «نعم..كل أهل الحي يشهدون بذلك».

ركضت مسرعاً بينما هي لا تزال تكمل الحديث، حتى إذا ما وصلت إلى شجرة الرولة وجدت الرجل موثوق الرجلين واليدين، وأهالي الشارقة قد اصطفوا ليشاهدوا عملية الإعدام. وكان هناك رجل يُدعى «سالم الباطني»، المتخصص بتنفيذ الإعدام وقطع الأيادي، يحشو بندقيته لإطلاق النار.

وقفت أمامه وطلبت منه أن لا يُطلق النار، وأنا أقول له:

«هذا بريء.. أنا لديَّ شهود على ذلك!».

أمسكت بماسورة البندقية، فأصبحت مصوّبة نحو صدري!

قال سالم الباطني: «أمسكوه..البندقية محشوة».

أمسكوني فانسلت ماسورة البندقية من بين يديّ.

صوّب سالم الباطني بندقيته نحو الرجل البلوشي.فكَبَتْ!!

فصرخت: «خلاص!! خلاص!!».

وحاولت الإفلات من العساكر فلم أستطع، وإذا بسالم الباطني يصوِّب بندقيته ويطلق النار فيسقط الرجل البلوشي. فأسرعت نحوه.

عندما وصلت إليه. كنت أظن أنني سآخذه إلى المستشفى. فلما رفعت رأسه وجدته قد فارق الحياة..وعيناه لا تزالان مفتوحتين تنظران إليّ، وكأنهما تقولان لي: «شكراً».

فراق الوالدين

في سنة ١٩٥٧م تزوج الشيخ محمد بن علي آل ثاني، نجل حاكم قطر، شقيقتي ناعمة. ولصغر سنها، انتقلت والدتي معها إلى قطر، فخلا البيت من الحس، حتى إذا ما فات عام على زواج شقيقتي ناعمة، ذهبت إلى قطر في يونيو سنة ١٩٥٨م لأزور والدتي وشقيقتي التي رزقت بطفل ذكر سُمّي عبدالله.

مكثت في قطر مدة شهر زرت خلاله مدن وقرى وشواطئ قطر؛ وقد شاهدت التطور الذي حدث منذ زيارتي الأولى قبل ثلاث سنوات. وذات يوم قمت بزيارة «فرضة» الدوحة، محط السفن الخشبية، والتي كانت تنقل البضائع من جميع موانئ الخليج والهند وباكستان وشرق افريقيا. وإلى جانب فرضة الدوحة شاهدت عدداً من سيارات النقل تفرغ حمولتها من الصخور في البحر. فلما سألت عن ذلك، قيل لي إنه بداية بناء ميناء الدوحة.

لاتوجد جبال في قطر، فمن أين كانت تلك السيارات تأتي

بالصخور؟. تتبعت بسيارتي تلك السيارات فوجدتها تنقل الصخور من مقلع يبعد عدة كيلومترات إلى الجنوب من مدينة الدوحة. كانت تلك الصخور لبنية اللون، كانت قد غطتها رمال الصحراء.

في بداية شهر يوليو سنة ١٩٥٨م، قررت العودة بالطائرة إلى الشارقة. نزلت وهي في طريقها إلى الشارقة في مطار أبوظبي، وكان قد جُهِّز قبل بضعة أشهر من أرض سبخة مدكوكة لتكون المدرج، ومبنى مؤقت للمسافرين. عند نهاية ذاك المدرج خرجت الطائرة عن الأرض المدكوكة وغاصت إحدى عجلاتها في السبخة الطرية حتى لامس جناحها الأرض، فأسرعت سيارة من مبنى الركاب؛ وبعد أن استطلعت الأمر، وصلت سيارة ذات دفع رباعي، فنزل سائقها، ويُدعى (ما شاء الله)، وكان من أهالي الشارقة يعمل هناك، فربط حبلاً حديدياً في عمود عجلة الطائرة بعد أن حفر حول عجلة الطائرة، وأخذ يجر الطائرة التي رفضت أن تتحرك. عندها قررت إدارة مطار أبوظبي طلب طائرة أخرى من البحرين لتنقلنا إلى الشارقة.

ركبنا السيارة مع (ما شاء الله)، وكنا ركاب الشارقة اثنين فقط: إبراهيم بن نصار وأنا، فأخذنا إلى مطعم مبني بالسعف على شاطئ البحر بأبوظبي، تناولنا الغداء هناك، ثم أخذنا بجولة حول الأماكن المهمة في أبوظبي، ومنها حصن أبوظبي بلونه الأبيض وأبراجه المطلة من زواياه بعيداً قليلاً عن البلدة، تفصله عنها أرض رملية ناعمة بيضاء. أما على شاطئ البحر، فهناك بعض المباني التي بُنيت للشركات العاملة في أبوظبي.

سألت «ما شاء الله»:

«هل الطائرة الآتية من البحرين لإبراهيم ولي فقط؟».

قال «ما شاء الله»:

«الطائرة الآتية من البحرين لنقل شحنة الذهب الكبيرة التي بطائرتكم، ولذلك انغرزت عجلتها في السبخة».

كانت تلك الشحنة من الذهب تُنقل من البحرين إلى الشارقة، ومن ثَمَّ تُهرَّب إلى الهند.

وقبل بدء الدراسة ودخولي إلى المدرسة، تزحلق والدي في الحمام ذات مساء فانكسرت رجله في منتصف عظمة الفخذ. كنت أقرب واحد من أبنائه عندما نادوني، فوضعته في سيارة ونقلته إلى مستشفى المكتوم في دبي.

توافد الأبناء والأقرباء على مستشفى المكتوم للاطمئنان على صحة والدي. تداول شقيقي خالد مسألة علاج والدي مع الأطباء، فاستقر الرأي على أن يُنقل إلى قطر للعلاج هناك، فسافر شقيقي خالد وأنا معه بالطائرة إلى قطر. ولم أمكث طويلاً في قطر، فقد عدت إلى الشارقة لمواصلة دراستي.

في مستشفى قطر لم يجبر كسر ساق والدي، فتقرر أن ينقل إلى بيروت ليدخل مستشفى البربير لتجرى له عملية وضع قضيب في تجويف العظم.

تمت العملية بسلام في بداية سنة ١٩٥٩م، وما هو إلا شهر حتى بدأ والدي بالمشي على رجليه.

في فجر يوم الرابع من فبراير سنة ١٩٥٩م أصيب والدي بجلطة في الدماغ، فوصلت برقية للشيخ صقر بن سلطان القاسمي حاكم

الشارقة تخبره بما حدث..فسافر إلى بيروت للاطمئنان على صحة عمه.

وكيل حكومة قطر في لبنان طلب على الفور من السفارة البريطانية إحضار جرّاح كبير بالطائرة من لندن لإجراء عملية مستعجلة. وفي الساعة الثانية والنصف بعد الظهر من يوم الخامس من فبراير سنة ١٩٥٩م وصلت طائرة الخطوط الجوية البريطانية إلى بيروت، وعلى متنها الطبيب الإنجليزي «مراي فالكونر» «Murray Falconer» من مستشفى «غايز» «Guys»، والذي أجرى عملية مشابهة في السنة التي قبلها لحميد فرنجية، كما اصطحب معه مساعده الدكتور «هاملتون» «Hamilton».

فور وصول الدكتور «فالكونر» أجريت لوالدي عملية جراحية استعاد بعدها وعيه، عدا ما أصابه من شلل في إحدى يديه وفي إحدى رجليه. عاد بعدها في بداية شهر مارس سنة ١٩٥٩م إلى الشارقة ليبقى طريح الفراش.

حريق الشارقة

في ظهر يوم من أيام شهر مارس سنة ١٩٥٩م كانت الرياح الشديدة المثيرة للأتربة آتية من الجنوب، يقال لها «السهيلي»، وقد شبّ حينها حريق في حيّ البلوش، المعادين لشاه إيران، والتابعين لسيد عبدالله، الذي أبعد من الشارقة إلى مسقط بعمان قبل عدة أشهر.

أخذت النار تتناول البيوت بيتاً بيتاً، وتسبقها إلى البيوت البعيدة قطع ملتهبة متطايرة من حصر السعف والتي كانت تُغطى بها أسقف بيوت السعف. كان حيّ البلوش والأحياء المجاورة له كلها مبنية من

سعف النخيل، لذلك أتت النار على تلك الأحياء كلها، فلم تُبق على شيء، وتركت تلك العوائل في العراء.

بعد يومين من الحريق، وصل إلى مطار الشارقة عدد من الطائرات الإيرانية محمّلة بالخيام والبطانيات، وتمّ تسليم الشيخ صقر بن سلطان القاسمي مئة ألف روبية من الحكومة الإيرانية لإعاشة وتعويض المتضررين.

تحطم الطائرات الحربية في الشارقة

بينما كنا في غرفة الصف بمدرستنا ضحى يوم العاشر من مارس سنة ١٩٥٩م، وإذا بصوت انفجار هزّ جدران الغرفة؛ فخرج الطلبة ليستطلعوا ما حدث، فتبيّن أن طائرة حربية بريطانية من نوع «هنتر» «Hunter» قد تحطمت في مطار الشارقة وهو لا يبعد عن المدرسة إلاّ بضع مئات من الأمتار.

هذه ليست الطائرة الحربية الوحيدة التي تحطمت في مطار الشارقة، فقد تلتها طائرة حربية بريطانية أخرى من نوع «كمبيرا» «Cambirra» تحطمت يوم الخامس من يوليو سنة ١٩٥٩م.

الفصل الثامن

رحلة إلى إيران

سكن في بيت قريب من بيتنا طبيب إيراني يدعى جعفر، بعد أن فتح عيادته الطبية في الشارقة. زار الدكتور جعفر أخ له أصغر منه سناً، قدم من إيران، فعرّفني عليه. وبعد عدة لقاءات عرض عليّ أن أزور إيران، وأنه سيرافقني إلى هناك.

عرضت الموضوع على أصدقائي تريم بن عمران بن تريم وعبدالله بن عمران بن تريم ومحمد بن حمد الشامسي ويعقوب بن يوسف الدوخي، فوافقوا على المشاركة في تلك الرحلة.

أخبرت والدي، وكان طريح الفراش، بأن يكتب رسالة إلى اللواء رحماني، الذي كان مسؤولاً من قبل الحكومة الإيرانية عن والدي في فترة علاجه في طهران، ليقوم بالاعتناء بنا.

قام الدكتور جعفر بكتابة تلك الرسالة باللغة الفارسية، وختمها والدي بختمه.

استأجرنا سفينة «لنش» أولاد زمزم لتأخذنا من الشارقة إلى لنجة

على الساحل الفارسي.

الرحلة البحرية إلى لنجة

ركبنا جميعاً، ومعنا أخ الدكتور جعفر الإيراني، السفينة من الشارقة بعد صلاة المغرب من يوم في أواخر شهر يوليو سنة ١٩٥٩م، وكان في السفينة شاب يدعى عبادوه، يساعد في إدارة دفة السفينة مع رجل كبير في السن يدعى خلفان، ولا أحد آخر غير الربان.

كانت السفينة تمخر عباب البحر، والجدال يشتد بين تريم ابن عمران، المتعصب في حبه لجمال عبدالناصر، وأخ الدكتور جعفر الإيراني، المتعصب في حبه لشاه إيران، وأنا أترجم بين الاثنين باللغة الفارسية ما استطعت أن أترجمه وأترك كثيراً من الكلام، وأترجم كلمات بالخطأ تثير حفيظة كل واحد منهما على الآخر. فواحد منهما كان ممسكاً بيدي اليسرى والآخر ممسكاً بيدي اليمنى، وبينهما لساني الذي كان عاجزاً عن ترجمة كلمات ليست في قاموس معرفتي باللغة الفارسية، كدول عدم الانحياز وما إلى ذلك.

سحبت نفسي من بين جدالهما، واتجهت إلى مقدمة السفينة حيث يجلس مشغل المحرك عبادوه، الذي أخذ يحدثني عن أهوال البحر. وبينما نحن كذلك وإذا بناقلة نفط عملاقة، متجهة إلى أسواق العالم النفطية، قريبة منا. صرخ الربان إبراهيم زمزم على عبادوه أن يزيد السرعة. قفز عبادوه إلى حجرة المحرك، بينما إبراهيم زمزم يدفع بعمود الدفة إلى اليسار.

أطلق عبادوه المحرك بأقصى سرعة. الجميع كانوا نائمين، وكذلك

خلفان الذي أوكل إليه شأن الدفة. كانت سفـينتنا صغيرة جداً مقارنة بحجم ناقلة النفط، عندما مرت سفينتنا بمحاذاتها ناحية المقدمة. كانت مقدمة سفينتنا مرتفعة، ومؤخرتها وكأنها ستغطس في البحر، بينما ناقلة النفط تخرج أصواتاً من محركاتها، وعبادوه يقول: «لقد شاهدنا!! إنه يوقف الناقلة».

قلت: «أفي هذه الظلمة؟».

قال: «إنه يشاهد «الفنر» المعلق في السارية».

كانت سفينتنا تمخر البحر بأقصى سرعة، تاركة ناقلة النفط خلفها حيث توقفت عن الحركة، ثم استدارت سفينتنا واتجهت إلى الجهة اليمنى من ناقلة النفط، وسرعان ما أوقف عبادوه محرك السفينة بأمر من الربان إبراهيم زمزم.

قلت للربان: «لماذا توقفت؟».

قال: «لأضبط المجرى».

ثم قام الربان إبراهيم زمزم وأحضر بوصـلة كبيرة، وأخذ يديرها على ضوء الفنر الذي أنزله من السارية، وهو يتمتم بكلمات حتى توصل إلى أمر ما، ثم قال: «خلاص..هذا المجرى».

سألت إبراهيم: «أما كان الأجدر أن نترك الناقلة تمر ونواصل سيرنا من بعدها؟».

قال: «سنكون رحنا في داهية!».

قلت: «لماذا؟».

قال: «إن خلف الناقلة، وهي بهذه السرعة العالية، موجة عالية يُحْدِثها جسم الناقلة وهو يشق البحر، ستطوي سفينتنا وتنزل

بها إلى أعماق البحر».

استمرت سفينتنا في سيرها حتى إذا ما أُوقفت حركتها، قام عبادوه برمي المرساة.

قلت: «ونحن في عرض البحر!».

قال: «نحن أمام لنجة».

رُميت المرساة..وانتظرت حتى أرى لنجة كيف تبدو. صوت الأذان يأتي من بعيد..الله أكبر.. وصياح الديكة يتوالى..وأصوات خافتة تتردد.. ومبانٍ داكنة على الشاطئ الممتد شمالاً وجنوباً..أخذت تتحول إلى اللون الذهبي بطلوع الفجر من خلفنا، وببزوغ الشمس وارتفاعها أصبحت البيوت بيضاء ناصعة بمكونات تراثية جميلة، بناها أجدادي في القرون الماضية.

عندما نزلنا على الشاطئ، وجدنا أحمد بن عبدالله السعدي في استقبالنا إذ إنه تلقى برقية توصية من والدي، فأنزلنا في بيت الضيافة التابع لعائلة الرئيس السعدي. لم تكن هناك فنادق في لنجة في تلك الأيام، والرئيس السعدي لديه علاقات واسعة وزوار كثيرون، فهو وكيل للعديد من السفن التجارية.

الطريق إلى شيراز

كانت عائلة الرئيس السعدي كريمة ضيّفتنا عدة أيام عندما أُلغيت الرحلة الجوية بين لنجة وشيراز، والتي كانت ستقلنا إلى هناك، مما اضطرنا إلى أن نستأجر سيارة لتنقلنا إلى شيراز.

حصلنا على رسالة من حاكم لنجة بعد أن زرناه في مكتبه،

يوصي فيها جميع المراكز، المقامة على الطريق لضبط عملية التهريب، بتسهيل مرورنا.

ركبنا السيارة، والتي مقدمتها مغطاة، أما الجزء الخلفي فقد كان مكشوفاً، ملأه أخ الدكتور جعفر بصندوقين كبيرين من المواد المهربة، دون أن يدفع جمارك عنها في لنجة، وحقائب ملابسنا؛ وغطاها بالبُسط والسجاد. صاحب السيارة وسائقها في الوقت نفسه هو (مرزوق) الذي كان يعمل مساعد ميكانيكي لدى يوسف الدوخي والد زميلنا يعقوب يوسف الدوخي في محل تصليح السيارات بالشارقة.

خرجنا من لنجة عصراً متجهين إلى الغرب، وابتعدنا عن الساحل لنقترب من الجبال بعد أن مررنا بقريتي رأس بستانة وشناص من على بعد، ونحن في سهل به أشجار وشجيرات..وإذا بجنود يعترضون طريق السيارة، ورجل ضئيل الجسم كان لابساً فانلة وبنطالاً عسكرياً يظهر من طريقة أوامره أنه ضابط يخرج من بين الأشجار، آمراً بالتفتيش. هنا يتدخل أخ الدكتور جعفر قائلاً: «لدينا رسالة من حاكم لنجة بعدم التفتيش».

الضابط: «أوامر حاكم لنجة في لنجة وليس هنا».

كشف الضابط البساط الذي كنا نجلس عليه فوجد حقائبنا، ففتح إحداها ثم أخذ ينبشها ويفتشها بيدٍ متسخة، وبالأخرى يمسك برسالة حاكم لنجة.

قال أخ الدكتور جعفر: «أنا ضابط في الداخلية من شيراز».

الضابط: «هيئتك لا تدل على أنك ضابط، أعطني قلماً».

أخ الدكتور جعفر، وهو يعطيه القلم: «لا توسخ القلم».

الضابط، بعد أن شاط به الغضب، ينادي: «جنود!!».

وإذا بالجنود يخرجون من بين الأشجار ويحيطون بالسيارة، بينما هو يهرول إلى خيمة قريبة.

يقول الرجل العجوز، الذي طلب منا أن نوصله إلى قريته ونحن في طريقنا إلى شيراز:

«إن الضابط قد شاهد صندوقاً كبيراً تحت البساط».

أتى الضابط مسرعاً، بعد أن ارتدى بدلته العسكرية، وهو يقول:

«سآخذكم إلى لنجة».

وبينما هو يهمّ بالصعود إلى السيارة، أمسكت به وربتّ على صدره، وإذا بيد كالهراوة تنزل على يدي من أحد العساكر، وحربة بندقيته في خاصرتي، وشتائم متلاحقة وتوبيخ:

«أتجرؤ على أن تضع يدك على صدر الضابط؟!».

رفعت كلتا يديّ مستسلماً، وإذا بأخ الدكتور جعفر يقفز من السيارة ويمسك بالضابط وينتحي به جانباً.. كنا نظن أن العراك سيبدأ بينهما؛ لكن أخ الدكتور جعفر قام بفتح حقيبة كانت بيده وأخرج منها أوراقاً وأراها للضابط. بعدها رجع الضابط مسرعاً وخبط برجله على الأرض، ورفع يده تحية ثم ركع، وهو يردد:

«معذرة أيها الشيخ، إني آسف لما بدر مني».

ثم التفت إلى جنوده وصاح بهم أن يصطفوا، ثم صاح ثانية بأن يؤدوا التحية.

وبينما الجنود يرفعون بنادقهم تحية، وهو يرفع يده بالتحية كذلك،

أخذت أصعد إلى السيارة في الجزء الخلفي.. وإذا بتريم بن عمران يقـول:

«لا تركب في الخلف..اركب بجانب السائق مرزوق».

قلت له: «إن المكان في مقدمة السيارة حار جداً».

تريم بن عمران: «اجلس مؤقتاً..وجاهة. وبعد تحرك السيارة تعال إلى الخلف».

جلست بجانب السائق مرزوق، ورأسي ويدي اليمنى خارج السيارة ألوّح بها تحية للضابط الذي أخذ يتوارى في الغبار الذي أثارته عجلات السيارة.

كانت السيارة تجتاز سلسلة الجبال وهي تتمايل لوعورة الطريق، حتى إذا ما خيم الظلام لم يبق في دنيانا إلا سيارتنا وبقعة مضيئة لعدة أمتار أمامنا.

توقفت السيارة فجأة بعد أن اجتازت سهلاً مستوياً، فأخذ مرزوق ينادي:

«انزلوا هذه «مغوه»، هذه بلادي!».

نزل مَنْ نزل لقضاء حاجته، وفرش آخرون البسط على الأرض. غاب مرزوق لبرهة، وإذا به يعود بالطعام والماء.

بعد أن تناولنا عشاءنا، طلبت من مرزوق أن يأخذني لمشاهدة قلعة الشيخ سلطان بن أحمد المرزوقي شيخ «مغوه».

كان بيت الشيخ سلطان المرزوقي كبيراً، ومكوّناً من طابقين وعدد من النوافذ والتي كانت تطل من الدور العلوي على الساحات الخالية من المساكن حوله. أما مدخله فكان يفتح في سقيفة على جانبيها

مجالس.

ركبنا السيارة، و ما إن تحركت بنا حتى غطّ كل واحدٍ منّا في نومٍ عميق، من شدة الإعياء.

انتبهت على نداء مرزوق، وهو يقول:

«هذه بلدة كوخرد».

فتحت عيني لأشاهد جدراناً من لبنٍ عن يميني وعن شمالي، والسيارة تقطع طرقات تلك البلدة.

وانتبهنا ثانية على نداء مرزوق:

«انزلوا هذه بلدة «بستك».. ستنامون هنا».

فرشنا البسط على الأرض، ونحن لا نعلم أي شيء عما حولنا.. عندما لسعتني الشمس بضوئها، نتبهت، وأخذت أجول ببصري:

هذا دكان..وأمامه رجل يخبز.

وذاك مبنى متهدمة أجزاء منه.

وهذا..وجه مستدير كالقمر، يطل من شرفة في الدور العلوي..في بيت تظهر عليه آثار النعمة.

دفعنا لصاحب الدكان قيمة إفطارنا والذي كان: خبزاً وبيضاً مقلياً.. ولكن بقيت يده ممدودة.

قلنا: «ماذا؟».

قال: «ادفع! رسم مبيتكم على قارعة الطريق! إنه ليس لي.. هو رسم البلدية».

ركبنا سيارتنا.. وتحركت..ولا يزال الوجه المستدير كالقمر يطل من الشرفة.. حركت يدي مودعاً، فحركت يدها مودعة.

كانت الشمس في كبد السماء عندما مررنا ببلدة يقال لها «هرمود»، تبعد عن الطريق مسافة مئتي متر، وفي منخفض عنه، فتوقفت سيارتنا عند دكان على ذاك الطريق اشترينا منه خبزاً ولبناً رائباً. كان ذلك الدكان كالفرن في حرارته، فأخذت آكل الخبز المبلل باللبن الرائب في الشمس الحارقة. عندها وصل شاب من بلدة هرمود، عرفني، فدعاني إلى بيته، فاعتذرت.. فركض إلى بلدته، وإذا به يعود بتيس حي يقدمه لي.. اعتذرت وشكرته على كرمه.

تحركت سيارتنا متجهة إلى بلدة «لار»، بينما الشاب الهرمودي لا يزال حاملاً تيسه بين يديه..

في عصر ذلك اليوم وصلنا إلى موقف السيارات في بلدة لار، وسألنا عن بيت أنساب الرئيس السعدي، فدلونا على البيت.. وكان نسيبهم ويدعى يوسف البلوكي في انتظارنا، حيث قال، بعد أن حيّانا:

«البرقية التي وصلتني من لنجة تقول إنكم ستصلون ظهر هذا اليوم، وقد تأخرتم».

أدخلنا يوسف البلوكي إلى دار الضيافة التابعة للرئيس السعدي، حيث كان المجلس بارداً من جهاز التكييف الذي كان ينفخ فيه طوال النهار، وبه مساند قطنية حول الجدران، ومرتبات للجلوس عليها. كنا نجلس على تلك المرتبات ونستند إلى المساند، لكن النوم غلب علينا فتمددنا على المرتبات، حتى إذا ما مددت رجلي وإذا بها تركل أطباقاً مصفوفة بالقرب مني، فانتبهت لأرى أرضية ذلك المجلس مفروشة بأنواع المأكولات من لحوم وحلويات وفواكه.

نبهت زملائي، وخرجت أبحث عن يوسف، وإذا به قد حضر، وهو

يقول:

«هذا غداؤكم..تفضلوا..».

تناولنا غداءنا وشربنا الشاي ومن ثم ودعناه.

أخذ زملائي يركبون السيارة، وأنا واقف أشكره. وإذا بتلك السيدة الطويلة القامة تشوح بيدها في مشيتها، وهي قادمة إلينا لتقول:

«وصلت سيارة إلى موقف السيارات، يسأل مَنْ بها عن بيتكم. مَنْ هم هؤلاء؟».

يوسف: «هؤلاء أبناء شيوخ الشارقة، ضيوف الرئيس السعدي.. وها هم أمامك».

السيدة طويلة القامة: «إنه لخبر جديد!».

وأضافت قائلة: «وإليك بقية الأخبار، فلان رزق بمولود. وعلان باع بخمسين ألف..إلخ».

تركتنا وانصرفت.

قلت له: «مَنْ هذه؟».

قال: «هذه تسمى (علم دار) وهي الصحيفة اليومية لبلدة لار».

تحركت سيارتنا من لار، قبل غروب شمس ذلك اليوم.

وبعد عدة ساعات من سيرها في الجبال ليلاً توقفت أمام مجموعة من الضباط كانت تقوم بالبحث عن المهربات في مركز للبحث عن المهربات. نزل أخ الدكتور جعفر وبيده شنطة يده، واتجه نحو المفتشين، فتبعته لأعرف ماذا يقول لهم ليسهلوا مرورنا من خلال تلك المراكز.

أخ الدكتور جعفر، وهو يخاطب الضباط:

«هؤلاء السادة.. أبناء شيوخ الشارقة.. ضيوف الحكومة».

ويخرج أخ الدكتور جعفر لهم رسالة والدي للواء رحماني.

بعد أن قرأوا الرسالة، أدوا التحية لنا، ونحن نمر بسيارتنا من أمامهم.

بعد أن اجتزنا مركز التفتيش، توقفت السيارة أمام دكان على قارعة الطريق، فاشترينا بعض المأكولات ورجعنا إلى السيارة، لكن مرزوق ومساعده لم يرجعا.. فغلب علينا النوم.

انتبهت. وإذا بالسيارة تتمايل، ونظرت إلى الجهة الأخرى من السيارة، وإذا بي أرى النور المنبعث من الدكان، وقد بات في وادٍ سحيق.. إذن نحن على قمم الجبال.. والطريق ضيق ومتعرج.. فنظرت من خلال لوح الزجاج، والمطل على مقدمة السيارة، وإذا بمرزوق ومساعده يشربان الخمر من زجاجة يتبادلان على شرب ما بها.. وإذا بهما سكرانان. أخذت أضرب بكلتا يدي على سقف مقدمة السيارة.. توقفت السيارة.. فترجلت، وفتحت باب السيارة جهة مرزوق.. وطلبت منه أن ينزل من السيارة.. وانتزعت مفتاح تشغيل السيارة.. وأمرته أن ينام حتى الصباح.. واحتفظت بالمفتاح معي حتى الصباح.

في الصباح شاهدنا أن ما تبقى بين الوادي العميق والسيارة يسمح بمرور شخص واحد!!

تحركت سيارتنا نازلة إلى وادٍ آخر، ثم صاعدة جبلاً آخر، وهكذا كان الطريق ضيقاً، وزواياه حادة لدرجة أننا ننزل جميعاً من السيارة عند كل منحنى.. وتجتاز السيارة المنحنى بعد حركات للأمام وإلى الخلف.. ونحن واقفون على استعداد خلف السيارة بأحجار كبيرة نضعها خلف عجلاتها حتى لا تنزلق، ونحن ننادي:

«خلف .. خلف .. خلف ..».

ندحرج الصخور خلف العجلات، ونحن ننادي:

«قف .. قف .. قف ..».

وصلنا ظهراً إلى بلدة تسمى "جهرم"، هواؤها عليل، وحدائقها غنّاء، تتوسطها حديقة عامة، بها أشجار كبيرة معمرة، تحتها مطعم في الهواء الطلق، قدّم لنا أشهى اللحوم المشوية وألذ المأكولات.

سئل شخص مرة: «من أمهر الطهاة؟».

قال: «الجوع!».

بين «جهرم» و«شيراز» منطقة يقال لها: (علي أباد)، تزرع الشمام والبطيخ، ويُباع منه على الطريق العام بكثرة.

في بداية الليل، أُوقفت سيارتنا على مشارف مدينة شيراز من قبل مركز التفتيش، وأنزلنا جميعاً من السيارة ما عدا صبيًا ركب معنا من جهرم، ووضعت الحراسة على السيارة. انتبه الصبي، وأراد أن يتبول فمنعوه. أما نحن فقد أُدخلنا إلى غرفة بمركز التفتيش، وقام أخ الدكتور جعفر بالاتصال بخاله مدير أمن شيراز، والذي أمر أن تُرسل السيارة إلى مديرية أمن شيراز مع الحراسة بمن فيها.

تحركت سيارتنا من أمام باب مركز التفتيش تاركة بقعة مبلولة تحت السيارة من فعل الصبي.

في شوارع شيراز تمضي سيارتنا وبها أربعة عساكر وقوفاً، يصوبون فوهات رشاشاتهم إلينا، ونحن متكورون بعضنا على بعض.. وكلما توقفت السيارة عند منحنى أو إشارة، التم الناس علينا للفرجة..

في مديرية أمن شيراز استقبلنا خال الدكتور جعفر، وسمح لنا

بالدخول لمدينة شيراز بحمولة السيارة.

أنزلنا أخ الدكتور جعفر أمام باب فندق متواضع، واختفى هو مع صناديقه المهربة.

أمضينا في شيراز ثلاثة أيام، زرنا معالم المدينة، وكذلك منطقة «تخت جمشيد» والتي تبعد أكثر من ستين كيلومتراً عن شيراز، بها أطلال عاصمة الأخمينيين، يقال لها «برسيبوليس» في القرن الخامس قبل الميلاد.. وهي عبارة عن أعمدة طويلة ومبنى منحوت في صخور البازلت، حيث توجد جدارية منحوت عليها:

«ملك الأخمينيين وشعوب الأرض تقدم له الهدايا». فسألت نفسي: «هل نحن من ضمن تلك الشعوب في فجر التاريخ؟». تتبعت تلك اللوحة، وإذا بي أشاهد عربياً يقود بعيراً.

مدينة طهران

في اليوم الرابع استأجرنا حافلة لتنقلنا من شيراز إلى طهران.. وفي الطريق زرنا أصفهان لتناول الغداء في مطعم على ضفة نهر أصفهان بالقرب من الجسر القديم والذي يقدّر عمره بأربعمئة سنة والمكوّن من ثلاثة وثلاثين جسراً، وقد سُمي بذلك.

في طهران نزلنا في فندق يطل على ميدان البرلمان. وفي اليوم التالي زرنا السيد شاهيني، وهو إيراني الجنسية يتحدث العربية بطلاقة، كان صديقاً للسيد إبراهيم المدفع وزير الشيخ صقر بن سلطان القاسمي حاكم الشارقة. قام السيد شاهيني ورتب لنا لقاءً مع اللواء رحماني، والذي سلمته رسالة والدي.

كان السيد شاهيني يزورنا كل يوم، ويدور الجدال بينه وبين تريم بن عمران.

تريم بن عمران، المتعصب في حبه لجمال عبدالناصر، والسيد شاهيني، المتعصب في حبه لشاه إيران.

قمنا مرة بزيارة مرصد طهران، وعندما زارنا السيد شاهيني، سألنا:

«هل زرتم مرصد طهران؟».

فيرد تريم بن عمران عليه قائلاً: «في زمانه..مرصد حلوان!».

السيد شاهيني، يميل عليَّ متسائلاً: «أين مرصد حلوان؟».

أجبته: «في مصر!».

السيد شاهيني: «أنا ظننت كذلك!».

وبعد خطاب الشاه للأمة، أتى إلينا السيد شاهيني متسائلاً:

«هل سمعتم خطاب الشاه؟».

رد تريم بن عمران:

«في زمانه خطاب عبدالناصر! خطاب الشاه أربع كلمات.. وخطاب عبدالناصر أربع ساعات».

السيد شاهيني: «كلام الملوك.. ملوك الكلام».

كان السيد شاهيني بخيلاً جداً.. دعانا مرة على تناول طعام الغداء في مطعم خارج مدينة طهران، وكانت قيمة فاتورة الغداء مرتفعة جداً، دفعناها من موازنة الرحلة التي بدأت تنضب. في مساء اليوم التالي أتى السيد شاهيني، وأخبرنا بأنه حجز لنا مكاناً للعشاء في أرقى مطاعم طهران. وهنا اعترض محمد الشامسي، حامل الموازنة، قائلاً:

«سلطان وأنا لا نستطيع الذهاب معك، لأننا سنذهب إلى السينما».

قال تريم بن عمران: «سلطان ومحمد سيذهبان للسينما،وأنا وأخي عبدالله ويعقوب سنذهب معك».

بعد تلك الوليمة الدسمة، رجع تريم وعبدالله ويعقوب، وحكوا لنا ما حدث:

يقول تريم: «طلبنا أغلى المأكولات.. حتى إذا حان وقت دفع الفاتورة قلت سأذهب إلى الحمام. ومن هناك أخذت ألوّح بيدي إلى عبدالله ليأتي إليّ، حيث كان نظر السيد شاهيني ضعيفاً.. حضر عبدالله.. واستمررت ألوّح بيدي إلى يعقوب، حتى حضر. وانتظرنا طويلاً، ونحن ننظر إلى السيد شاهيني خلسة من ناحية الحمامات وهو يتلفت علّه يشاهد أحدنا من خلال نظارة نظره الغليظة. خلا المطعم من الزبائن، وبدأ أصحاب المطعم يترددون على السيد شاهيني، حتى قام بدفع الفاتورة».

يقول تريم: «بعد أن رجعت مع عبدالله ويعقوب إلى الطاولة، أخذت أصفق بيدي قائلاً: «الحساب!».

السيد شاهيني: «عملتوها!».

طلب اللواء رحماني مقابلتنا، حتى إذا حضر إلى الفندق عرض علينا أن نرجع إلى الشارقة على متن الطائرة التي سترحل إلى الشارقة لإحضار شيخ أم القيوين إلى طهران بدعوة من شاه إيران.

قال تريم:

«إن سلطان يريد أن يركب القطار..وقد قررنا أن نذهب بالقطار إلى خرمشهر ومن هناك بمركب خطوط الملاحة الهندية البريطانية إلى الشارقة، وسلطان يحب أن يركب القطار».

قال اللواء رحماني: «نحن سنرتب لكم رحلة بالقطار إلى بحر قزوين، وهناك بضعة أيام حتى رحيل الطائرة إلى الشارقة».

بحر قزوين

بعد يوم من المقابلة، وصلت إلى الفندق في الصباح الباكر سيارتان لتنقلانا إلى محطة القطار.. وكان مع السيارتين شاب إيراني قال بأن اسمه «لبّاف»، وهو المترجم لنا في تلك الرحلة.

ركبنا القطار.. و ما إن تحرك حتى فوجئنا بأن المسؤول عن القطار يقف أمامنا، ويصرخ: «سلطان...تريم!».

وأخذ يقبّلنا.. إنه ضيف والدي الذي كان في الشارقة قبل بضعة أسابيع، عندما دعاه والدي هو وزوجته الممرضة الخاصة لوالدي عندما كان يتعالج في طهران. قام ذاك المسؤول عن القطار مع كل العاملين بالقطار بتقديم الخدمات لنا بصورة خاصة.

كانت الرحلة نهار يوم كامل، استمتع كل منا بالمناظر الخلابة ما عدا تريم حيث بقي في الكبينة يجادل المترجم لبّاف حول سياسة شاه إيران.

وصلنا آخر محطة للقطار «بندر بهلوي» على بحر قزوين.

كانت تلك البلدة تسمى «انزلي» قبل أن يُبنَى فيها الميناء. كانت هناك سيارة من نوع «لاندروفر» في انتظارنا. نقلتنا على طريق ساحلي يتجه غرباً إلى مدينة تسمى «جالوس» على شاطئ بحر قزوين، حيث بتنا ليلة في فندق مكوّن من عدة طوابق؛ وفي الصباح شاهدنا السماء ملبدة بالغيوم القريبة من سطح الأرض ويتساقط منها رذاذ خفيف،

فركبنا السيارة متجهين غرباً على الطريق الساحلي إلى مصيف مشهور يسمى «رام سر»، فوصلناه ظهراً، حيث نزلنا في فيلا تابعة للفندق المبني على المرتفعات التي تبعد عن البحر بمقدار ثلاثة كيلومترات.

في اليوم الثاني ذهبنا بالسيارة إلى شاطئ البحر بطريق منسق، يمتد من بوابة الفندق في المرتفعات إلى بوابة استراحة على شاطئ البحر حيث يوجد بها مكان للقمار، لا يقطع ذلك الطريق إلا تمثال لشاه إيران في منتصف المسافة. ثم تابعنا سيرنا إلى حقول الشاي والمصنع المقام هناك لتجفيف الشاي وتعبئته.

في اليوم الثالث، ركبنا السيارة واتجهنا غرباً على الطريق الساحلي ومن ثم إلى المناطق الداخلية، حيث كنا نمر على حقول الأرز ورائحة أزهاره تشبه رائحة غلي الأرز وقت الطبخ.

كان سائق السيارة يسأل في كل مرة عن المسافة إلى «رشت»، ويأتيه الجواب من المزارعين في الحقول: خمسة عشر فرسخاً.. عشرة فراسخ.. خمسة فراسخ.

وصلنا إلى مدينة رشت، وإذا شوارعها مزروعة بأشجار البرتقال والتي كانت وقتها مثمرة.

غادرنا مدينة رشت بعد أن تناولنا غداءنا هناك، متجهين إلى الشمال الغربي إلى مدينة على شاطئ بحر قزوين تسمى «آستارا»، على الحدود الإيرانية الروسية، حيث يفصلها جدول ينزل من المرتفعات إلى البحر، وقد رُكبت مكبرات الصوت على ضفتي الجدول:

مجموعة من جهة روسيا، تسب نظام الشاه.

ومجموعة من جهة إيران تسب النظام السوفييتي.

ثم عدنا إلى «رام سر».

في اليوم الرابع رجعنا إلى طهران بالسيارة التي كانت معنا، وعن طريق «كَرَج».

في أواخر شهر أغسطس سنة ١٩٥٩م، رجعنا إلى الشارقة على متن الطائرة الإيرانية التي كانت ستنقل الشيخ أحمد بن راشد المعلا إلى طهران تلبية لدعوة الحكومة الإيرانية لشيوخ الساحل، حيث سبقه عدد من الشيوخ في زيارة لطهران. الشيخ أحمد بن راشد المعلا لم يركب تلك الطائرة حيث تعلل بمرضه.

فتح مكتب لإسرائيل في طهران

في بداية شهر سبتمبر سنة ١٩٥٩م قامت الحكومة الإيرانية بالإعلان عن فتح مكتب لإسرائيل في طهران. خرجت المظاهرات في البحرين احتجاجاً على ذلك الإعلان. وفي الشارقة خرجت المظاهرة صباح يوم الخامس من سبتمبر سنة ١٩٥٩م؛ قدتها أنا وتريم بن عمران؛ واتَّجَهَتْ إلى مطار الشارقة للاحتجاج على حكومة الشاه حيث ستصل الطائرة الإيرانية والتي ستنقل أحد الشيوخ إلى طهران. ما إن وصلت الطائرة الإيرانية وفُتح بابها وإذا باللواء رحماني يطلّ من بابها ملوّحاً بكلتا يديه محيياً تلك الحشود، ظناً منه أنها أتت لتحييه بقيادة سلطان القاسمي وتريم بن عمران اللذين اعتنى بهما في طهران، وهو ينادي:

«سلطان..تريم..!!».

ورجال الأمن يدفعونه إلى داخل الطائرة، وهو يقاومهم قائلاً:

«إنهم أصدقائي، أتوا ليحيوّني».

الفصل التاسع

حزب البعث

في شهر سبتمبر سنة ١٩٥٩م قمت بافتتاح النادي الثقافي بالشارقة والذي مضى على إغلاقه مدة أربع سنوات. كان ذاك النادي قد أسس على يد مجموعة من شباب الشارقة في سنة ١٩٥٢م، وكان مجلس الإدارة مكوناً من:

١- الشيخ خالد بن سلطان القاسمي
٢- الشيخ محمد بن سلطان القاسمي
٣- الشيخ حمد بن ماجد القاسمي
٤- الشيخ صقر بن راشد القاسمي
٥- السيد عبدالله بن جمعة المطوع
٦- السيد إبراهيم بن عبيد الشاعر.

وقد أُغلق النادي في سنة ١٩٥٤م لرحيل الشيخ خالد بن سلطان القاسمي للسعودية، وتعيين الشيخ محمد بن سلطان القاسمي نائباً للحاكم في المنطقة الشرقية، ومقره في خورفكان.

كان نشاط ذلك النادي ثقافياً فقط في الفترة السابقة، أما بافتتاحي إياه ثانية فلقد اتخذته مقراً لفريق كرة القدم التابع لوزارة الأشغال البريطانية في الشارقة، والذي كنت أحد أفراده، بعد أن تسلّمت رئاسة ذلك الفريق.

أخذ الناس يترددون على ذلك النادي لاتخاذه كملتقى، أو للعب الدومينو أو الورق. كان من ضمن المترددين على النادي، من المدرسين، مدرس يدعى «طلال شرارة»، من بعثة قطر للتدريس في المدرسة القاسمية.

توطدت بيني وبينه صداقة، قائمة على مفهوم القومية العربية. وذات يوم أعطاني كتاباً بعنوان « في سبيل البعث» لميشيل عفلق، يحتاج إلى عدة أيام لقراءته لكثرة عدد أوراقه.

وما إن انتهيت من قراءته حتى سألني: «كيف رأيت الكتاب؟»

فأجبت: «كتاب جيد، لو أن كل هذه الأفكار تتحقق!».

أخذ طلال شرارة، وعلى مدى شهر كامل، يحدثني عن فكرة أن لو كان هناك تنظيم في كل بلد عربي حتى إذا ما وصل إلى السلطة يندمج في وحدة مع من سبقوه من الأقطار العربية وبذلك تتوحد الأمة العربية.

وقد كشف لي ذات يوم بأن التنظيم هو «حزب البعث»، وكان في تلك الأيام قد ضرب أطنابه في الوطن العربي، وطلب مني أن أنضم إلى ذلك الحزب.

وفي يوم من تلك الأيام، أخبرني طلال شرارة بأنه سيسجل انضمامي إلى حزب البعث، فأخذني إلى منزله، وهناك قال لي:

«لابد من القسم، ونحن اثنان، لابد من ثالث، انتظر..سآتيك بثالث».

خرج طلال من الغرفة التي كنت بها، ثم عاد، وإذا به يصطحب تريم بن عمران معه.

بهت كل منا.. ومرت لحظة صمت.

لقد سبقني.. وهو يظن كذلك أنني سبقته.

كسر ذاك الصمت طلال شرارة بقوله:

«ليقسم سلطان، ويشهد عليه تريم..ومن ثَمَّ يقسم تريم، ويشهد عليه سلطان».

عندها مددت يدي لأصافحه.

مرت الأيام الأخيرة من سنة ١٩٥٩م، وأتت سنة ١٩٦٠م، ونحن نعب من الأفكار القومية والتثقيف الوحدوي من خلال نشرات وكتب كان طلال شرارة يزوّدنا بها.

كشف إحدى خلايا البعث

في شهر إبريل سنة ١٩٦٠م، أتاني طلال شرارة منزعجاً من الأمر الذي أتاه من دائرة المعارف بقطر بإنهاء خدماته بنهاية ذاك الفصل الدراسي. وأخبرني بأنه يحاول أن يسافر إلى قطر ليستفسر عن الموضوع بنفسه، لكنه كان خائفاً من أن يُحجز في قطر إن هو سافر بجواز سفره اللبناني.

قلت له بأنني أستطيع أن أستخرج له جواز سفر مؤقتاً من حكومة الشارقة، وقد كان.

أخذت طلال شرارة إلى مطار الشارقة. ثم عاد من قطر بعد غروب شمس اليوم الثاني، حسب حجز التذكرة، حيث استقبلته ونقلته بسيارتي إلى النادي الثقافي بالشارقة.

وفي الطريق روى لي طلال شرارة ما علمه من أصحابه في دائرة المعارف بقطر من أن عبد ربه صقر رئيس بعثة قطر التعليمية في الشارقة قد كتب حوله تقريراً من أنه كوّن خلية لحزب البعث من المدرسين، وأنه أي عبد ربه صقر اندس بينهم ليكشف نشاط طلال شرارة الحزبي وبقية المدرسين التابعين لبعثة قطر التعليمية والذين نالهم ما نال طلال شرارة من إنهاء التعاقد معهم.

ما إن وصلت السيارة إلى النادي الثقافي بالشارقة حتى خرج منها طلال شرارة غاضباً ومندفعاً نحو عبد ربه صقر الذي كان يجلس بجوار تريم بن عمران في ذاك النادي المزدحم.

أمسكت به وطلبت منه أن يجلس بالسيارة، وأُحضر له تريم بن عمران و عبد ربه صقر لنأخذهما إلى بيته، وهناك بالإمكان الاستفسار عن الموضوع من قِبل عبد ربه صقر.

أحضرت تريم و عبد ربه صقر إلى السيارة، وانتقلنا جميعاً إلى بيت طلال شرارة. ما إن دخلنا إلى حوش بيت طلال شرارة، حتى انهال طلال شرارة ضرباً بحذائه على عبد ربه صقر.

تدخلت مع تريم، فانفك العراك، لكن الشتائم بقيت مدوية في ذاك الحوش.

استفسرت من عبد ربه صقر إن كان هو الذي كشف خلية

المدرسين، فأنكر أن يكون هو.

قلت له: «بماذا تفسر أن يأتي الاستغناء عن جميع أعضاء خلية المدرسين ما عداك أنت؟».

تلعثم عبد ربه صقر ولم يستطع الإجابة. عندها قام طلال شرارة بطرده من بيته.

بنهاية العام الدراسي، وهو نهاية مايو سنة ١٩٦٠م، رحل المدرسون، وبقي من لا يستطيع السفر لأن لديهم عقوداً محلية. وممن ارتحلوا طلال شرارة، والذي أخبرني بأنه سيسوي أموره في قطر ويرحل إلى لبنان. زودني طلال بعنوانه في لبنان وشيفرة المراسلة عن طريق صاحب دكان الحلاقة المقابل للمحكمة الشرعية في الدوحة.

وممن ارتحل من المدرسين إلى قطر عبد ربه صقر؛ فأتتني الأخبار عن طريق المصادر البعثية أن عبد ربه صقر سيبقى في قطر، ولن يذهب إلى غزة في فلسطين، لأنه كان خائفاً من أن يُغتال هناك.

وبعد عدة أيام أتتني الأخبار من نفس المصدر أن سيارة نقل دهست عبد ربه صقر على رصيف من أرصفة شوارع مدينة الدوحة، فانتابني بعض الشك.

بعد إتمام الدراسة في الصف الثاني الثانوي بالمدرسة القاسمية، تقرر أن نستكمل دراستنا في الفصل الثالث والرابع الثانوي في ثانوية الشويخ بالكويت.

منذ أن بدأت الدراسة في المدرسة القاسمية وحتى الانتقال إلى الكويت كان ترتيبي الأول في الصف. اشتركت في جميع الأنشطة

الطلابية، فكنت الرقيب الأول على فرقتي الكشافة، ورئيس فريق كـرة القـدم في الـمدرسـة. واشتركت في المهرجانات الرياضية بست مسابقات في كل مهرجان، فكنت الأول في سباق ١٠٠م، والثاني في سباق ٤٠٠م، والثاني في سباق ٨٠٠م، والثاني في القفز العالي، والأول في القفز العريض، والأول في الموانع.

وفي الأنشطة الثقافية كنت أصدر مجلة الحائط «التقدم» باللغة العربية، وأخرى باللغة الإنجليزية «Progress»، وكنت أكتب جميع مقالاتهما بنفسي.

وفي الأنشطة الفنية كان لي في كل معرض سنوي لوحة فنية و«مجسّم»، ففي مرة كان عن وسائل الري، وفي أخرى كان عن عمليات إنتاج البترول. كما كنت أقوم برسم جميع وسائل الإيضاح لجميع الصفوف من الابتدائي إلى الثانوي.

ثانوية الشويخ

في بداية العام الدراسي ١٩٦٠-١٩٦١م، وفي بداية شهر سبتمبر سنة ١٩٦٠م، وبعد أن علمت عن مقرنا في ثانوية الشويخ بالكويت، حيث كانت دراسة الصف الثالث الثانوي تتم في الكويت، وكان مقرنا في المنزل رقم ١٢، بعثت بتلك المعلومات إلى الدوحة، مضـــافاً إليها أنه قد انضـم إلينـا رفيق جديد وهو الطـالـب عبـدالله بن سـالـم العمـراني، وكـان معنـا في نفـس الصـف.

رحلنا إلى الكويت، وارتحلت الخلية البعثية المكونة من الطالب سلطان بن محمد القاسمي رئيس الخلية، والطالب الرفيق تريم

بن عمران بن تريم، والطالب الرفيق عبدالله بن سالم العمراني إلى الكويت.

وفي مساء يوم، بعد وصولنا إلى الكويت، وفي المنزل رقم١٢، زارنا شخص يدعى محمد الرملاوي، ومعه شخصان آخران، أخذ يسأل عن عبدالله بن محمد القاسمي، فقلت له:

«أنا سلطان بن محمد القاسمي».

قال: «نريد أخاك».

فقلت له: «أخي ليس هنا».

ثم سأل عن سلطان بن سالم العمراني.

فقلت له: «إن اسمه عبدالله بن سالم العمراني».

ثم طلب تريم بن عمران.

فأحضرت له تريم... فانتحى به جانباً.

وبعد أن تحدث معه رجعا إلينا، حيث قال له تريم:

«هذا سلطان بن محمد القاسمي، وهذا عبدالله بن سالم العمراني».

قال محمد الرملاوي:

«أنا من طرف حزب البعث، حضرت لأرتّب أموركم في الكويت بحيث تصلون إلى الاجتماعات بسلام، ويكون أول اجتماع مساء الخميس القادم».

وفي مساء يوم الخميس، من شهر سبتمبر سنة ١٩٦٠م ركبنا نحن الثلاثة، تريم بن عمران وعبدالله بن سالم العمراني وأنا، سيارة أجرة من أمام بوابة ثانوية الشويخ، حيث كانت سيارات الأجرة ترجع

إلى مدينة الكويت فارغة بعد أن تكون قد أنزلت بعض العمال أو المستخدمين الذين كانوا يسكنون منطقة «عشيرج» وهي بعد الشويخ بعدة أميال.

أنزلتنا سيارة الأجرة في موقف سيارات الأجرة بجانب الصفاة؛ ومن هناك ببضع خطوات دخلنا إلى مقهى حيث شربنا الشاي وانتظرنا قليلاً، ومن ثم ركبنا سيارة أجرة أخرى لتنقلنا إلى سينما حولي الصيفي في منطقة حولي.

جلسنا في مطعم السينما وطلبنا بعض الأكل، حتى إذا فتح شباك التذاكر بالسينما وتقدمت الناس لشراء التذاكر كنا معهم في الطابور، ومبتعدين عن بعضنا بعضاً، فإذا ما وصل الواحد منا قريباً من باب دخول السينما خرج من الطابور واتجه إلى ناحية من السينما، حيث كانت مظلمة تماماً، حيث وجدنا محمد الرملاوي في انتظارنا هناك ليصحبنا، ومن خلال طرقات حولي المظلمة، إلى بيت من دور أرضي. استقبلنا هناك شخص عراقي يدعى محمد سعيد، يقول عن نفسه إنه عائد من البرازيل.

لمدة عدة أسابيع كنا على تلك الطريقة، بين الترقب والخوف، والتخفي والمخادعة، حتى أتى موضوع التجني على جمال عبدالناصر.. وهنا ثار تريم على محمد سعيد، وسأله:

«هل هذا رأيك الشخصي أم رأي القيادة؟!».

فأجاب محمد سعيد: «هذا رأي القيادة».

همّ تريم بالخروج من بيت محمد سعيد، فحاول محمد الرملاوي منعه، لكن بإصراره وبمساندتنا له استطعنا الخروج، والرجوع إلى

مدينة الكويت.

الانسحاب من حزب البعث

اتفقنا نحن الثلاثة على الانسحاب من حزب البعث.فعبدالله بن سالم العمراني ترك الدراسة وسافر إلى الشارقة لورود نبأ وفاة والده.

وكان تريم بن عمران يخرج في مجموعة، من بينهم شقيقه عبدالله وسعيد الشاعر، إلى منطقة الشعيبة بالأحمدي لزيارة أخواله كل يوم خميس وجمعة.

أما أنا فقد كنت أنتظر مرور سيارات الأجرة أمام بوابة ثانوية الشيوخ للذهاب إلى مدينة الكويت مساء كل يوم خميس.

وذات يوم خميس، كنت أنتظر مرور سيارة أجرة، حتى إذا ما تأخرت أخذت أمشي بمحاذاة سور ثانوية الشويخ باتجاه مدينة الكويت، وإذا بسيارة تقف ويترجل منها اثنان، ويطلبان مني أن أتحدث للسيد محمد الرملاوي.

تلفتّ حولي، فكانت المدرسة الصناعية أمامي، وعلى جهة من الطريق، يفصل مبانيها عن الطريق كثرة أشجار الأثل؛ أما خلفي فكانت بيوت المدرسين التابعين للمدرسة الثانوية بالشويخ، وكانت بعيدة عن السور، والطريق خالٍ من مترجل أو راكب سيارة.

ناداني محمد الرملاوي: «سلطان..اركب، سنوصلك».

قلت: «أنا في انتظار أصدقائي».

قال: «اركب..أريد أن أتحدث إليك».

الباب الأمامي مفتوح، وجسمي العلوي قد دخل في السيارة للتحدث مع محمد الرملاوي، وخلفي اثنان من مرافقيه، يريدان أن يغلقا الباب. قررت حسن النية، وركبت السيارة، وفي المقعد الخلفي جلس مرافقاه.

كان الحديث على طول الطريق من الشويخ إلى مدينة الكويت بعيداً عن موضوع البعث، فاستراحت نفسي، حتى إذا ما وصلنا إلى مدينة الكويت، وإذا بالسيارة تنحرف يميناً لتأخذ الطريق الدائري، قلت:

«إلى أين؟».

قال: «محمد سعيد يريد أن يتحدث معك».

عندها أسلمت أمري لله.

وصلنا إلى مدينة حولي، ودخلنا بيت محمد سعيد الذي كان متجهماً، وصب جام غضبه عليّ، وبأنني أنا الذي حرضت تريم وعبدالله ألاّ يحضرا.

اعتذرت عن ذلك، وبررت الأسباب دون أن أدخل في موضوع جمال عبدالناصر، ولكن بدون فائدة.

وهما اثنان مع مرافقين، والليل قد أقبل، وكان خوفي أن أُدفن في حوش البيت حياً.

أقسمت بشرفي، حيث هكذا قسمهم، وهو باطل، بأنني سأحضر واعتباراً من يوم الخميس القادم.

استأذنت بالخروج، وكان محمد الرملاوي يحاول أن يخرج معي، ولكني أقسمت بالله، ألاّ يخرج معي.

ما إن خرجت من بيت محمد سعيد، حتى جريت وبأقصى سرعة حتى لا يلحق بي أحد، وإذا ما وصلت إلى سينما حولي الصيفي استأجرت من فوري سيارة أجرة لتنقلني إلى ثانوية الشويخ.

في الأسبوع التالي، لم أذهب إليهم.

وفي منتصف الأسبوع الذي يليه، ذهبت إلى الكويت لأُصلح حذائي بعد أن استأذنت من الأستاذ هلال، مدير منزل رقم ١٢، فسمح لي.

أما زبانية البعث فهم يعرفون أنه غير مسموح خروج الطلاب طيلة أيام الأسبوع ما عدا مساء يومي الخميس والجمعة.

ركبت سيارة أجرة من أمام بوابة ثانوية الشويخ، فأنزلتني بالقرب من الصفاة. فأخذت أسأل عن الدكان الذي يصلح الأحذية والنعل، فقيل لي بأنه في السوق المتجهة من نهاية سوق الغربللي والمتوجهة ناحية الصالحية.

في سوق الغربللي قابلت محمد الرملاوي بالصدفة وجهاً لوجه، ودار الحديث التالي:

قلت: «السلام عليكم».

قال: «وعليكم السلام..إلى أين؟».

قلت: «أصلح حذائي».

قال: «أذهب معك».

قلت: «لا داعي».

قال: «تركتنا ننتظرك مساء يوم الخميس الفائت ولم تحضر، وقد أقسمت بشرفك بأنك ستحضر».

قلت: «اسمع يا محمد يارملاوي قل لـمحمد سعيد بأنني أرفض أن أكون في هذا التنظيم الذي أخذ يتهكم على الوحدة.. وقد كانت سبب دخولنا للبعث، ويشتم جمال عبدالناصر الذي هو رمز تلك الوحدة. نحن لن نسكت على تلك الإهانات».

قال: «سلطان..والله إنني أعزّك، وأخاف عليك.. هؤلاء أناس...».

قلت: «ماذا؟ والله لأتغدى بكم قبل أن تتعشوا بي. هل ترى هذا العسكري؟ (وكان عسكري مرور) من خلاله أستطيع أن أكشف كل عناصر البعث في الكويت، وكذلك في قطر، وفي الشارقة..أما أنا فلي أهل سيطالبون بي، لكنكم أنتم...».

قاطعني محذراً: «أين عبد ربه صقر.؟!».

وهنا نزل عليّ الخبر كالصاعقة، فقلت: «قتلتوه؟! لعنة الله عليكم!».

قال: «دع كل شيء جانباً، ولنظل أصدقاء».

ودّعته، ولم أكن مصدّقاً ما سمعته.

مساء يوم الخميس من الأسبوع نفسه، ركبت مع أحد الأصدقاء ليأخذني معه إلى الكويت، وطلبت منه أن ينزلني في منطقة المرقاب لأني كنت أنوي أن أصطحب صديقاً لي يدعى راشد بن علي بن ديماس من أهالي الشارقة وممن يعملون بالكويت إلى الدكان الذي يصلح حذائي.

وجدت بيت راشد بن ديماس مقفولاً، فجلست في مقهى يقال له

مقهى الصوماليين قبالة بيت راشد بن ديماس، حتى إذا ما حضر أستطيع مشاهدته.

طال بي الوقت، وقبيل المغرب لمحت شبيهاً لـمحمد الرملاوي بين الزحام في المقهى، فانتابني الخوف، فقلت في نفسي لابد أن أبعد عن هذا المكان، فاتجهت إلى مسجد الشملان في ميدان عبدالله المبارك.

الطريق إلى المسجد فسيح، ورصف بالأسفلت.. وإلى يمين الطريق أرض فضاء قد هُدمت البيوت التي كانت عليها من حي المرقاب؛ فأخذت طريقي في تلك الأرض محاذياً للبيوت التي لم تُهدم.. وإذا بصوت أمامي يناديني:

«حاسب!! حاسب!!».

فالتفت.. وإذا بسيارة مسرعة تحاول أن تجتثني من على الأرض. قفزت إلى بقايا الجدران المهدمة، فمرت السيارة دون أن تلمسني.

قال المصري الذي حذرني: «ليس لها رقم»!

وهنا زاد خوفي.

بعد صلاة المغرب في مسجد الشملان، قابلت راشد بن ديماس، وذهبت معه لإحضار حذائي الذي تم إصلاحه. وعدنا إلى بيته. ونمت تلك الليلة في بيته.

ترك الدراسة بالكويت

صباح يوم الجمعة ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٦٠م ذهبت مع راشد ابن ديماس إلى ثانوية الشويخ، وحزمت حقيبتي، وعدت مع راشد بن

ديماس إلى بيته. ونمت ليلتها هناك.

في صباح يوم السبت ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٦٠م، ذهبت مع راشد بن ديماس إلى دائرة المعارف، وأخذت جواز سفري من هناك، وعدت إلى بيت راشد بن ديماس، وحاولت أن أنام تلك الليلة فلم أستطع، حيث كنت ليلتها أرقب الصباح لأغادر الكويت، فأخذت أدعو ربي قائلاً:

يا إلهي خفف العذابا   وارحم، فالفتى تابا
ماذا جنيت في حياتي   حتى غدا الحلم سرابا
أين عمري وشبابي   لا تسل ضيعت الشبابا
يا إلهي! عفوك عني   لا تلمني أفقدت الصوابا
كم جاهلٍ عنك يلهو   ثم يصحو وإليك المآبا

في صباح يوم الأحد ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٦٠م كنت في مطار الكويت أركب الطائرة المتوجهة إلى الظهران في المملكة العربية السعودية، لأبقى عدة أسابيع في مدينة الخبر، وزيارة أختي علياء وزوجها الشيخ سالم بن سلطان القاسمي المهندس بالسكة الحديد بالدمّام، وأولادهما، ومن ثم أعود إلى الشارقة.

الفصل العاشر

المدرِّس بالمدرسة الصناعية في الشارقة

بعد عـودتي من المملكة العربية السعودية في فبراير سنة ١٩٦١م وجدت ابنَي عمي الشيخ خالد والشيخ محمد ابنَي المرحوم الشيخ سلطان القاسمي قد عادا إلى الشارقة، بعد زوال الخلاف الذي كان بين الشيخ صقر بن سلطان القاسمي حاكم الشارقة وبينهما، وأخذا يمارسان التجارة بعيداً عن مشاكل الحكم.

وذات يوم طلب مني الشيخ محمد بن سلطان القاسمي أن أعمل معه بالتجارة فاعتذرت. وفي اليوم التالي زارني الشيخ خالد بن سلطان القاسمي، عارضاً وظيفة للعمل بمطار الشارقة فاعتذرت. ثم جاء بعد يومين من تلك الزيارة عارضاً وظيفة أخرى عليَّ، وهي مدرس بالمدرسة الصناعية بالشارقة فوافـقـت.

قال : «فلنذهب الآن».

قلت: «الآن؟!».

قـال: «نـعم.. لأن نـاظـر المـدرسة الـسـيد «جـون تيـلـور»

«John Taylor» في انتظارنا!».

أخذني الشيخ خالد بن سلطان القاسمي إلى المدرسة الصناعية بالشارقة، فقابلنا ناظر المدرسة وإذا به رجل دمث الأخلاق.

بعد حديث بيني وبينه بحضور الشيخ خالد، قال السيد «تيلور» للشيخ خالد:

«اترك سلطان معنا، ونحن سنوصله إلى بيته متى شاء».

بعد أن خرج الشيخ خالد قال لي السيد «تيلور»:

«اعتبر نفسك موظفاً الآن، ومن أول الشهر».

قمت بتدريس مادتي اللغة الإنجليزية والرياضيات في تلك المدرسة، وكان السيد "تيلور" يمر كل صباح على الصف ليلقي عليَّ التحية، ويقف مستمعاً لقيامي بشرح الدروس، ويقلّب دفتر التحضير ليطَلع على المادة التي ستُعطى للطلبة، ثم يخرج.

وذات يوم، وهو يقلّب دفتر التحضير، استغرب مما شاهده. الأوراق في ذلك الدفتر كان بعضها ممزقاً، وقد سالت عليها مادة طمست الكتابة!

قال السيد «تيلور»: «ما هذا؟!».

قلت: «لنخرج خارج الصف».

وخارج الصف قلت: «بينما كنت أقفل باب بيتي، وضعت دفتر التحضير على الدكة التي بالقرب من الباب، وإذا بمعزة تخطف دفتر التحضير، فجريت وراءها، ودفتر التحضير بين فكيها، ومن سكة إلى أخرى، حتى البيت الذي أتت منه، وكان بابه مفتوحاً فدخلَت، وأما أنا فوقفت بالباب أنادي على صاحبة البيت:

«أمسكي المعزة».

ويأتي الجواب من صاحبة البيت: «ماذا تريد؟».

المعزة في وسط حوش البيت تنظر إليّ وهي تلوك دفتري وتهزّ رأسها شماتة، فما كان مني إلاّ أن قفزت على المعزة وطرحتها أرضاً، وضغطت على فكيها لأستخرج دفتري من بينهما.

ضحك السيد «تيلور» لتلك الحكاية.

عملت في تلك المدرسة مدة سنتين ونصف السنة؛ فمنذ فبراير سنة ١٩٦١م وإلى سبتمبر سنة ١٩٦٣م مرت بالشارقة في تلك الفترة حوادث كثيرة:

حادثة السفينة «دارا» «Dara»

كانت السفينة «دارا» التابعة لخطوط الملاحة الإنجليزية الهندية راسية في البحر قبالة دبي، عندما هبت عاصفة مساء يوم السابع من إبريل سنة ١٩٦١م، مما اضطرها إلى أن ترفع مراسيها وتبحر بعيداً عن الشاطئ.

وفي الصباح الباكر من اليوم الثامن من إبريل سنة ١٩٦١م، حدث انفجار وحريق على ظهر السفينة. تمّ إنقاذ ٣٤٠ فرداً من ركاب السفينة، أما البقية فقد عُدّتْ من المفقودين. وكان من بينهم عشرون فرداً من مواطني الإمارات.

بعد أن هُجرت السفينة، أخذ التيار يجرفها ناحية مدخل الخليج. وفي صباح اليوم العاشر من إبريل سنة ١٩٦١م، غطست في البحر قبالة أم القيوين.

الشارقة والبترول

كانت شركة بترول العراق، والتي أُعطيت الاسم «إدارة بترول الساحل المتصالح»، تقوم بالحفر في منطقة «الصجعة»، حتى إذا ما اكتمل الحفر في شهر أغسطس سنة ١٩٦١م، عمّت الفرحة أهالي الشارقة وأخذوا ينتظرون الأخبار السعيدة. وإذا بالشركة تعلن أن البئر الذي حُفر في الصجعة ليس به بترول. ثم تلا ذلك تخلّي الشركة عن امتيازها بالشارقة بحراً وبراً، وبدأت بنقل معداتها من الشارقة.

كانت تلك صدمة لأهالي الشارقة، ولم يستعيدوا فرحتهم إلاّ بعد سنة تقريباً عندما وقّع الشيخ صقر بن سلطان القاسمي اتفاقية مع السيد «جون ميكوم» «John Mecom» - صاحب شركة «جون ميكوم» للتنقيب عن البترول، في ٣٠ يونيو سنة ١٩٦٢م، فتجددت الآمال في الشارقة.

وفاة والدي

في منتصف شهر مارس سنة ١٩٦٢م، قررت أنا مع شقيقتي ناعمة أن نقضي يومين في رأس الخيمة، وكان معها حشد من النساء. وما إن وصلنا إلى رأس الخيمة إلاّ وأحسست بشعور غريب يدفعني نحو والدي، فقلت لشقيقتي: «سأعود إلى الشارقة».

قالت: «لقد اتفقنا أن ننام في رأس الخيمة ونرجع غداً».

قلت: «أبقوا أنتم هنا ومعكم السائق، أما أنا فسأعود بسيارة أجرة إلى الشارقة».

قالت: «لماذا؟».

قلت: «لا أعرف!».

ركبت سيارة الأجرة من رأس الخيمة وكان جلّ تفكيري مشغولاً بوالدي.

وبينما نحن في الطريق إلى الشارقة، مررنا بمركز الجزيرة الحمراء، فقيل لسائق سيارة الأجرة إن الشيخ صقر بن سلطان القاسمي حاكم الشارقة كان في طريقه من الشارقة إلى رأس الخيمة عندما استوقفته سيارة قادمة من رأس الخيمة أمام مركز الجزيرة الحمراء؛ فرجع على الفور إلى الشارقة، ولا علم لهم بما قيل للشيخ صقر بن سلطان القاسمي.

عندها قلت في نفسي لابد من أن مصاباً جللاً قد حدث. حتى إذا ما وصلنا إلى الشارقة، وبالقرب من شجرة الرولة، نظرت إلى المحال التجارية معللاً نفسي، فإذا كانت مفتوحةً اطمأن قلبي، أما إذا كانت مغلقة فلابد أن يكون المتوفي ذا شأن، ولكنني وجدت المحال التجارية كلها مغلقة.

قلت لسائق سيارة الأجرة: «انزلني هنا».

مشيت إلى بيتنا.. فكان ساكناً مظلماً، حتى إذا ما دخلت إلى الغرفة التي يقيم فيها والدي ونظرت إلى السرير الذي يرقد عليه، فإذا به خالٍ؛ فكببت وجهي على فراشه، وأخذت أبكيه.

كان والدي يعاني من شلل نصفي، نتيجة إصابته بجلطة دماغية عندما كان يُعالج في بيروت من كسر في رجله، في فبراير سنة ١٩٥٩م. لقد عادت تلك الجلطة الدماغية إليه مرة ثانية في شهر نوفمبر سنة

١٩٥٩م، فنُقل على إثرها إلى البحرين، ومن ثَمّ إلى بومبي في الهند حيث شُفي منها. لقد توفيَ والدي صباح ذلك اليوم، فصلّوا عليه وواروه التراب وأنا بعيد عنه.

الشيخ صقر بن سلطان القاسمي حاكم الشارقة وإخوته

بعد أن عاد الشيخ صقر بن سلطان القاسمي من جولته الأوربية في يوم الخميس السادس من سبتمبر سنة ١٩٦٢م، وجد أمامه وشاية ضد إخوانه.

وفي يوم الاثنين العاشر من سبتمبر سنة ١٩٦٢م، أمر الشيخ صقر بن سلطان عساكره بإلقاء القبض على إخوته جميعهم، ما عدا أحمد، فقد كان صغيراً.

استطاع العساكر أن يُلقوا القبض ليلاً على الشيخ خالد بن سلطان والشيخ عبدالله بن سلطان والشيخ سعود بن سلطان، وتمّ إيداعهم السجن.

أما الشيخ محمد بن سلطان وأخوه الشيخ سالم بن سلطان فقد كانا عائدين من دبي في تلك الليلة، حتى إذا ما وصل الشيخ محمد بن سلطان بالقرب من بيته، وجد العساكر يحيطون بالبيت، فرجع مع أخيه سالم إلى دبي.

في منتصف تلك الليلة أُفرج عن الشيخ عبدالله بن سلطان القاسمي، وبقي الشيخ خالد والشيخ سعود بالسجن حتى الصباح، حيث أُبعدا بالطائرة إلى قطر.

الوحدة الثلاثية، بين مصر وسوريا والعراق

تمّ التوقيع يوم الأربعاء السابع عشر من إبريل سنة ١٩٦٣م بين الجمهورية العراقية والجمهورية العربية المتحدة (مصر وسوريا) على إتمام الوحدة بين تلك الدول.

عمّت الفرحة كل أرجاء الوطن العربي، أما في الإمارات فكانت الفرحة مشوبة بالأحزان، حيث جرت الأحداث كالتالي:

١- في رأس الخيمة: في اليوم التالي لتوقيع اتفاقية الوحدة الثلاثية، والموافق ليوم الخميس الثامن عشر من إبريل من سنة ١٩٦٣م، أقيمت في مسائه أفراح زواج الشيخ خالد بن صقر بن محمد القاسمي في رأس الخيمة، وكنتُ مع مَنْ حضر لمشاهدة تلك الأفراح، فقد طلبت مني عمتي الشيخة ميرة بنت محمد السويدي، أرملة عمي الشيخ سلطان بن صقر القاسمي، أن أنقلها هي وحشداً من النساء بسيارتي إلى رأس الخيمة حيث الاحتفال بالزواج.

أمام حصن رأس الخيمة، نُصب مسرح بسيط، مبني من سعف النخيل، ليغنّي منه المطربون إلى جانب الفرق الشعبية. وكان ممن غنّى تلك الليلة الأستاذ إبراهيم شومة مدرس الموسيقى بالمدرسة القاسمية بالشارقة. كانت معظم الأغاني وطنية، ومن بينها أغنية حديثة تتحدث عن مدينة القاهرة، وهي:

من فوق برج الجزيرة   الله على سحرها

كان هناك، وقبل الوصول إلى مدينة رأس الخيمة، برج بالقرب من مقبرة الجزيرة الحمراء، يقال له «برج الجزيرة»، ومن فوقه تستطيع أن تشاهد بلدة رأس الخيمة. فظن الناس أن الأستاذ إبراهيم

شومة يغني لرأس الخيمة، فزادوا له العطاء.

تمّ عتاب الشيخ صقر بن محمد القاسمي حاكم رأس الخيمة من قِبل المقيم السياسي البريطاني على ذلك التصرف فيما بعد.

٢- في الشارقة: في اليوم الثالث لتوقيع اتفاقية الوحدة الثلاثية، الموافق ليوم الجمعة التاسع عشر من إبريل سنة ١٩٦٣م، كان الشيخ صقر بن سلطان القاسمي حاكم الشارقة غائباً عن البلاد. في مساء ذلك اليوم خرجتُ أقود مظاهرة حاشدة، واتجهتُ بها إلى ملعب كرة القدم القريب من سور مطار الشارقة، والواقع بين النادي الثقافي ومحطة سيارات الأجرة بالشارقة. كانت المظاهرة تضم شيباً وشباناً وأطفالاً ونساء؛ ومن بين النساء عجوز يُقال لها «آمنة بنت علي»، وتُلقّب «منوه حرائق»، كانت تعلّق صورة جمال عبدالناصر على صدرها. ليست هذه أول مرة تعلّق صورة جمال عبدالناصر على صدرها، فقد كانت تطلب من الجنود الإنجليز عندما كانوا يترددون على سوق الشارقة، أن يحيّوا «ناصر» وصورته على صدرها.

في هذا اليوم، طلبت من شخص مرّ بها في المظاهرة أن يحيّي جمال عبدالناصر، وبدلاً من أن يحيّيه بصق على صورته. هنا صاحت منوه حرائق:

«امسكوه.. اضربوه.. بصق على صورة عبدالناصر!».

ركض جمع من المتظاهرين خلف الرجل الذي بصق على صورة عبدالناصر للإمساك به، لكنه دخل في سيارة بيضاء «صالون» تقف بجوار سور مطار الشارقة، وأقفل أبوابها.

أخذ المتظاهرون يحركون السيارة البيضاء حتى استطاعوا قلبها، فاستقرت على ظهرها.

فتح أحدهم خزان البنزين فسال على الأرض، وأشعل النيران فيه، فأخذت السيارة تحترق.. وإذا بسيارة مطافئ مطار الشارقة تقترب من السيارة التي تحترق، وتصوّب خرطوم المياه عليها، لكن المتظاهرين أخذوا يرجمون سيارة المطافئ بالحجارة، مما اضطرها للانسحاب إلى الخلف ابتعاداً عن مرمى الحجارة.

بعد أن خمدت النيران في السيارة وغدت هيكلاً حديدياً لم نجد جثة الرجل، فقد هرب قبل إشعال النار في السيارة.

في اليوم التالي، السبت الموافق للعشرين من إبريل سنة ١٩٦٣م، عندما كنت راجعاً من المدرسة الصناعية بالشارقة إلى بيتنا، وجدت شقيقي الشيخ عبدالعزيز بن محمد القاسمي، وكان ضابطاً في قوة ساحل عُمان، واقفاً بلباسه العسكري في انتظاري، قد جاء محذّراً بعدم قيام أيّ مظاهرة، وأن الجنود التابعين لقوة ساحل عُمان قد انتشروا في كل مكان، وأن لديهم أوامر بإيقاف أي مظاهرة.

كانت الترتيبات قد اتُخذت لخروج المظاهرة في عصر ذلك اليوم. توجهت إلى المكان المطلوب الحضور فيه، وإذا بالمتظاهرين على استعداد للتحرك. أوقفت تحركهم وشرحت لهم ما ينويه الإنجليز من استعمال القوة لإيقاف تلك المظاهرة. تعالت الأصوات من حولي:

«خفت.. نحن لا نخف.. فليفعلوا ما شاءوا!!».

بيّنت لهم أن معنا نساء بأطفالهن وعواجز، نحن لا نريد هذه المظاهرة للمواجهة، وإنما لإظهار فرحتنا باتفاقية الوحدة.

بعد أن تفرّق الجميع، وتلاشت المظاهرة، قلت الأبيات التالية:

بلادي إن خانك الدهر سلاما
أو أراد الغـــاصب احتـــدامـــا
بلادي كـم مـــررنا بالســـنين
سنينٌ لحـــق أبـــدت ضـــرامـا
فما الطوعُ منا للغاصـب مذلةً
وما الــصمتُ منـا لــهمُ احترامـا
ولكن، مخـافة بطشــــهم
كحـــاطب ليـــلٍ يـلومُ الظـــلاما
فتبـدو الأرامـل كـالحـات
ويغــدو الكهــل بأيديهـم حطاما
ويحبو الرضيع إلى صدر أمٍ
عـن وجههـا أمـــاطـوا اللثـــامـــا
بلادي إن خانك الدهر فقولي
ســــلاماً.. فســـلاماً.. فســـلاما

في مساء ذلك اليوم، السبت الموافق العشرين من إبريل سنة ١٩٦٣م، دخل عليّ شقيقي الشيخ عبدالعزيز بن محمد القاسمي، الضابط بقوة ساحل عُمان، وروى لي الحادثة التالية:

في يوم الخميس الثامن عشر من إبريل سنة ١٩٦٣م تحطمت طائرة تابعة لسلاح الجو البريطاني وهي تهبط إلى مدرج ترابي بالقرب من البريمي، وكان على متنها ستة من الضباط والجنود البريطانيين من بينهم رتب عالية من التابعين لقوة سلاح الجو البريطاني، ويرافقهم

جندي عربي من قوة ساحل عُمان، قُتل الملاحون والضباط والجنود الستة البريطانيون، ونجا الجندي العربي التابع لقوة ساحل عُمان، حيث كان في مؤخرة الطائرة، فلما انفصل ذلك الجزء عن الطائرة، وكان على شكل قمع، أخذ يتدحرج والجندي العربي مربوط بداخله.

ج - في دبي: وفي اليوم الثالث والعشرين من إبريل سنة ١٩٦٣م أقيم في مساء ذلك اليوم حفل بمدرسة البنين الواقعة إلى الشرق من سينما الوطن بمناسبة إعلان الوحدة، وقد أُلقيت بعض الخطب السياسية في تلك الحفلة. وعندما انتهى الاحتفال خرج الطلبة في صورة موكب، مرّ بين الحارة وسينما الوطن، حتى إذا ما دخلوا الميدان الذي أمام السينما هاجمتهم مجموعة صغيرة من الإيرانيين، ولم تُعرف الأسباب التي دعتهم لذلك، فقُتل أحد الطلبة، وجُرِح عدد من الطلاب.

في مساء اليوم التالي، الرابع والعشرين من إبريل سنة ١٩٦٣م، بعد أن خرجت من المدرسة الصناعية، توجهت إلى دبي لأستفسر عمّا جرى بالأمس؛ فقابلت السيد بطي بن بشر، والذي روى لي ما حدث في صباح ذلك اليوم، فقال:

«كان هناك تجمهر أمام مركز قيادة شرطة دبي، فكان التهديد والوعيد من قِبل المتظاهرين والمطالبين بالدم، والتهديد للضابط الإنجليزي من شرطة دبي والذي يحتجز الشخص المتهم بالقتل، حيث طالبوه بأن يسلمه لهم ليقتلوه. ولم تهدأ ثورة المتظاهرين إلاّ بتدخل السيد سيف بن أحمد الغرير - أحد تجار دبي و الذي كان حاضراً هناك، وأخذ يتحدث للمتظاهرين

الغاضـــبين وينصـحهم، فاستمـعوا لنصيحته».

ثم قال السيد بطي:

«قيل إن سيف بن أحمد الغرير قد شارك في صلاة جنازة الشهيد صباح ذلك اليوم، وشارك كذلك في مواراته التراب، ورفع يديه بعد إتمام الدفن يدعو جهاراً للشهيد».

وبينما نحن نتحدث، خرجت مظاهرة أخرى فشاركت فيها أنا والسيد بطي بن بشر، واتجهت نحو مركز قيادة شرطة دبي. وقبل الوصول إلى هناك كانت مجموعة من أفراد شرطة دبي تمنع المتظاهرين من الوصول إلى مركز قيادة شرطة دبي.

وعندها تدخل السيد ثاني بن عبدالله أبو قفل، أحد رجالات دبي، مناصحاً، لكن المتظاهرين أخذوا يتدافعون مع أفراد الشرطة مما حدا بهم إلى استعمال عصيّهم، فتفرق المتظاهرون، ما عدا مجموعة صغيرة بقيت تهتف..فكنت أنا والسيد بطي بن بشر من ضمن تلك المجموعة.

لحق بنا أفراد الشرطة بالقرب من بيت خليفة بن سلطان الحبتور، فتفرقت تلك المجموعة؛ ودخلت أنا وبطي بن بشر في السكـة الضيقـة المؤديـة إلى سوق ديرة. ولكن في منتصف السكة لحق بنا أحد أفراد شرطة دبي وكان من المواطنين، ويُدعى أحمد حديد. أخذ أحمد حديد، والذي كان ضئيل الجسم، يتشاجر مع بطي بن بشر، الطويل القامة والقوي البنية. وأثناء الشجار وقع عقال أحمد حديد في رقبته، فسلمني بطي بن بشر طرف العقال وأخذ يضربه بكفيه. خلصت الشرطي أحمد حديد من يد السيد بطي بن بشر، وتابعنا سيرنا في

تلك السكة، حتى إذا ما وصلنا إلى شاطئ خور دبي، وإذا بثاني بن عبدالله أبو قفل ومعه مجموعة من شرطة دبي على ناحية اليمين منّا، ومجموعة أخرى من الشرطة على ناحية اليسار، فهجموا علينا.. فما كان منّا إلاّ أن قفزنا إلى «عبرة»، كانت خالية، دفعنا بها إلى عرض الخور، وأخذ السيد بطي بن بشر يجدّف إلى منتصف الخور...

حوكم القاتل فوُجد أنه مذنب... وبقي خيار والدة المقتول بين رأيين: القصاص أم الدية؟

كانت مظاهر الحماسة للجمهورية العربية المتحدة، المتمثلة في وحدتها الثلاثية، لا توصف. لم يكن الطلبة والمواطنون وحدهم هم المؤيدين لجمال عبدالناصر، فأعلام الجمهورية العربية المتحدة على سيارات الأجرة، وعلى المباني، وعلى العبرات التي تقطع خور دبي ذهاباً وإياباً، وعلى السفن الراسية بخور دبي؛ وكانت الهتافات من حناجر العجم سائقي سيارات الأجرة، ومن حناجر البلوش على العبرات، ومن حناجر الباكستانيين على السفن التجارية، والتي كانت كلها تصرخ: «ناصر... ناصر».

تأكد الإنجليز حينها أن الجميع يؤيد (ناصر).

الإصابة في الساق

في بداية سنة ١٩٥٥م، كنا نتفرج على المباراة التي أُقيمت في الشارقة بين فريق دبي لكرة القدم وفريق الشارقة لكرة القدم (الممثل بموظفي شركة الاتصالات الدولية بالشارقة وإدارة الأشغال بالمحطة بالشارقة). وقبل نهاية تلك المباراة حصل شجار بين اللاعبين توقفت

المباراة على إثره. كنت وقتها من الأولاد الذين يتبعون الفريق لمشاهدة المباريات واللعب بالكرة في وقت الاستراحة، حيث كنت في فريق كرة القدم بالمدرسة القاسمية. وذات مرة كان فريق الشارقة يلعب مع فريق إنجليزي من فرق المحطة، وقد تغيّب أحد اللاعبين من فريق الشارقة، ولم يكن هناك أي احتياطي للفريق، فطُلب مني أن ألعب معهم، وكان سني يومها خمس عشرة سنة. بقيت ألعب مع ذلك الفريق حتى سنة ١٩٦٠م، حيث تركته عندما انتقلت للدراسة في الكويت.

بعد رجوعي من الكويت سنة ١٩٦١م، أسست فريق «الاتفاق»، والذي استمر لمدة سنتين، وكان معظم لاعبيه من الأجانب.. فألغيته، وأسست نادي الشعب في بداية سنة ١٩٦٣م. وفي إحدى مباريات نادي الشعب أصبت بشرخ في نهاية عظمة الساق مما اضطرني للتوقف عن اللعب.

الاستقالة من المدرسة الصناعية بالشارقة والرجوع للدراسة

بنهاية مايو سنة ١٩٦٣م، وبعد أن أنهت المدرسة الصناعية عامها الدراسي، توجهت إلى القاهرة، ومنها إلى الإسكندرية، لمقابلة الدكتور «محمد عبدالله» – اختصاصي العظام - حيث عرضت عليه حالتي، والتي تمثلت بوجود شرخ في نهاية عظمة الساق؛ فأخبرني، بعد الفحص والتصوير، أنه لا فائدة من علاج ذلك، فقد جبر العظم على تلك الحالة.

رجعت بعدها إلى القاهرة حيث التهبت الزائدة الدودية لديّ،

مما اضطرني لدخول المستشفى لإجراء عملية جراحية لإزالتها.

عندما التقيت بزملاء دراستي في القاهرة، وكانوا جميعهم في نهاية السنة الدراسية الأولى بجامعة القاهرة، عادت الذكريات السالفة، فقد كنا، وعلى مدى عشرة أعوام، في فصل واحد.

طلبوا مني أن أبقى معهم، وأن أواصل الدراسة في كلية الشرطة، وبنظام الطلبة الشرقيين - أي القبول بالشهادة المتوسطة، فوعدتهم بأنني سألحق بهم بعد أن أحصل على الثانوية العامة.

بعد عودتي إلى الشارقة، بعثت باستقالتي إلى المسؤول عن المدرسة الصناعية بالشارقة السيد «مايكل بيرتون» «Michael Burton»، مساعد الوكيل السياسي البريطاني في دبي، وقد كان يشرف على المدرسة الصناعية بالشارقة في نهاية العام الدراسي السابق وبداية العام الدراسي ١٩٦٣ - ١٩٦٤م، حيث كان مدير المدرسة الصناعية لا يزال يتلقى العلاج في بريطانيا بعد إجراء عملية جراحية له. ومن ثمَّ قدَّمت شهادتي لمكتب الكويت في دبي، لأنضم إلى مدرسة دبي الثانوية بالصف الثالث الثانوي العلمي، فقد كانت الدراسة للصف الثالث والرابع العلمي والأدبي موزَّعة بين مدرستي دبي الثانوية ونصيبها الصفان الثالث والرابع الثانوي العلمي، والمدرسة القاسمية بالشارقة ونصيبها الصفان الثالث والرابع الثانوي الأدبي.

وما هي إلاَّ أيام، وإذا بمساعد الوكيل السياسي البريطاني السيد «بيرتون» يطلبني للحضور لمقابلته في المقيمية السياسية البريطانية في دبي. عندما قابلت مساعد الوكيل كان لطيفاً معي، وطلب مني أن أعدل عن استقالتي وأعود إلى التدريس بالمدرسة.

قلت: «إنني في مدرسة دبي الثانوية أواصل تعليمي».

قال: «نحن سنرسلك في بعثة للدراسة في بريطانيا».

قلت: «كم من وعود تبخَرت!».

قال: «هل نحن كاذبون؟».

قلت: «فسّرها كيفما تشاء».

قال: «قبل ذهابك إلى مصر كانت أخلاقك كريمة، حسبما وصفها لي السيد «تيلور». وبعد ذهابك للمصريين أفسدوا أخلاقك».

قلت: «إذا كانت الصراحة فساد أخلاق، فاللّهم زدني منها».

قال: «أنا أمنعك من الاستقالة».

قلت: «أنت لا تستطيع أن تمنعني من أن أخرج من مكتبك».

الفصل الحادي عشر

المدّ القومي في الشارقة

انتشر المدّ القومي بين الناس على مختلف فئاتهم، عامة الشعب وطلبة المدارس والتجار والأعيان بين الشارقة ودبي، وكذلك حكومة الشارقة والمتمثلة بالشيخ صقر بن سلطان القاسمي حاكم الشارقة.

وكلاء صهيون

في نهاية سنة ١٩٦٣م، وبينما كنت طالباً في مدرسة دبي الثانوية كنت لا أزال أدير نادي الشعب الثقافي الرياضي بالشارقة. وكانت هناك خشبة مسرح أُقيمت في فترة غيابي في مصر في صيف سنة ١٩٦٣م، وأقيمت عليها أول مسرحية في شهر أغسطس سنة ١٩٦٣م، ومسرحية أخرى في شهر سبتمبر سنة ١٩٦٣م على يد المخرج العراقي واثق السامرائي..فقمت بتأليف مسرحية «وكلاء صهيون» وأخرجتها ومثّلت دورين رئيسيين فيها، وعُرضت المسرحية في نهاية سنة ١٩٦٣م.

كانت الساحة الداخلية للنادي، والتي بها خشبة المسرح، غاصّة

بالمتفرجين، وقد جلس في الصف الأول قبالة خشبة المسرح السيد «مايكل بيرتون»، مساعد الوكيل السياسي البريطاني في دبي والمسؤول عن المدرسة الصناعية بالشارقة، مع عبيد بن يعقوب مسؤول النقليات بالمدرسة، والذي دعوته مع السيد «بيرتون» لحضور المسرحية.

في الفصل الأخير من المسرحية، كان هناك مشهد يُظهر موسى ديّان، والذي أقوم بدوره في المسرحية، يخاطب وزارة الخارجية البريطانية في لندن، وهو كما يلي:

موسى ديّان (عبر الهاتف): «ألو.. ألو.. لندن.. وزارة الخارجية البريطانية!».

وزارة الخارجية البريطانية (عبر الهاتف): «ألو.. ألو.. من المتحدث؟».

موسى ديّان: «أنا موسى ديّان.. العرب يهجمون.. ساعدونا.. تدخلوا.. أوقفوهم..».

وزارة الخارجية البريطانية: «نحن لا نستطيع أن نعمل أي شيء، العرب اتحدوا.. وأصبحت لهم قوة.. وتدخلنا يتعارض مع مصالحنا في المنطقة».

هنا يضع موسى ديّان الهاتف وينتقل إلى حافة خشبة المسرح، ومدليًا رجليه من على خشبة المسرح، وموّجهاً الكلام للسيد «مايكل بيرتون» مساعد الوكيل السياسي البريطاني في دبي، والذي كان يجلس قبالته:

«صنعتونا.. وجعلتم منّا مخلب القط لمصالحكم.. كنا مستريحين في بلداننا.. جمعتونا من كل بلد لتضعونا أداة من أدواتكم العدوانية».

كان مساعد الوكيل السياسي البريطاني غاضباً لتوجيه الكلام إليه، مما دفعه في اليوم التالي إلى أن يطلب من الشيخ صقر بن سلطان القاسمي إغلاق نادي الشعب. وبعد إلحاح شديد من قِبل الإنجليز وافق الشيخ صقر على ذلك الطلب، وأغلق النادي.

بعثة جامعة الدول العربية

خلال فترة الربيع من سنة ١٩٦٤م شنت الصحافة العربية حملة ضد خطر الهجرة الإيرانية إلى إمارات الخليج مما يهدد العروبة في المنطقة. وبعد زيارة للمنطقة خلال صيف تلك السنة، قام بها بدر الخالد، السفير في وزارة الخارجية الكويتية الذي أعدّ تقريراً عن المنطقة، حيث وضع الأمر في صورته الحقيقية معلّقاً على حاجة المنطقة الماسة للمساعدة والدعم.

في أكتوبر من سنة ١٩٦٤م أعلن عبدالخالق حسونة الأمين العام لجامعة الدول العربية أنه سوف يرأس بعثة لإقامة علاقات رسمية بين إمارات الخليج وجامعة الدول العربية لأجل دراسة السبل الكفيلة بالمحافظة على الهوية العربية. وقد تقررت الزيارة التي سيقوم بها عبدالخالق حسونة الأمين العام لجامعة الدول العربية في يوم ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٦٤م. كانت الأيام التي قضاها عبدالخالق حسونة في الإمارات كالتالي:

يوم الأربعاء الثامن والعشرون من أكتوبر سنة ١٩٦٤م:

كانت الشارقة، ومنذ أسبوع، قد اكتست بالأعلام والأقواس؛ أما دبي فقد أصبحت في ذلك اليوم في أجمل مظهر من مظاهر الزينة،

حيث كان العمل ليلة وصول الوفد مستمراً حتى الفجر برفع الأعلام وتثبيت الأقواس. وقد رُفعت الزينة أيضاً في الإمارات الأخرى.

في صباح ذلك اليوم احتشد في مطار دبي ما يقارب من ثلاثة آلاف فرد من أهالي دبي والإمارات الأخرى، وخليط من أجناس متعددة.

وصلت الطائرة المقلة لعبدالخالق حسونة في تمام الساعة العاشرة صباحاً، وعندما نزل عبدالخالق حسونة والوفد المرافق له، والمكوّن من سيد نوفل نائب الأمين العام ومندوبي السعودية والكويت والعراق لدى الجامعة، تقدم الشيخ راشد بن سعيد المكتوم حاكم دبي لاستقبالهم، فتدافعت الأعداد مما استدعى الشرطة للتدخل حماية للوفد الضيف. بعد تناول المرطبات في مطار دبي، توجه الوفد إلى الفندق بدبي.

كانت هناك مظاهرة صغيرة مكونة من عشرين فرداً، رافقتها شرطة دبي إلى الفندق حيث يقيم الوفد.. عندها أصبح عددها مئة فرد. أخذ بعض أفراد من المتظاهرين في التصرفات غير اللائقة مما دفع الشرطة إلى توجيه المتظاهرين إلى أرض فضاء بالقرب من الفندق حيث المحال التجارية مغلقة.. ثم قامت الشرطة بتفريق المتظاهرين بالهراوات، مما دفعهم إلى رشق الشرطة بالحجارة.

ربما لم يلاحظ أعضاء الوفد ما جرى خلف الفندق.. ولكنهم لاحظوا تلك السيارات المكتظة بالعمال اليمانيين والعدنيين وبعض طلبة المدارس الذين قدموا من الشارقة، وأخذوا يهتفون بالنصر لجمال عبدالناصر والسقوط للإمبريالية.

وخلال اليومين اللذين أمضاهما الوفد في دبي، تم تكريمه بالولائم

وحفلات الشاي من قبل الشيخ راشد بن سعيد المكتوم حاكم دبي، ومن مكتب الكويت في دبي، ومن بلدية دبي. وأخيراً كان تكريم الوفد من الشيخ أحمد بن علي آل ثاني حاكم قطر.

يوم الجمعة الثلاثون من أكتوبر سنة ١٩٦٤م:

كان ذلك يوم زيارة الوفد إلى الشارقة، حيث انتشرت قوات ساحل عُمان في كل جزء من أجزاء المدينة. معظم السيارات بالشارقة توجهت إلى دبي لاصطحاب الوفد إلى الشارقة. أما أنا ومعي مجموعة من المتظاهرين فقد كنا في استقبال الموكب عند مشارف مدينة الشارقة. كنت يومها أتحدث للجماهير من خلال مكبر للصوت، ومن على ظهر إحدى السيارات حتى مدخل «المضيف»، حيث يوجد مجلس الشيخ صقر بن سلطان القاسمي حاكم الشارقة.

كان هناك طلبة المدارس، والمدرسون يوجهونهم بالهتافات وتحريك الأعلام التي كانوا يرفعونها. كانت الساحة أمام المضيف والحصن مزدحمة بالمواطنين من الشارقة، يتخللهم بعض العرب والعمال من بلوش وإيرانيين.

عقد الوفد اجتماعاً مع الشيخ صقر بن سلطان القاسمي، وتم بحث موضوع المساعدة المطلوبة.

ذكر الشيخ صقر بن سلطان القاسمي أن المندوب السعودي لدى الجامعة والمرافق للوفد قدم له دعوة من الملك فيصل بن عبدالعزيز آل سعود لزيارة المملكة العربية السعودية، وقد قبلها.

بعد تلك المحادثات انتقل الوفد إلى البيت الذي أُعد لإقامة الوفد فيه، وقد سُمي «يت حسّونة»، بالقرب من شجرة الرولة.

بعد استراحة قليلة، قَدِم الشيخ صقر بن سلطان القاسمي إلى بيت حسّونة، واصطحب معه وفد الجامعة لصلاة الجمعة، في المسجد الذي بناه حديثاً علي بن عبدالله العويس قبالة المدرسة الصناعية بالشارقة. بعد أداء الصلاة أقام الشيخ صقر مأدبة غداء للوفد، ومن ثم كانت للوفد استراحة في بيت حسّونة. أعقب ذلك حفلة شاي أقامتها بلدية الشارقة.

في مساء يوم الجمعة أقام الشيخ صقر بن سلطان وليمة عشاء كبيرة لوفد الجامعة، دُعي لها أعيان البلد. بعد تناول طعام العشاء عُقدت جلسة مغلقة بين وفد الجامعة العربية والشيخ صقر، بعد أن ودعوا المدعوين لوليمة العشاء. اصطحب الشيخ صقر ضيوفه إلى بيت حسّونة للمبيت تلك الليلة في الشارقة.

يوم السبت الحادي والثلاثون من أكتوبر سنة ١٩٦٤م:

توجّه وفد الجامعة صباح ذلك اليوم إلى عجمان، حيث استقبلهم الشيخ راشد بن حميد النعيمي حاكم عجمان وجمع غفير من المواطنين الذين أخذوا يهتفون ضد إيران. التفت السيد عبدالخالق حسونة للشيخ راشد بن حميد النعيمي وطلب منه أن يخبر مواطنيه بأن لا يهتفوا ضد أي دولة، لأن جميع الدول صديقة لجامعة الدول العربية.

عاد وفد الجامعة من عجمان إلى دبي مباشرة للإقامة هناك.

يوم الأحد الأول من نوفمبر سنة ١٩٦٤م:

زيارة هادئة لأم القيوين.

يوم الاثنين الثاني من نوفمبر سنة ١٩٦٤م:

زيارة الوفد لرأس الخيمة.

يوم الثلاثاء الثالث من نوفمبر سنة ١٩٦٤م:

زيارة الوفد لكلباء والفجيرة.

يوم الأربعاء الرابع من نوفمبر سنة ١٩٦٤م:

مغادرة الوفد من مطار دبي.

تم الاتفاق بين وفد الجامعة العربية وحكام الإمارات على إرسال بعثة فنية لدراسة احتياج المنطقة من المشروعات الضرورية.

البعثة الفنية لجامعة الدول العربية

في منتصف شهر نوفمبر من سنة ١٩٦٤م غادر الشيخ صقر بن سلطان القاسمي الشارقة متوجهاً إلى الرياض بدعوة من الملك فيصل ابن عبدالعزيز ملك المملكة العربية السعودية. وأثناء المقابلة تحدث الملك فيصل عن مشروع الطريق الذي ستتكفل المملكة العربية السعودية ببنائه.

بعد أن عاد الشيخ صقر بن سلطان القاسمي من الرياض، استشار الوكيل البريطاني في دبي، «اتش غلن بلفور بول» «H. Glen Balfour – Paul»، والذي عُيِّن قبل قدوم بعثة الجامعة العربية بأيام وكيلاً سياسياً بريطانياً في دبي بدلاً من «جيمس كريغ» «James Graig» الذي أخذ مكان «بلفور بول» سكرتيراً للسفارة البريطانية في بيروت، بشأن موضوع المساعدات التي سيقدمها الملك الفيصل ملك المملكة العربية السعودية أو جامعة الدول العربية لتمويل المشروعات التطويرية في إمارات الساحل. كان رد «تي، اف برنجلي» «T. F. Brenchley»

مدير دائرة الجزيرة العربية في وزارة الخارجية البريطانية ما يلي:

إنني أوصي بأنه في المناقشة مع «سير وليام لوس»[1] «Sir William Luce»، فإن على الوزارة أن تقدم وتوفر إجابات مقترحة لحكام الشارقة من طرف السيد «بلفور بول»، ومصدقة مبدئياً من طرف «سير وليام لوس» كما يلي:

(١) للسعوديين: إن حكومة صاحبة الجلالة البريطانية ترحب من حيث المبدأ بمنحة مالية لصندوق طرق الإمارات، والذي يدار بواسطة مجلس الإمارات، والذي سوف يشار إلى العرض المقدّم بشأنه في الاجتماع المقبل لمناقشته.

(٢) للجامعة العربية: إن مجلس الإمارات ينظر في القريب العاجل فيما هو أفضل لإنفاق وإدارة أي دعم مالي لخططهم التطويرية، والذي يمكن أن تفكر الجامعة العربية في تقديمه.

في السابع عشر من ديسمبر سنة ١٩٦٤م وصلت البعثة الفنية لجامعة الدول العربية إلى مطار الشارقة في يوم كانت العاصفة الممطرة على أشد ما تكون.. فمن مطار الشارقة إلى فندق الواحة في دبي شاهدت البعثة المعاناة التي كان يعانيها سكان الإمارات، فقد توقفت سياراتهم عدة مرات عندما كانت تغوص في الوحل.. أما السيارة التي كانت تحمل حقائب سفرهم فلم تصل إلى الفندق إلا بعد أربع وعشرين ساعة من وصولهم إلى مطار الشارقة.

كانت البعثة الفنية التابعة لجامعة الدول العربية مكونة من:

١- الدكتور محمد سالم – رئيس البعثة، من الجمهورية العربية

---

١ المقيم السياسي البريطاني في الخليج ومقره في البحرين.

المتحدة، رئيس اتحاد الصناعات.

٢- علي فهمي الكاشف - للمياه، من الجمهورية العربية المتحدة، المدير الفني للشركة العامة للأبحاث والمياه الجوفية.

٣- اسماعيل محمد عبدالعال - للزراعة، من الجمهورية العربية المتحدة.

٤- غيث خير الدين الزركلي - للصحة العامة، من المملكة العربية السعودية.

٥- محمد يوسف الرومي - للطرق، من الكويت.

٦- أحمد عزب كريم - للطرق، من الجمهورية العربية المتحدة.

٧- محمد عبدالغني الخولي - للكهرباء، من الجمهورية العربية المتحدة.

٨- عبدالحميد الباكر - للتعليم، من العراق.

٩- الدكتور أحمد سعيد - للاقتصاد، من الجمهورية العربية المتحدة.

١٠- محمد سعد الدين - للتجارة، من الجمهورية العربية المتحدة.

في اليوم التالي الموافق للثامن عشر من ديسمبر من سنة ١٩٦٤م، قامت البعثة الفنية لجامعة الدول العربية بزيارة الشيخ صقر بن سلطان القاسمي وتناولت طعام العشاء معه، والذي دُعي إليه عدد من الأعيان، كما دُعي الوكيل السياسي البريطاني في دبي «بلفور بول»، والذي كتب رسالة للمقيم السياسي في الخليج «سير وليام لوس» بعد أن تحدث إلى الدكتور محمد سالم رئيس البعثة الفنية في مجلس الشيخ صقر بن سلطان القاسمي بعد تناول طعام العشاء في تلك

الليلة، قائلاً:

«لقد قلت للدكتور محمد سالم والذي أعرفه جيداً من المؤتمر العربي للبترول، والذي عُقد في بيروت قبل مدة وجيزة: إذا كانت جامعة الدول العربية جادة في المساهمة في تطوير الإمارات، فآمل أن تقوم بدفع المبالغ لصندوق التطوير المركزي، والذي يُدار بواسطة مجلس الإمارات، وإلاّ ستكون هناك خطورة من التداخلات مع خطط المجلس وخططنا، ما عدا خطط مكتب الكويت».

يقول«بلفور بول» في رسالته للمقيم السياسي في الخليج«سير وليام لوس» بأن الدكتور محمد بن سالم قال له بأن جامعة الدول العربية لديها أفكار أخرى، فمساهمتها ستدار بنفس الطريقة، وبوكالة مشابهة لصندوق المساعدات الفنية التابع للأمم المتحدة. وكذلك ذكر له أن عبدالخالق حسّونة أكد له بأن هناك مبلغ ستة ملايين جنيه «إسترليني» ستطلب في اجتماع رؤساء الوزراء العرب في جامعة الدول العربية والذي سيعقد في التاسع من يناير من سنة ١٩٦٥م.

أمضت البعثة الفنية أربعة أيام تتجول في الإمارات، ومن أهم ما ذكره أعضاء البعثة، بحماسة، ضرورة بناء طريق صالح في فترة الأمطار، وكذلك دراسة مصادر المياه وتحليل التربة.

في السابع والعشرين من يناير من سنة ١٩٦٥م تم اللقاء بين الشيخ صقر بن سلطان القاسمي حاكم الشارقة والوكيل السياسي البريطاني «بلفور بول» في دبي، والذي قدم من البحرين قبل يومين، بعد أن اجتمع مع «سير وليام لوس» المقيم السياسي البريطاني في الخليج،

والذي فوّضه بأن يتحدث بدون تحفظ إلى الشيخ صقر حاكم الشارقة، وأن يستخدم أية أساليب أو أدوات يراها للضغط عليه سياسياً وإخضاعه.

كانت آخر كلمات التهديد من قبل الوكيل السياسي البريطاني «بلفور بول» مضمنة في السؤال التالي:

«هل كان أم لم يكن مخلصاً للاتفاقية التي وقّعها مع حكومة صاحبة الجلالة عند توليه الحكم، وهو يعرف اشتراطاتها؟
إذا كان مخلصاً، فعليه عندئذ أن يشرح بالتفصيل سلوكه، وإذا لم يكن مخلصاً فعليه ألا يتوقع أن تقف حكومة صاحبة الجلالة البريطانية ساكنة».

كان رد الشيخ صقر بأنه بلا أموال لتطوير بلاده المتخلفة، وعليه أن يقبل المعونة من أينما أتت.

في بداية شهر فبراير من سنة ١٩٦٥م، أصدر مجلس الجامعة العربية مجموعة من القرارات تنصّ على التالي:

١- إنشاء صندوق للجامعة، يتم تمويله من خلال مساهمات تطوعية من الدول العربية وإمارات الخليج، ليتم إنفاقها على مساعدة لإمارات الساحل وتقديم الخدمات لها.

٢- يمكن أن تكون المساهمات على هيئة الإمداد بفنيين وخبراء كبديل للمشاركة النقدية.

٣- إنشاء لجنة دائمة للجامعة العربية لدراسة المساعدة المقدمة للإمارات والإشراف عليها تحت قيادة الأمين العام، ويتم اختيار أعضائها من الدول والإمارات المشاركة.

٤- ذكر الأمين العام للجامعة بأنه سيقدم تلك القرارات في التقرير السنوي إلى مجلس ملوك ورؤساء الدول العربية.

وقد رفض الوفد السعودي تلك القرارات ببيان يشرح الأسباب وراء عدم استطاعته الموافقة على قرار المجلس، وهو الأمر الذي طرحه الوزير الكويتي بدر الخالد من أنه لابد من موافقة الإمارات خطياً على ذلك.

بين الوزير البريطاني ومساعد الأمين العام لجامعة الدول العربية

قرر المجتمعون بجامعة الدول العربية إرسال الدكتور سيد نوفل مساعد الأمين العام لجامعة الدول العربية إلى الإمارات للحصول على موافقة خطية من كل حاكم على حدة.

سارعت السلطات البريطانية في الخليج لإنشاء صندوق بديل عن صندوق جامعة الدول العربية.

وفي الاجتماع الذي عقد في مجلس الإمارات في الأول من مارس من سنة ١٩٦٥م، قرر الحكام إنشاء مكتب تطوير الإمارات وصندوق تابع له، كما قرروا دعوة جميع المساهمين لإرسال معونات التطوير المقدمة منهم عبر ذلك الصندوق.

جذب الشيخ صقر حاكم الشارقة انتباه الحضور بخبر من بيروت يفيد بأن سيد نوفل نائب الأمين العام للجامعة العربية سيصل في غضون أسبوع ومعه مساعدة مالية تقدر بمليون ونصف المليون جنيه إسترليني؛ فقد تم طمأنته أن الجامعة كانت حريصة على مشاركة الحكام مسؤولية إدارة الصندوق. فمسألة إنشاء صندوق مشترك

أمر مرغوب فيه من الجميع؛ حيث سيكون لجميع الحكام ممثلون في المكتب، ويساعدهم في العمل خبراء محترفون. لكن حسب ما قاله بدر الخالد، والذي أصبح الممثل الشخصي لحاكم الكويت في لجنة الخليج التابعة لجامعة الدول العربية، والتي أنشئت نتيجة لتقرير بعثة سنة ١٩٦٤م؛ حيث أوضح قائلاً: «قررت الجامعة العربية في القاهرة تقديم مساعدة قيمتها خمسة ملايين جنيه إسترليني خلال السنوات الخمس المقبلة لإمارات الساحل، وربما ستراسل الحكام لتطلب موافقتهم».

في العاشر من مايو من سنة ١٩٦٥م، وصل إلى دبي الدكتور سيد نوفل مساعد الأمين العام لجامعة الدول العربية. وبعد أربع وعشرين ساعة وصل إلى دبي «جورج تومسون» «George Thomson» وزير الدولة البريطاني للشؤون الخارجية.

لم يبدد سيد نوفل الوقت هدراً، فقد زعم أن هنالك مبلغ ٩٠٠,٠٠٠ جنيه إسترليني موجودة بالفعل تحت إمرته، و٢٥٠,٠٠٠ جنيه إسترليني أخرى من الكويت، ومثلها أيضاً من العراق، و٤٠٠,٠٠٠ جنيه إسترليني من الجمهورية العربية المتحدة.

في صباح اليوم الحادي عشر من مايو من سنة ١٩٦٥م، قام سيد نوفل بزيارة الشيخ صقر بن سلطان القاسمي حاكم الشارقة في مجلسه في الشارقة. وبعد محادثات مطولة حمل معه الرسالة التالية للأمين العام لجامعة الدول العربية:

«تأكيداً للمحادثة التي جرت هذا اليوم بيني وبين الدكتور سيد نوفل مساعد أمين عام الجامعة، أحب أن أعرب عن شكري

وامتناني للجامعة لخطط التنمية التي وضعتها، وأنا أرحب بالبدء فوراً بتنفيذها، وكذلك للترتيبات التي وضعت لإنشاء مكتب في إمارة الشارقة».

في صباح اليوم الثاني عشر من مايو من سنة ١٩٦٥م، ذهب الشيخ صقر بن سلطان القاسمي متوجهاً إلى دبي لحضور اللقاء الذي رتبه الوكيل السياسي البريطاني في دبي بين وزير الدولة البريطاني «جورج تومسون» وحكام إمارات الساحل، في الوكالة البريطانية في دبي، بالتتابع - ولم يحضر حاكم الفجيرة حيث كان في الحج.

كان حديث الوزير البريطاني يدور حول الموضوعات التي تبنّاها كل من المقيم السياسي البريطاني في الخليج «سير وليام لوس» والوكيل السياسي البريطاني في دبي، وهي كالتالي:

١ - لقد صممت حكومة صاحبة الجلالة على البقاء في منطقة الخليج، وصيانة اتفاقياتهم والتزاماتهم تجاه الحكام.

٢ - إن الضغط المتزايد والعدائي على موقعنا، وكذلك على الحكام، يجعل من الضرورة بمكان أن يتعاون الحكام مع بعضهم بعضاً ومعنا؛ فالمصريون والعراقيون سوف يستثمرون أية خلافات لإلحاق الأذى بالجميع. وبالتالي ستعمل حكومة صاحبة الجلالة على تشجيع الحكام، وحثهم لتجاوز ودفن خلافاتهم، وأن يجدوا المجالات التي تستوعب تعاونهم مع بعضهم بعضاً.

٣ - وعلى وجه الخصوص، يجب على الحكام أن يقفوا جميعاً داعمين ومساندين لقرارات مجلس الإمارات المتصالحة،

حسبما تقرر في اجتماع الأول من مارس، والإصرار على أن يكون كل دعم يأتي من الخارج عبر قنوات صندوق تطوير الإمارات.

من خلال اللقاءات كان حاكم رأس الخيمة الذي يفترض أن يقابل السيد نوفل إثر ذلك، قد تلكأ وعقد ما بين حاجبيه.. أما حاكم الشارقة الذي لم يفصح حتى ذلك الوقت عما كان قد اتفق حوله مع سيد نوفل فقد بدا غير لطيف، وكان قاسياً نوعاً ما.

في مساء اليوم نفسه، قام سيد نوفل بزيارة كل من الشيخ راشد بن حميد النعيمي حاكم عجمان، والشيخ أحمد بن راشد المعلا حاكم أم القيوين، والشيخ صقر بن محمد القاسمي حاكم رأس الخيمة.

في مقابلة الشيخ راشد بن حميد النعيمي حاكم عجمان، كان سيد نوفل يلح على الشيخ راشد بن حميد أن يعطيه رسالة شبيهة برسالة الشيخ صقر بن سلطان القاسمي، لكن الشيخ راشد بن حميد النعيمي بيَّن أن الحكام قد اتفقوا على إنشاء صندوق لمجلس التطوير توضع فيه كل المنح المقدمة للإمارات.

وتحت إصرار سيد نوفل، منحه حاكم عجمان رسالة شبيهة برسالة الشيخ صقر بن سلطان القاسمي باستثناء الجملة الأخيرة بخصوص فتح مكتب لجامعة الدول العربية.

وفي مقابلة سيد نوفل للشيخ أحمد بن راشد المعلا حاكم أم القيوين، تسلَّم الرسالة التالية الموجهة للأمين العام لجامعة الدول العربية:

«يسرني أن أرسل لسعادتكم ترحيبي بالمساعدة التي يعتزم

القائمون في الجامعة العربية تقديمها إلينا ولإخواننا في ساحل عُمان. ونشكر سعادتكم للتعاطف والاهتمام الذي أحطتمونا به، ونسأل الله التوفيق لنا ولكم».

أما الشيخ صقر بن محمد القاسمي حاكم رأس الخيمة فقد كتب الرسالة التالية للأمين العام لجامعة الدول العربية:

«اليوم زارنا سعادة الدكتور نوفل، ولقد سرنا ما قاله لنا. وتأكيداً لمحادثتنا معه، يسرني أن أبلغ سعادتكم أننا نرحب بجميع جهودكم في مساعدة هذا الجزء من الوطن العربي. وإننا نعلن موافقتنا على إمكانية فتح مكتب الجامعة العربية في رأس الخيمة. وفي هذا السياق، يسعدنا أن نقدم للجامعة العربية كهدية متواضعة إحدى بناياتنا الجديدة في شارع عُمان، متمنياً أنها ستكون مناسبة المواصفات كي تتخذ كمكتب للجامعة في الإمارة».

مقابلة بين حاكم الشارقة والوزير البريطاني

كان وزير الدولة البريطاني قد قبل دعوة الشيخ صقر بن سلطان القاسمي حاكم الشارقة لتناول الشاي معه في اليوم التالي، الموافق للثالث عشر من مايو سنة ١٩٦٥م؛ حيث قرر الوزير تأجيل المواجهة الختامية مع الشيخ صقر حتى ذلك الوقت. وأثناء حفلة الشاي التي أقامها الشيخ صقر في المجلس العام في المضيف بالشارقة، عُقد اجتماع بين الشيخ صقر والوزير البريطاني «جورج تومسون». إلى جانب الوزير البريطاني حضر الاجتماع «سير وليام لوس» المقيم

السياسي البريطاني في الخليج، والسيد «بلفور بول» الوكيل السياسي البريطاني في دبي، والذي تولى الترجمة بين الحاكم والوزير البريطاني.

قال الوزير البريطاني:

«لقد حذرتك سابقاً من العمل مع الجامعة العربية، وبلَغتني بأنك تؤيد هذا التعاون، وستوافق على فتح مكتب للجامعة في الشارقة. وأريد أن أتحدث اليوم عن هذا الأمر مرة ثانية، بطريقة رسمية. وأود أن أسالك: هل أعطيت الدكتور سيد نوفل رسالة توافق فيها على خطط الجامعة العربية؟».

الحاكم: «نعم، أعطيته رسالة أوافق فيها على التعاون مع الجامعة، وقد تم حسم الأمر».

الوزير البريطاني: «إن المعاهدة المبرمة بينك وبين بريطانيا تمنعك من الاتصال بأي أجنبي فيما يتعلق بالشؤون الخارجية، إلا من خلال المقيم السياسي البريطاني في الخليج، أو في منطقتك. وكما تعلم، فإن مصالحنا هي مصالحكم، ويجب المحافظة عليها».

الحاكم: «نحن جوعى وعطشى، والجائع يقبل المساعدة من أي دولة تعرضها».

الوزير البريطاني: «هذا لا يقع في حدود اختصاصك».

الحاكم: «جاءت بعثة الجامعة العربية قبل ستة شهور..لماذا لم تعترضوا عليها في ذلك الوقت؟».

الوزير البريطاني: «نحن نهتم بمصالحكم».

الحاكم: «هل تهتمون بمصالحكم أم بمصالحنا؟».

الوزير البريطاني: «دعنا نعود إلى الموضوع مجدداً، هل لا تزال

مصّراً على ما قلته للجامعة العربية؟».

الحاكم: «لقد تم حُسم الموضوع».

الوزير البريطاني: «إن هذا يتعارض مع المعاهدة المبرمة بيننا».

الحاكم: «لست أول من وافق على التعاون مع الجامعة العربية. وإنني أطلب ألاَ تكتفي بريطانيا بالنظر إلى قدميها فقط، بل تنظر للمستقبل، وإلا فإن مشكلة ستنشأ مثل مشكلة عدن أو البحرين».

الوزير البريطاني: «ألم توافق مشيختكم على عدم إجراء أي اتصالات خارجية قبل التشاور مع المقيم السياسي؟».

الحاكم: «لقد تعهدت بأن أهتم بمصالح بلدي قبل كل شيء آخر».

الوزير البريطاني: «ولكنك ملزم بالمعاهدة؛ وتنص المعاهدة على أن تدير بريطانيا شؤونكم الخارجية لكم».

الحاكم: «هذه ليست معاهدة عادلة لأنها أبرمت بين طرف ضعيف وطرف قوي، ويجب إعادة النظر فيها».

الوزير البريطاني: «نحن نُصِرّ على عدم فتح مكتب الجامعة العربية في المنطقة».

الحاكم: «هناك مكاتب لدول غير عربية في المنطقة، ولدى الكويت مكتب في المنطقة».

الوزير البريطاني: «إن المكتب الكويتي موضوع قديم».

وأضاف قائلاً: «إنني أطلب منك أن تفكر في الأمر ملياً، إنه موضوع خطير».

الحاكم: «إنني لا أفكر ملياً في الوقت الحاضر في أمور خطيرة أو غير خطيرة، فالذي يهمّني هو تطوير بلدي».

الوزير البريطاني: «لقد كنت موافقاً وموقعاً على قرارات مجلس الإمارات، حسبما تقرر في اجتماع الأول من مارس، على أن كل دعم يأتي من الخارج يجب من مروره عبر قنوات صندوق تنمية الإمارات».

الحاكم: «اعتبره أمراً لاغياً وغير ملزم».

وأعقب ذلك فترة صمت، نظر خلالها الوزير البريطاني حوله في الغرفة، ومن ثم استؤنف النقاش:

الوزير البريطاني: «إنك تقيم في منزل جميل، به كل التسهيلات».

الحاكم: «لست مهتماً بالمنزل، سواء كان جميلاً أو قبيحاً، ولكنني لا أريد أن أسمع الناس وهم يلعنون أبنائي بعد أن أذهب».

الوزير البريطاني: «نحن ننفق الملايين سنوياً على مئة ألف نسمة في الإمارات».

الحاكم: «هل تقصد ما تنفقونه على الجيش أو كشافة ساحل عُمان المتصالح؟».

الوزير البريطاني: «لقد أُنشئت كشافة ساحل عُمان المتصالح لحماية الحاكم في المقام الأول، وأنابيب النفط في المقام الثاني».

الحاكم: «ليس لديّ من شيء كي أشكر الحكومة البريطانية عليه على مرّ السنين».

الوزير البريطاني: «للمرة الثالثة، أطلب منك التفكير مجدداً في هذا الأمر؛ نحن لا نريد فتح مكتب للجامعة العربية».

الحاكم: «كلا، لا أستطيع أن أسحب موافقتي. وتستطيعون أن تفعلوا ما تريدونه بالقوة. وعموماً، أود أن أذكركم أن نائباً بريطانياً قال مؤخراً في البرلمان البريطاني: إن الإمارات مستقلة، ومسؤولة عن تصرفاتها الخاصة، ونحن لسنا مسؤولين عن تخلفها».

الوزير البريطاني: «كنت أنا الذي تحدث في البرلمان. ولكنني قلت إنكم مستقلون في الشؤون الداخلية، وأما بالنسبة للشؤون الخارجية والدفاع فالتي تتولاهما هي بريطانيا.. ويجب عليَّ أن أبقى مصرّاً على عدم فتح مكتب للجامعة العربية».

الحاكم: «لا أنا ولا أي حاكم عربي يستطيع أن يمنع الجامعة العربية من المجيء إلى الساحل، أو يمنع المساعدات الأخوية من الوصول إلى هنا، بينما تسمحون بالمعونات الأجنبية منكم ومن آخرين».

الوزير البريطاني: «تستطيع أن تقترض من أي مصدر، ويمكنك قبول العون من روسيا أو الصين أو أي مكان آخر، ولكننا لن نسمح بفتح مكتب للجامعة العربية، وسنمنع حدوث هذا بكل قوتنا».

الحاكم: «لقد أصبحت صداقة بريطانيا طعنة في الظهر، وحاجزاً أمام تقدمنا. ثم ما الذي يجعل بريطانيا تفتح مكتب تطوير الآن؟ إذا كان سبب ذلك الحب، فلماذا يحدث هذا الآن؟ وإذا كان الدافع هو الخوف، فالعرب هم إخواننا، ونحن لن نرفض

عونهم».

الوزير البريطاني: «أشكرك على صراحتك، ولكن لا تتعجل فتح مكتب للجامعة العربية.. وسأرفع أفكارك إلى رئيس الوزراء».

على مدى أكثر من شهر حاولت السلطات البريطانية بالترغيب والترهيب تغيير موقف الشيخ صقر بن سلطان القاسمي تجاه جامعة الدول العربية، وجعله يسحب الرسالة التي سلمها لسيد نوفل مساعد الأمين العام لجامعة الدول العربية، أو إرساله إلى الأمين العام لجامعة الدول العربية رسالة يقول فيها بأنه يقبل مساعدة جامعة الدول العربية لإمارته، ولكن على أن يحول أي تبرع من الدول الأعضاء في الجامعة إلى صندوق تطوير الإمارات.

لكن الشيخ صقر بن سلطان القاسمي كان قد أحرق جميع سفنه، ولا عودة له عما اتخذه من قرارات.

عزل الشيخ صقر وتنصيب الشيخ خالد

في العاشرة من صباح يوم الخميس الرابع والعشرين من يونيو من سنة ١٩٦٥م، خرج الشيخ صقر بن سلطان القاسمي حاكم الشارقة من الحصن بالشارقة متوجهاً إلى الوكالة السياسية البريطانية في دبي لمقابلة الوكيل السياسي البريطاني السيد «بلفور بول»، والذي طلب منه أن يزوره في الوكالة.

في الطريق إلى دبي، مرّ موكب الشيخ صقر بن سلطان القاسمي بتلة «النهدة» دون أن يلاحظ مجموعة العمال التي كانت تجمع الزبالة

هناك؛ كانت تلك المجموعة تضم جنوداً من قوة ساحل عُمان، مهمتها إعلام الوكالة السياسية البريطانية في دبي بمرور الشيخ صقر بن سلطان القاسمي عبرها متوجهاً إلى دبي.

في الوكالة السياسية البريطانية في دبي استقبل الوكيل السياسي البريطاني «بلفور بول» الشيخ صقر بن سلطان القاسمي، واصطحبه إلى مكتبه، وبعد برهة دخل ضابطان بريطانيان إلى مكتب الوكيل السياسي البريطاني، ووقف واحد منهما إلى اليمين والآخر إلى الشمال من الشيخ صقر، وقدم الوكيل السياسي البريطاني له وثيقة موقعة من أفراد من عائلة القواسم بالشارقة يرغبون في عزله والاعتراف بالشيخ خالد بن محمد القاسمي حاكماً جديداً على الشارقة.

احتج الشيخ صقر بأن الوثيقة مزيفة وغير صحيحة، لكن الوكيل السياسي البريطاني «بلفور بول» لم يعطه الفرصة لإكمال حديثة، حيث بادره قائلاً: «وبناءً على طلب الحاكم الجديد الشيخ خالد بن محمد القاسمي حاكم الشارقة أطلب منك مغادرة الشارقة فوراً».

اقتيد الشيخ صقر بواسطة الضابطين البريطانيين إلى الباب الخلفي للوكالة السياسية البريطانية في دبي، وأُركب سيارة «أوستن»، أُجلس فيها بين الضابطين البريطانيين؛ وبحراسة من سيارتي (لاندروفر) تحملان مجموعة من رجال قوة ساحل عُمان توجه الموكب إلى مطار الشارقة؛ وإلى القسم العسكري منه، حيث أركب طائرة عسكرية تابعة لسلاح الجو الملكي البريطاني، وتوجهت به إلى البحرين.

كان مطار الشارقة قد أغلق في وجه الرحلة القادمة من الكويت، حيث كان على متنها سلطان ابن الشيخ صقر بن سلطان القاسمي،

والذي ذهب إلى القاهرة لمرافقة ثلاثة من الفنيين من جامعة الدول العربية إلى الشارقة، مهمتهم إنشاء أول مكتب لجامعة الدول العربية في الشارقة، وكان مقرراً لهم الوصول إلى مطار الشارقة يوم الرابع والعشرين من يونيو من سنة ١٩٦٥م، ولكن تم تحويل وجهة طائرة الوفد، وهي في الجو، إلى مطار الدوحة بقطر، وأنزل الوفد ومعه سلطان بن صقر القاسمي هناك.

في الشارقة، كانت قوات ساحل عُمان قد طوقت الحصن، وأنزلت منه عبدالله بن سلطان أخ الشيخ صقر بن سلطان وخالد بن صقر بن محمد القاسمي ابن حاكم رأس الخيمة، الذي سارع إلى هناك بعد انتشار خبر إبعاد الشيخ صقر بن سلطان القاسمي. كما أنزل العساكر المسلحون من الحصن.

في الساعة الثالثة بعد ظهر ذلك اليوم وصل الشيخ خالد بن محمد القاسمي حاكم الشارقة في حراسة قوات ساحل عُمان قادماً من معسكر قوة ساحل عُمان بالشارقة إلى مبنى المضيف، وهو المجلس العام، حيث استقبل الشيخ خالد المهنئين في مساء ذلك اليوم.

في ٢٥ يونيو من سنة ١٩٦٥م وصلت الرسالة التالية:

من «سير وليام لوس»، المقيم السياسي لحكومة صاحبة الجلالة، البحرين

إلى سعادة الشيخ خالد بن محمد القاسمي، حاكم الشارقة، الشارقة

بعد التحية والاحترام،

إنني مُفوّض من طرف حكومة صاحبة الجلالة ملكة بريطانيا أن

أبلغكم أنهم يقدمون لكم اعترافهم الرسمي بكم حاكماً على الشارقة، ومن جانبهم سوف يوفون بكل التزاماتهم تجاهكم كحاكم بموجب الاتفاقيات المبرمة بينهم وبين أسلافكم من حاكمي الشارقة.

هذا الاعتراف قد منح بموجب التفاهم بأنكم من جانبكم تقبلون بالكامل الالتزامات المترتبة على الاتفاقيات والمعاهدات والمعاملات والجمارك، والتي تعهد بها سابقوكم من الحكام تجاه حكومة صاحبة الجلال البريطانية.

سأكون شاكراً بالإجابة على هذه الرسالة ومعناها، والتي، مع رسالتي، سوف تشكل وثيقة رسمية للاعتراف بوصفكم حاكماً للشارقة من طرف حكومة جلالتها البريطانية.

النهاية المعتادة.

توقيع: «سير وليام لوس».

وفي ٢٦ يونيو من سنة ١٩٦٥م بعث الشيخ خالد بن محمد القاسمي حاكم الشارقة بالرسالة التالية:

من الشيخ خالد بن محمد القاسمي، حاكم الشارقة

إلى سعادة «سير وليام لوس»، المقيم السياسي لحكومة جلالتها البريطانية

بعد التحية والاحترام،

لقد شُرِّفت بتسلّم رسالتكم الكريمة المتعلقة بالاعتراف الرسمي لصاحبة الجلالة بتقليدي عرش وحكومة الشارقة وملحقاتها.

وبهذه المناسبة، يا صاحب السعادة، أتقدم بخالص شكري

وتقديري لحكومة صاحبة الجلالة البريطانية، وأؤكد لكم أنني سوف أنفذ كل التعهدات والالتزامات والاتفاقات والمعاهدات والمعاملات والجمارك، والتي كانت في السابق ضمن تعهدات من سبقوني من حكام الشارقة.

وبالمثل، سوف أبقي وأحفظ تماماً الصداقة التقليدية المتوارثة التي تربط بيننا. أرجو أن تتأكدوا من أنني سوف أكون جديراً بثقتكم فيَّ.

النهاية المعتادة.

توقيع: خالد بن محمد القاسمي، حاكم الشارقة وملحقاتها.

ما أشبه الليلة بالبارحة

رئيس البلدية

في وقت الانقلاب الذي قام به الشيخ خالد بن محمد القاسمي كنت في ذلك الوقت مجتمعاً مع إدارة أحد أندية دبي الرياضية لإقامة مباراة في كرة القدم، حيث كنت رئيس «نادي النجاح» الذي استبدل الاسم فقط بدلاً من «نادي الشعب» الذي أغلق على أثر مسرحية «وكلاء صهيون».

بقي نادي النجاح لمدة سنة بدون مأوى، فاستأجرت منزلاً في حي شعبي، ومارسنا نشاطنا فيه.

كان الخبر الذي وصل إلينا ظهراً أن الشيخ صقر بن سلطان القاسمي قد عزله الإنجليز عن الحكم، فما كان مني إلاّ أن رجعت إلى بيتنا حيث علمت بما جرى.

وبعد عصر ذلك اليوم، وأنا في طريقي إلى النادي، لمحت صفوفاً من جنود قوة ساحل عُمان أمام ساحة الحصن والمضيف، فلم أعرها أي اهتمام. أمام نادي النجاح كانت هناك أرض فضاء، نصبنا بها شبكة لكرة الطائرة، وكالعادة كنا نلعب كرة الطائرة وأهالي الحي يحيطون بالملعب من جهاته الأربع، وإذا بمندوب من قبل الشيخ خالد بن محمد القاسمي حاكم الشارقة يطلبني للحضور لدى الشيخ، قلت له بأنني سأحضر بنفسي فيما بعد.

بعد صلاة المغرب ذهبت إلى الحصن لأجد شقيقي الشيخ خالد ابن محمد القاسمي جالساً مع مجموعة من الرجال. سلّمت عليه، وقد لاحظ على وجهي عدم الرضا، فانتحى بي جانباً، وقال:

«لم نخبرك لأننا نعرف رأيك».

قلت: «تأتي بأي وسيلة، إلاّ وسيلة الإنجليز».

قال: «هل أنتظر حتى يقتلني؟ أنت نفسك تشهد على ذلك عندما أُطلقت عليك النار».

قبل الانقلاب بمدة أسبوع، أو أكثر، أدخل الشيخ خالد بن محمد القاسمي زوجته مستشفى الكويت في دبي، فطلبت مني والدتي أن آخذها إلى هناك لزيارة زوجة ابنها.

أمام باب المستشفى قابلت شقيقي الشيخ خالد، فأخبرته بأنني عندما كنت راجعاً إلى بيتنا ليلاً أُطلقت عليّ النار من فوق سطح مرآب السيارات التابع للحصن.

قال الشيخ خالد:

«إطلاق النار هذا كان عليّ أنا وليس عليك، لذلك أبعدت

نفسي عن الشارقة، وانتظر أنت حتى يبعدوك».

قلت: «لا يستطيع أيّ أحد أن يبعدني عن الشارقة».

تمتم بكلمات عرفت منها أنه يبيّت شيئاً.

قلت: «تعقّل يا خالد.. لا تيتم أولادك».

كانت تلك الكلمات هي آخر ما دار بيننا من حديث قبل الانقلاب.

قال شقيقي خالد: «أراك شارد الذهن».

قلت: «أفكر في الكلام الذي قلته لك أمام مستشفى الكويت في دبي».

قال الشيخ خالد: «أريدك أن تكون معي، وفي أي منصب ترغب فيه».

قلت: «لا أستطيع..لأنني سأذهب إلى القاهرة للدراسة هناك».

قال: «حتى ولو مؤقتاً».

قلت: «البلدية».

قال: «موافق».

تسلّمت البلدية، فكنت رئيساً لها، وجعلت الشيخ سعود بن سلطان القاسمي نائباً للرئيس، حتى اكتملت مدة الشهرين.. بعدها طلبت من الشيخ خالد بن محمد القاسمي حاكم الشارقة أن يعيّن الشيخ سعود بن سلطان رئيساً للبلدية، أما أنا فقد تفرغت لدراسة مادة الرياضيات التي كانت قد شطبت عليّ درجاتها عندما كان زميلي في الامتحان يحاول أن يغش من ورقتي.

سافرت إلى الكويت، وأديت امتحان مادة الرياضيات بنجاح،

وخاطبت وزارة التربية والتعليم للإسراع في إرسال أوراقي إلى مصر، ثم تبعتها إلى هناك.

الفصل الثاني عشر

الدراسة الجامعية

الجزء الأول

وصلت إلى القاهرة في نهاية شهر سبتمبر سنة ١٩٦٥م، قبل بداية الدراسة الجامعية، حيث بدأت في أوائل أكتوبر، وبعد مدة شهر ونصف علمت بقبولي في كلية الزراعة بجامعة القاهرة.

صدفة خير من ألف ميعاد

كان أحد طلبة عُمان ويدعى محمود عبدالنبي يدرس في كلية الزراعة، وكانت له معرفة بمدير شؤون الطلبة السيد حسين جاد؛ وفي صباح أحد الأيام قال حسين جاد لمحمود عبدالنبي: «اليوم قُبل في الكلية طالب من بلادكم».

فسأل محمود عن اسم الطالب، فقال حسين جاد بعد أن قلب في أوراقه: «سلطان بن محمد القاسمي»، (كنت قد كتبت في جواز سفري: عُمان بدلاً من الإمارات).

خرج محمود عبدالنبي من كلية الزراعة، واتجه إلى سكن طلبة

الشارقة، وحصل على عنوان سكني وهو قريب من سكن طلبة الشارقة، فأخبرني بأنني قد قبلت طالباً في كلية الزراعة بجامعة القاهرة، وذاك كان مطلبي.

خرجت مع محمود عبدالنبي إلى كلية الزراعة حيث زوّدني السيد حسين جاد بالمطلوب إجراؤه لدى مسجل الكلية، والذي طلب مني عدد ثلاث صور شخصية ونتائج الفحص الطبي. خرجت مباشرة من الكلية، وسألت عن أسرع طريقة لاستخراج الصور الشخصية، فقيل لي أمام «المجمع» في ميدان التحرير.. فأُخذت لي صور بالكاميرا القديمة، فلم تكن الصور تشبهني. ومن ميدان التحرير إلى مركز الكشف الطبي في الجيزة، حيث تم الكشف عليّ وتوجيهي إلى الكشف على النظر، ومن ثم التصوير الإشعاعي، حيث تزاحم عدد من الطلبة، فخرج علينا الدكتور المسؤول عن المركز ليقول بأن أفلام الأشعة قد نفدت، وعلينا أن نحضر في اليوم التالي. خرج الجميع، وبقيت أنا أنظر إلى الدكتور، حيث قال:

«وأنت ماذا تريد؟».

قلت: «أنا لديّ وضع خاص؛ حيث لابد أن أستخرج الإقامة غداً، أو أن أدفع غرامة بمقدار خمسين جنيهاً عن التأخير.. والإقامة لا تُعطى إلا بعد استخراج بطاقة الكلية، وبطاقة الكلية متوقفة على فيلم الأشعة، فأنا على استعداد لشرائه من أي مكان..».

قاطعني الدكتور المسؤول قائلاً: «الأفلام موجودة».

فأخذني إلى غرفة الأشعة، وأمر أن تُجرى لي عملية التصوير، وأوصاني أن أرجع إليهم في صباح اليوم التالي.

في صباح اليوم التالي، أخذت أفلام التصوير الإشعاعي والنتائج الطبية، وقدمتها لمكتب التسجيل؛ حيث قبلوا كل الأوراق مني، إلا الصور التي لا تشبهني، فتدخل حسين جاد واعداً بأنني سأحضر صوراً «نظيفة» - كما وصفها - في القريب العاجل، على أن تستعمل تلك الصور مؤقتاً.. فتم تسجيلي في كلية الزراعة في أربع وعشرين ساعة، بدلاً من أن تكتب كلية الزراعة لمكتب التنسيق في القاهرة، ومنه إلى وزارة التعليم العالي في مصر، والتي بدورها تكتب لسفارة الكويت في القاهرة، وهي تنقل الموضوع إلى وزارة التربية والتعليم في الكويت، ومنها إلى مكتب الكويت في دبي، حيث سيتصلون بي في الشارقة لإعلامي بالقبول في كلية الزراعة بجامعة القاهرة.. وقد وصل لعلمي، فيما بعد، أن مكتب الكويت في دبي قد اتصلوا فعلاً بالمسؤولين في الشارقة حيث أعلموهم بقبولي بكلية الزراعة بجامعة القاهرة، ولكن بعد

أكثر من شهر من قبولي في كلية الزراعة في السنة الدراسية الأولى ١٩٦٥-١٩٦٦م.

خلال فترة دراستي في كلية الزراعة بجامعة القاهرة مرت بي أحداث كثيرة، منها ما هو بالكلية، ومنها ما هو خارجها، أصفها هنا حسب سنوات الدراسة بالكلية:

الماء الملكي

بعد تسلّم بطاقة الكلية، سارعت للحصول على جدول المحاضرات، فوجدت أن هناك محاضرة يجب أن أحضرها. أما في اليوم التالي،

فكان عليّ أن أحضر إلى الكلية في الصباح الباكر لدرس الكيمياء العملي.

دخلت إلى مبنى قسم الكيمياء واتجهت إلى أحد المعامل حيث أرشدوني؛ فلما دفعت الباب المتحرك انفتح على عدد كبير من الطلبة والطالبات يقدر باثنين وستين طالباً وطالبة، حيث كان رقمي وهو الأخير: الثالث والستون.

حضر الدكتور، وشرح الدرس العملي، ومن ثم طلب منا الكشف عن المادة المطلوبة في المجموعة السادسة؛ معنى ذلك أن هناك خمس مجموعات وعلى مدى خمسة أسابيع، مضافاً إليها الأسبوع الأول من الدراسة يكون فيه الشرح والتعريف حول الأجهزة وطرق البحث، قد فاتتني.

توزّع الطلبة والطالبات على طاولات المعمل، والمصفوف عليها زجاجات مليئة بالمواد الكيميائية.. وانهمك الجميع في المعمل؛ أما أنا فقد كنت واجماً، لا أعرف شيئاً عمّا يقومون به. مرّ بي أحد الأساتذة، وكان يدعى الدكتور ألبرت لطيف، وكان حقاً لطيفاً، شرح لي الخطوات المطلوبة، وأنا أكتب ما يقوله.. أضف من الزجاجة رقم كذا..ومن الزجاجة رقم كذا، ثم أضف ثلاث قطرات من الماء الملكي.. ثم قال:

«بعد ذلك انتظرني حتى أعود إليك».

انتهيت من العمل المطلوب، وبحثت عن «الماء الملكي» في جميع الزجاجات فلم أجده، فسألت دكتوراً آخر كان ماراً بقربي، قائلاً له:

«هو الماء الملكي زجاجة رقم كم؟».

طرق الدكتور بيده على الطاولة ليثير انتباه الطلبة والطالبات من حولي قائلاً:

«قولوا لهذا العبيط... الماء الملكي زجاجة رقم كم!».

استشطت غيظاً، وأخذت ألعنه وأنا أهمّ بالخروج من المعمل. أما هو فقد أخذ يقول:

«الله.. الله.. الله، الله.. الله.. الله!».

ندمت على ما فعلت، ولو أنني ذهبت للدكتور ألبرت لطيف لأرشدني. ما زال اليوم فيه بقية، فذهبت للدكتور ألبرت لطيف، وشرحت له ما أصابني من إهانة. فما كان منه إلا أن نادى على «عم بسطاوي».

دخل علينا عم بسطاوي، وكان رجلاً نحيفاً من أهالي «النوبة»، وقال له:

«هذا الأستاذ سلطان، طالب عندنا..من أهل الخليج. عايزك تدي له فرصة يجري العملي اللي فاته».

بعد أن سلمني الدكتور ألبرت لطيف شرح العمليات الكيميائية، قمت بإجراء تلك العمليات في المعمل، وتمكنت من فهم تلك العمليات. وكان «الماء الملكي» ما هو إلا قطرة واحدة من حامض النيتريك المركّز، تضاف إلى ثلاث قطرات من حامض الهيدروكلوريك المركّز، للكشف عن مادة الذهب، يحضّرها الطالب بنفسه، وليست في زجاجات!

في الأسبوع التالي حضرت لنفس المعمل، وكنت أكثر وثوقاً بنفسي، فأجريت التجارب المطلوبة، وبعدها خرجت إلى المدرج، حيث سبقني إلى هناك زميلي ويدعى سعيد، هو رقم اثنان وستون، حاجزاً لي مكاناً بجانبه، فسألني عن نتيجة التجربة، فقلت له كانت

مادة الذهب، وأخرجت له الورقة التي تُرصد بها النتائج.

قال سعيد: «هذه الورقة يجب أن تكون في الصندوق الذي بقرب باب المعمل».

قلت: «أنا لا أعلم ذلك، ولكني سأذهب الآن لأضعها هناك».

قال سعيد: «الآن لا تستطيع الذهاب، فالدكتور قد وصل، والمحاضرة ستبدأ، بعد المحاضرة بإمكانك أن تذهب».

بعد المحاضرة ذهبت إلى المعمل. فلم أجد الصندوق المذكور، وكان المعمل خالياً من الناس. توجهت إلى المعمل المقابل، وعندما دفعت درفة الباب، شاهدت المعمل مليئاً بالطلبة المنشغلين بتجاربهم؛ وكان شخص يجلس على منصة المعمل، لم أتبين شكله لبعده، ولكثرة الأبخرة المتصاعدة في المعمل.. توجهت إليه.. وفي منتصف المسافة، تبيَّن لي بأنه هو الشخص الذي أهانني، فتراجعت إلى الخلف، أنوي الخروج من المعمل، وإذا به ينادي:

«تعال يا بتاع الماء الملكي.. تعال.. تعال..».

اقتربت منه، وقلت له: «هل هناك مزيد من الإهانات يا أهل مصر لضيف نزل ببلادكم؟!».

قال: «لا والله».

نزل من على المنصة، وأخذني معه إلى مكتب بقرب المدخل الرئيسي للمبنى، وهناك قدّم نفسه:

«أنا الدكتور محمد إبراهيم».

قدّمت له نفسي، وشرحت له وضعي، وأثبتُّ له تأخيري بشهادة من شؤون الطلبة توضح تاريخ قبولي.

فقام، وبعد أن رصد لي الدرجة لذاك اليوم، كتب قائلاً:

غياب بعذر لستة أسابيع لتأخر القبول.

وأضاف قائلاً لي: «غياب ستة أسابيع يحرم الطالب من دخول الامتحان!».

فقلت في نفسي: «رب ضارة نافعة!».

ضحك بلا سبب

في الأسبوع الثالث، وفي المكان نفسه من معمل الكيمياء، وقبل بداية العمل، سمعت صوت الدكتور الجالس على منصة العمل ينادي بصوت غاضب:

«أنت يا ثلاثة وستين!».

لم أكن تعودت بعد على ذلك الرقم.

يعاود الدكتور: «أنت يا ثلاثة وستين!».

نبهني سعيد بأنني أنا المقصود، فخرجت إلى الممر بين الطاولات، وأشرت إلى نفسي بسبابتي، أي أنا المقصود؟

الدكتور: «خذ حاجتك واخرج من المعمل.. إنت فاكر نفسك فين.. تضحك في المعمل».

هنا تدخل سعيد جاري، وبصوت مرتفع قائلاً:

«لا.. أنا الذي كنت أضحك، هذا الإنسان لا يعرف أحداً هنا.. كيف يمزح ويضحك؟ مع مَنْ؟ هذا غريب هنا في مصر».

الدكتور: «تعال، وإنت كذلك يا ثلاثة وستين».

توقف المعمل، واصطف الطلبة والطالبات على جهتي الممر بين

طاولات المعمل، وتقدمنا نحو الدكتور، حتى إذا ما كنا أمامه، وإذا بطالب آخر يتقدم من جهة الطاولة التي كنّا عليها نحونا، ويقف أمام الدكتور، وبيني وبين سعيد، ليقول:

«أنا الذي كنت أضحك!».

شكر الدكتور الطالب الذي اعترف بذنبه، وشكر سعيد لشهامته، واعتذر لي.

سعيد الشهم انتقل من كلية الزراعة وانضم للكلية الحربية.. وفي حرب سنة سبع وستين دُفع بطلبة الكلية الحربية للمعركة، فكان من ضمن الشهداء، رحمه الله.

بين الجميلة والسبورة

انتهى الفصل الدراسي الأول، فنجحت بأربع مواد وتخلفت باثنتين.

في الفصل الدراسي الثاني، كان الاجتهاد منذ بداية ذلك الفصل، لا يلهيني عن الدراسة أي شيء إلا مرة واحدة عندما كنا في محاضرة مادة الكيمياء العضوية للدكتور ألبرت لطيف.. ومنذ بداية المحاضرة شاغلتني بنت جميلة بنظراتها، فانشغلت بنظراتها عندما كانت السبورات الثلاث خالية.. كان نصيب السبورة لمح البصر، أما هي فكانت تستحوذ على كل البصر.. وانتبهت لأجد السبورات الثلاث مليئة بمادة المحاضرة، والتي لم أعلم عنها أي شيء.

فكتبت في كراسة الكيمياء التي كنت سأكتب فيها المحاضرة القصيدة التالية:

دعـــي يا حـلوة نظراتك   دعيـــني أفهـــــم درســـي

أنـــا إنســـان لا يقســـو أخـــاف منـــك أن تقســـي
لئن رويـت الآن شتلاتي ستحجبين المـاء عن غرسي
فوجهي اليـوم به حمـرة وغـــداً يصبـح كالـورس
فمـا جئـت لنظـراتـــك حضـرت للعـلم والـدرس
فمكانـنـــا بـــه طهـــر خـــلا مـن العـار والرجـس
فكـفي خبـث المـــارد بـــدأ النـــاس بالهـمس
فبيعي للنـــاس نظـراتك أبـــت أن تشـتري نفـسي

نجحت في جميع مواد الفصل الدراسي الثاني وانتقلت إلى السنة الدراسية الثانية حاملاً معي مادتين للسنة الأولى.

نادي العروبة

في الإجازة الصيفية، وهي من منتصف يونيو سنة ١٩٦٦م، عدت إلى الشارقة لأجد نادي العروبة قد اكتمل البناء في المبنى الرئيسي منه، وبقيت المرافق، فأكملتها، وفُتح النادي، ومنه أصدرت مجلة «اليقظة» الأسبوعية، حيث كنت أطبعها بمطبعة خليفة النابودة بدبي. استمرت تلك المجلة مدة ما بقيت في الشارقة في تلك الفترة، حيث توقفت بعد عودتي إلى القاهرة للدراسة في السنة الدراسية الثانية بكلية الزراعة ١٩٦٦-١٩٦٧م، في بداية سبتمبر سنة ١٩٦٦م.

في السنة الدراسية الثانية، كانت إحدى المواد الدراسية «علم الماشية»، والماشية تعني الإبل والبقر والغنم، وكان الذي يقوم بتدريسها الأستاذ الدكتور عبداللطيف بدرالدين، العميد السابق لكلية الزراعة، وصديق الطلاب. حدّثنا يوماً عن فترة دراسته في

معهد تربية الحيوان بجامعة أدنبره باسكتلندا لنيل الدكتوراه، قائلاً:

«بعث الحاكم العسكري الإنجليزي للسودان برسالة إلى مدير معهد تربية الحيوان بجامعة أدنبره يطلب منه فيها كيفية إصلاح ماشية السودان، فما كان من مدير المعهد إلاَّ أن حوّل الطلب إلى طلاب الدراسات العليا لديه بالمعهد، طالباً منهم أن يكتبوا له تقارير عن إصلاح ماشية السودان.

أتت التقارير، فوضعها مدير المعهد جانباً، فلما احتج الطلاب على ذلك، ردّ مدير المعهد عليهم قائلاً بأن التقارير ليس بها ما يُصلِح ماشية السودان، وأمر سكرتيره أن يكتب الرسالة التالية:

إلى الحاكم العسكري الإنجليزي للسودان، إذا أردت أن تُصلِح ماشية السودان، فأصلِح أهلها أولاً».

القصر الجمهوري

كانت الروابط الطلابية، وهي بمثابة أندية للطلبة، نشيطة منذ بداية العام الدراسي؛ حيث تبدأ الانتخابات لمجالس تلك الروابط، وإذا بالمفاجأة غير المتوقعة: معظم الروابط الطلابية سقطت في أيدي الطلبة من القوميين العرب.. فكانت الاحتفالات من قبلهم نكاية في الآخرين من الوحدويين والشيوعيين. كان على الوحدويين، بعد أن خسروا كل مراكز نشاطهم، أن يستعيدوا نشاطهم، فلم يجدوا إلا مناسبة لوفاة الشهيد «المجدلي»، من الجنوب العربي؛ ليجعلوا من تلك المناسبة حدثاً يلفت الأنظار إليهم، بتنظيم مسيرة في شوارع القاهرة. لكن السلطات المصرية رفضت التصريح بذلك. فتقرر أن

يذهب محمود عبدالنبي من طلبة عُمان وأنا لمقابلة الرئيس جمال عبدالناصر.

بعد أن تسلّمنا موعد المقابلة، ذهبنا في الصباح إلى القصر الجمهوري حيث استقبلنا أحد الضباط عند البوابة، وأُدخلنا إلى مجلس بالقرب من المدخل. وما هي إلا لحظات وإذا بسيارة تأتي من مبنى القصر بها شخص مدني، لا نعرف مركزه أو رتبته، لكنه كان يُعطى التحية من العساكر على طول الطريق إلى مبنى القصر.

في القصر الجمهوري استقبلنا السيد نبيل فَتْح الباب، وأجلسنا في مجلس بالقرب من مكتبه بعد أن أخذ منا طلبنا. وبعد طول انتظار دخل علينا السيد نبيل فَتْح الباب ليقول لنا:

« إن الرئيس مشغول جداً، ويقول لكم أقيموا التأبين، ولكن لا تخرجوا إلى الشوارع ».

في نقابة الصحفيين بشارع الجمهورية أُقيم التأبين. ومن بين المتحدثين كان "أمين جدعان"، الذي خسر رئاسة رابطة الطلبة السوريين، والذي أخذ يكيل للطرف الأخر؛ أي القوميين كل ما أوتي من كلمات لاذعة، فبدأ التلاسن، ومن ثم التشابك بالأيادي، ثم عراك وقذف بكراسي مسرح النقابة، فتهشم زجاج الواجهة، وخرج الجميع إلى شارع الجمهورية. القوميون يهربون، والوحدويون يلاحقونهم، فتوقف المرور، وتجمهر المارة على الأرصفة - ذاك ما أراده الوحدويون.

الدراجة الهوائية

كان أبو قصيدة من الطلبة العُمانيين، من أهل ظفار، والطالب في

القاهرة، قد قام مع شخص من سكان صلالة بظفار بعمان - قدم إلى القاهرة بعد سجنه لفترة أيام في صلالة؛ لركوبه دراجة هوائية في سوق صلالة المزدحم؛ حيث كان ركوب الدراجات في السوق ممنوعاً.. وقد صدم أحد الأشخاص - بتكوين «جبهة تحرير ظفار». وبينما نحن نمر بأحد شوارع القاهرة، وإذا بتلك اللافتة تطل من الدور الأول من إحدى العمارات وقد كُتب عليها: «مكتب جبهة تحرير ظفار».

ذهبنا لنشاهد المكتب، وإذا بذلك الشخص الذي تعرفنا عليه قبل مدة، والذي كانت حكايته لا تتعدى ركوب دراجة هوائية في سوق صلالة وسجنه لعدة أيام، وقد صنع منها كفاحاً، وحوّل ذلك الكفاح إلى ثورة.

اتصلنا بالسيد فتحي الديب عضو الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكي، وهو في الحقيقة مسؤول ملف "حركات التحرر في العالم العربي"، وبيّنا له حقيقة ذاك الرجل، وأن ظفار جزء من عُمان. فما كان من السلطات المصرية إلا أن قامت وأغلقت المكتب.

وبعد عدة أيام أعيد افتتاح المكتب، فعلمنا أن أبا قصيدة والقوميين العرب وراء افتتاح ذلك المكتب للمرة الثانية.

مشكلة دراجة هوائية تحولت لمشكلة شعب وأمة!

حرب يونيو ١٩٦٧م

كانت الاستعدادات للحرب قائمة، و ما إن بدأ شهر يونيو سنة ١٩٦٧م حتى بدأت معه امتحانات الفصل الثاني للسنة الثانية في كلية الزراعة.

كنا قد امتحنا في بعض المواد عندما سمعنا صوت المدافع ظهر يوم الخامس من يونيو سنة ١٩٦٧م. خرجت إلى الشارع فوجدت الناس تهلل وتكبر، وكان آخرون ينظرون إلى السماء محاولين مشاهدة بعض الطائرات الحربية وهي تحلق على ارتفاع عالٍ في يوم مغبر.

توجهت إلى حي العجوزة، وإلى بيت يوسف الحسن ورياض أبو محمود، وهو زميلي في كلية الزراعة، ومن هناك إلى مبنى الاتحاد الاشتراكي لمقابلة السيد فتحي الديب.

وهناك تجمّع الطلبة من جميع البلاد العربية، وتقرر أن ننضم إلى المتطوعين من الرجال الذين يطلبون نقلهم إلى الجبهة. لم نكن قد خضعنا لأية دورة عسكرية تدريبية، فلذلك تقرر نقلنا إلى معسكر بني يوسف في الهرم. وعلى مدى يومين تعلمنا وتدربنا على السلاح، ثم أتت الأوامر بنقلنا إلى المعسكر المقام في نادي الجزيرة.

وبعد يومين آخرين من التدريبات، جاءت المفاجأة مساء يوم التاسع من يونيو سنة ١٩٦٧م: تنحي الرئيس جمال عبدالناصر!

خرجت الجماهير الغفيرة تتدافع بعد أن ملأت الشوارع، وغابت شمس ذلك اليوم ودخلنا في ظلام دامس؛ حيث أطفئت جميع الأنوار، فلم أستطع أن أتقدم أي خطوة للأمام لوجود كتل من البشر تملأ الشوارع، فجلست على دكة برصيف شارع الجيزة، من بعد جسر الجلاء، وكانت الناس تمر أمام ناظري، فجادت القريحة:

بلادي فيك سر عجيب

صاحب الدار فيك غريب

من أولج الفجر فيك بالمغيب

من أذاب الضحـــك فيك بالنحيب

إنه مني ومنك ومن كل قريب

من عـــدو أشـــهر اليـــوم ســهامـــه

يا ندامه يا بلادي، يا ندامه

الصغيـرات ببــراءة الطفـولة

وفتـــاة بمشـيتهـــا خجـــولـــــه

وفتيـــان بكامـــل الرجـولة

وشـــاب كـــم أحجـــم ميولـــه

وشيـخ لم يـــأبــه بالكهــولـة

كلهـــم سلبـــوا الابتســــامـه

يا ندامه يا بلادي، يا ندامه

القمـري كـــان هنـــا يغـــني

فـــوق كـــــل بيـــت وغصـــــنِ

وأتـــــت البــــــومة تعـــنّي

تــــــدك آثـــار من بنـى ويبـــني

تزيّف التاريخ تسرق كل لحن

فوجـــودهـــا بيننـــا لـــه عــــلامه

يا ندامه يا بلادي، يا ندامه

وشـــاب بيـــن الطرقـــــات

تـــرك أمـــا وأبـاً كسيحـاً وأخـــوات

ومضـــى نحـــو تلك الحانات

همـه قمـــار وحشيش ومسكرات

ليتـه قبـل أن يــولد مـــات

هجــر البيـــــت بـــلا شهـــامه

يا ندامه يا بلادي، يا ندامه

حتى السماء بخلت عليهم بالمطر

وآبـار مــاء غـــدت كمـاء البحــر

والقطيـع يـلهث بلا مفـــر فوق

الـرمـال وفي السهـول وبـين الصخر

والراعـــي يشـــكو القــــدر أين

القطيــع؟ غطت الأرض عظـــامه

يا ندامه يا بلادي، يا ندامه

نسجت بأرضي خيوط العنكبوت

وهنـــاك حـــاجز بيــن البيـــوت

ومريض في الفراش وآخر يموت

ومشـــلول يجـــلب للعيـــال قــوت

حبــة تمــــر ورغيف وحوت

والنـــاس تضحـــك بـــلا ملامـه

يا ندامه يا بلادي، يا ندامه

يا أخي قم بنـا نمحـو الضـرر

يــا أخـــي لا تقـــل هــذا قـــدر!

بالأمل،بالعمل نبلغ نيل الظفر

بالصفــا، بالــوفــاء نبلـغ المنتظــر

فـــالله بالإيمــــان نَـصَــــر

يـا أخـي قم بنــا نرعى الكــرامـه

بالشهامه يا بلادي، بالشهامه

تقرر استئناف الامتحانات في الجامعات، فلم أوفق في اجتياز بعض المواد للحالة النفسية التي كنت فيها. سافرت بعد ذلك إلى الشارقة، لأجد بعض الحوادث التي جرت هناك قبل قدومي إلى الشارقة.

بتاريخ ٧ يونيو سنة ١٩٦٧م تجمعت الناس القادمة من جميع الإمارات أمام مبنى مكتب الكويت في دبي مطالبة بنقلها إلى الكويت للتطوع في الجيوش المصرية. الكابتن عبدالعزيز بن محمد القاسمي والكابتن فيصل بن سلطان القاسمي استقالا من قوة ساحل عُمان من ضمن الجماعات المطالبة بالتطوع في الجيوش المصرية على مدى أربعة أيام بالهتافات والسب واللعن على بريطانيا وأمريكا، بدون فائدة، فلم تفتح الكويت باباً لنقل تلك الأعداد إلى الكويت.

أما في الشارقة، ففي مساء يوم السابع من يونيو سنة ١٩٦٧م شبت النار في النادي البحري قبالة الحيرة، والتابع لقوة ساحل عُمان والقوات الجوية البريطانية. كانت النيران قد التهمت المبنى الذي كان مبنياً من السعف وبعض الزوارق، قبل أن تصل سيارة المطافئ التابعة للقوات الجوية البريطانية لإطفاء الحريق. و ما إن وصلت سيارة المطافئ حتى بدأ المتجمهرون هناك برشق السيارة بالحجارة، مما اضطر تلك السيارة لفتح خراطيم مياهها على المتجمهرين، بدلاً من الحريق.

وفي اليوم الثامن من يونيو تم اكتشاف قطع الأسلاك بين إذاعة «صوت الساحل» ومحطة الإرسال، فتوقفت عن البث ليوم كامل. تلك الإذاعة أنشأها الإنجليز في القاعدة البريطانية في الشارقة، وتذيع

باللغة العربية.

زيارة لمدينة كراتشي

لم أطق سماع الأخبار في الشارقة والتي كانت تتناقلها الألسن ساعة بساعة عن الحرب ومجريات الحرب، فقررت أن أسافر إلى باكستان، وإلى مدينة كراتشي تحديداً.

مكثت مدة عشرة أيام في مدينة كراتشي، اطلعت خلالها على معالم المدينة وهي ليست كثيرة؛ أهم ما فيها مسجد حي الدفاع، المبني على شكل قبة كبيرة، بدون أعمدة، ويستوعب آلافاً من المصلين، لكن ما كان به وقت صلاة المغرب إلا عدد قليل من المصلين. كان ذاك المسجد في أرقى حي من أحياء مدينة كراتشي، حي الدفاع في شرق المدينة، حيث كان مبنياً على أرض مرتفعة، وشوارع الحيّ نظيفة، وبيوته جميلة، تزينها الحدائق، وتتدلى الأشجار المزهرة من فوق أسوارها.

في اليوم التالي ذهبت في المساء إلى أفقر حي في كراتشي، يقال له لياري في غرب المدينة، ويمتد لعدة كيلومترات. أوقفت السيارة وترجلت وجلت بين طرقاته. كانت بيوته مبنية من الصفيح والعشش، طرقاته طافحة بالمجاري ذات الرائحة الكريهة.

هدم البيوت في حيّ الشرق

عدت إلى الشارقة لأيام معدودة، ثم ارتحلت مع شقيقتي ناعمة وأولادها، أولاد الشيخ سعود بن سلطان القاسمي، إلى الهند لنقضي بها عدة أسابيع. لم يحضر الشيخ سعود معنا في تلك الرحلة لأنه كان

مشغولاً بقضية البلدية وسكان حي الشرق، فهو رئيس البلدية.

عندما عدت إلى الشارقة، تحدثت مع الشيخ سعود بن سلطان القاسمي عن موضوع المشكلة، وتبين لي بأن مختار التوم مدير بلدية الشارقة، وباتيا الهندي مسؤول التخطيط في البلدية، وإبراهيم الكردي مدير دائرة الأراضي، قد قرروا هدم أجزاء من حي الشرق تقدر بأربعين بيتاً دون تعويض، وأن الأهالي يرفضون هدم بيوتهم ويهددون بأنهم سيرحلون إلى دبي.

قابلت الشيخ خالد بن محمد القاسمي حاكم الشارقة، وأقنعته بتأجيل الهدم حتى تتوفر السيولة المطلوبة للتعويض، ومعنى ذلك بأن البيوت لن تهدم. اتصلت بالأهالي أصحاب البيوت المهددة بالهدم، وأقنعتهم بالعدول عن موضوع الرحيل من الشارقة؛ حيث كان بيني وبينهم ود؛ حيث عملت مدرساً في المدرسة الصناعية في ذلك الحي لمدة ثلاث سنوات.

لاظوغلي

عدت إلى القاهرة لأكمل دراستي في المواد المتبقية من السنة الدراسية الثانية (١٩٦٧-١٩٦٨م) في كلية الزراعة، فأرسل لي شقيقي الشيخ خالد بن محمد القاسمي سيارة «مرسيدس» بيضاء اللون، طرازها لسنة ٦٨، وقد نزل في الأسواق مبكراً.

وكان لديّ من المواد الدراسية عدد قليل، لذلك استثمرت الوقت لدراسة النقوش الإسلامية على المساجد والمباني التراثية. كانت سيارتي لافتة للنظر، تتوقف كثيراً أمام المساجد والمباني التراثية،

ينزل منها شاب يتفحص تلك المباني بنظره ومن ثَم يدخلها، ومرات يصعد كومة زبالة قد غطت جزءاً من المبنى. تعب رجال المخابرات الذين كانوا مكلفين بمراقبتي؛ حيث كانت سيارتي أسرع منهم، بما اضطر المباحث العامة إلى أن تكلف الرائد شوكت حسني - المكلّف بمتابعة نشاط الطلبة العرب، وقد التقيته مرات عدة في بعض المناسبات، وكان اللقاء بالتحية فقط - أن يتصل بي، حيث قال لي: «أريد أن أتعرف عليك!».

قلت: «بشرط، أن تزيل الظل الذي يتبعني!».

قال: «ذاك أمره لدى "الراجل الكبير».

قلت: «من؟! عبدالناصر؟!».

قال: «لا.. الراجل بتاعنا في لاظوغلي».

قلت: «أين؟!».

قال: «في المباحث العامة».

رتّب لي الرائد شوكت حسني لقاء اللواء محمود شعراوي؛ رئيس شعبة مجموعة النشاط العربي، فاستقبلني استقبالاً حسناً، ثم طلب أحد الموظفين، فلما حضر، قال له:

«هات لي ملف سلطان».

قلت: «هو أنا لي ملف عندكم؟».

قال: «طبعاً، لكل واحد ملف».

وفي لمح البصر حضر الملف، وكأنما قد كان محضراً لذاك اللقاء.

فتح الملف، وأخذ اللواء محمود شعراوي يقلب صفحاته، ويقرأ أجزاءً منه قائلاً:

«في يوم كذا زار المكان كذا».

وأخذ يعد الأماكن التي كنت أزورها، ثم قال: «أنت بتعمل إيه؟».

قلت: «أتعرّف على مصر».

قال: «تتعرّف على مصر من هذه الأماكن؟».

قلت: «تريدني أن أتعرّف عليها من شارع الهرم؟!».

(شارع الهرم مليء بالملاهي الليلية).

قال: «استغفر الله!».

وقف مودعاً، وما زال الملف مفتوحاً.

قلت: «هل سيبقى الملف مفتوحاً؟».

همّ بإغلاق الملف، قائلاً: «سنغلقه!».

قلت: «بالطريقة الأخرى؟!».

قال: «وبالطريقة الأخرى كذلك».

عبدالعزيز نائباً للحاكم في خورفكان

نجحت في المواد المتبقية لي من السنة الدراسية الثانية، وعدت إلى الشارقة في منتصف يونيو سنة ١٩٦٨م؛ لأجد الخلاف بين الأخوة الثلاثة قائماً؛ فصقر نائب الحاكم قد ابتعد عن أخيه الشيخ خالد بن محمد القاسمي حاكم الشارقة لعدم انسجامه مع السيد جاسم بن سيف المدفع سكرتير الحاكم.

بقي الشيخ عبدالعزيز بدون عمل في وقت كان الشيخ خالد بن محمد القاسمي ينوي تأسيس شرطة الشارقة. وبمراجعة الوكيل

السياسي البريطاني في دبي، رحب الوكيل السياسي بالفكرة. وعندما عرض الشيخ خالد موضوع تكليف عبدالعزيز بتأسيس الشرطة، اعترض الوكيل السياسي البريطاني قائلاً بأن تأسيس مؤسسة شرطية يتطلب شخصاً متخصصاً في ذاك المجال. وسارع الإنجليز بإحضار السيد «بيرنز» «Burns»، بريطاني الجنسية، فعيّن الشيخ خالد السيد «بيرنز» قائداً لشرطة الشارقة.

عاود الشيخ خالد وأخبر الوكيل السياسي البريطاني بأنه سيعّين الشيخ عبدالعزيز رئيساً للشرطة، على أن يكون «بيرنز» تابعاً لعبدالعزيز. وهنا اعترض الوكيل السياسي البريطاني فأخبر الشيخ خالد بأن «بيرنز» يتلقى الأوامر من الشيخ خالد حاكم الشارقة فقط ولا غير، ولا داعي لتعيين عبدالعزيز.

في بداية شهر مايو سنة ١٩٦٨م عين الشيخ خالد بن محمد القاسمي الشيخ عبدالعزيز بن محمد القاسمي نائباً للحاكم في المنطقة الشرقية ومقره في خورفكان، بدلاً من عثمان باروت والذي نُقل إلى وظيفة أقل من السابقة.

حدث شجار في سوق خورفكان، بعد أن تولى الشيخ عبدالعزيز المسؤولية، والذي كان السبب في إثارته الجدال الذي حدث بين الحلاق الهندي وأحد المواطنين حول سعر المانجو لدى الهندي بائع الفواكه. وتحول الجدال إلى تشابك بالأيادي بين المواطن والحلاق. وكان مقص الحلاق في يده فجرح المواطن فاستنجد بالمواطنين الحاضرين في سوق خورفكان، فحدث عراك بسيط بين الهنود والباكستانيين من أصحاب المحلات التجارية، والمواطنين الحاضرين

في السوق من أهالي خورفكان. تأثرت بعض المحلات التجارية تأثراً لا يُذكر، فما كان من عبدالعزيز إلا أن ألقى القبض على ثمانية وعشرين من مواطني خورفكان الذين كانوا بالسوق بواسطة مجموعة من العساكر قد بدأ بتكوينها لنفسه كنواة لفرقة من الشرطة، وزج بالمواطنين في السجن. ما إن وصل الخبر إلى الشيخ خالد حتى أمر بإطلاق سراحهم جميعاً. الشيخ عبدالعزيز يدّعي بأن الشيخ خالد كسر هيبته في المنطقة الشرقية، وأن عثمان باروت هو السبب في توصيل الخبر إلى الشيخ خالد في الشارقة.

كنت نائباً للحاكم

طلبني الشيخ خالد بن محمد القاسمي حاكم الشارقة ليعرض عليّ أن أنوب عنه في فترة غيابه في إنجلترا، فطلبت منه أن أصلح بينه وبين شقيقه الشيخ صقر قبل سفره، فوافق على ذلك. اتصلت بصقر وعرضت عليه الأمرِ فرفض أن يذهب إلى الشيخ، وقال: «إن الواجب عليه أن يأتي هو إليّ».

قلت له بأنه سيأتي إليك بينما نحن نكون جالسين في حجرة الجلوس في السكن الخاص بالقصر، وسيدخل علينا الشيخ خالد. فوافق على ذاك الترتيب.

كنا جالسين في حجرة الجلوس عندما دخل علينا الشيخ خالد؛ فتمت مصافحة الشيخ صقر لشقيقه الشيخ خالد. تحدّث الشيخ خالد في أمور بعيدة عما نحن بصدده، فتقدمت من الشيخ خالد قائلاً:

«اسمح لِي يا طويل العمر... لقد كلفتني أن أنوب عنك، وكان ذلك وقت الخلاف بينك وبين صقر، والآن والحمد لله زال كل الخلاف بلقائكما، فهل لديك يا أخ صقر أيّ اعتراض على هذا التكليف؟».

الشيخ صقر: «لا، ليس لديّ أيّ اعتراض، أنا أو أنت كله واحد».

ولما هممنا بالخروج، قال الشيخ خالد: «هل تتناولان الغداء معي؟!».

قلت: «الأخ صقر دعاني لتناول الغداء معه».

تقرر سفر الشيخ خالد بن محمد القاسمي حاكم الشارقة في الأسبوع الأول من يوليو سنة ١٩٦٨م. كان هناك حشد كبير في وداع الشيخ خالد بن محمد القاسمي حاكم الشارقة في مطار دبي. حضر الشيخ عبدالعزيز متأخراً وقبل إغلاق باب الطائرة فأسرع إلى الطائرة، وهناك ودّع الشيخ عبدالعزيز الشيخ خالد، قائلاً:

«أتأمر بشيء يا طويل العمر؟».

الشيخ خالد: «كما أخبرتك سابقاً... أنت مسؤول عن الحكومة في المنطقة الشرقية، ولا شيء غير ذلك».

الشيخ عبدالعزيز: «ماذا أفعل لو حدثت اضطرابات في الشارقة؟».

الشيخ خالد: «سلطان بن محمد سيتصرف معها».

غاب الشيخ خالد مدة ستة أسابيع عن الشارقة، قضاها في لندن. أما في الشارقة، فقد حدثت في تلك الفترة حادثة غريبة، اضطرتني إلى أن أركب سيارة لاندروفر، ومعي بعض العساكر، لأقطع بها تلك

الرمال الملتهبة بحر الصيف إلى منطقة "مليحة" والتي تبعد أربعين كيلومتراً من مدينة الشارقة، حيث كان البدو المسلحون يحيطون بالمكتب الزراعي في مليحة.

عند وصولي إلى مليحة، تحدثت مع زعيمهم عوض بن سيف الخاصوني، فأخبرني بأن الشخص الباكستاني الذي يختبئ بالمكتب الزراعي لدى الإنجليزي مدير المكتب الزراعي، قد فعل في ناقة، ولابد للإنجليزي أن يسلمه له.

أقنعت عوض بن سيف بأنني سآخذ الباكستاني إلى الشارقة لينال عقابه، وأن يأتي هو (عوض بن سيف) معي ليشاهد ذلك العقاب بنفسه.

بمجموعة العساكر التي كانت معي تسلّمت الباكستاني من مدير المكتب الزراعي، وأركبته مع العساكر في السيارة التي أتيت بها. أما عوض بن سيف فقد جلس معي في السيارة، حتى إذا ما وصلنا إلى الشارقة أمرت بإدخال الباكستاني إلى المحكمة؛ حيث كان قاضي المحكمة الشرعية الشيخ محمد التندي، مصري الجنسية، والذي أوصيته أن يخبرني بالحكم قبل تنفيذه.

وبينما كنت أنتظر ورود خبر إصدار الحكم على الباكستاني رنّ جرس الهاتف وإذا به مساعد الوكيل السياسي البريطاني السيد «تي. جي. كلارك» «T.J.Clark»، وهو رئيس الاستخبارات لإمارات الساحل، وكان ينوب عن الوكيل السياسي البريطاني «ديفيد روبرتس» «David Roberts»، والذي انتهت مدة خدمته في الإمارات، ولم يحضر بعد من عُيِّن مكانه.

بعد أن ألقى عليّ التحية، قال مساعد الوكيل:

«يا شيخ سلطان. الهنود والباكستانيون تحت الحماية البريطانية، ولا يجوز معاقبتهم عن طريق المحاكم المحلية، ولكن عن طريق الوكالة السياسية البريطانية».

قلت: «لقد قام الباكستاني بفعل خسيس ولابد من معاقبته شرعياً، حيث إنه مسلم».

مساعد الوكيل: «نحن سنحاكمه.. أنت لا تعرف الاتفاقيات بين بريطانيا وشيوخ الإمارات».

قلت: «ليس لديّ مانع، ولكن بعد أن تفتح محكمة شرعية في الوكالة السياسية البريطانية».

رن جرس الهاتف مرة ثانية، وإذا به الشيخ محمد التندي، وهو يقول: «الحكم مئة جلدة!».

قلت: «نفِّذ!».

في صباح اليوم التالي، شاهدت رتلاً من الدبابات يخترق شارع العروبة من الشمال إلى الجنوب من مدينة الشارقة.. فاتصلت بالسيد «كلارك» مساعد الوكيل السياسي البريطاني في دبي، قائلاً:

«هذه الدبابات التي تخترق المدينة الآن. هل هي نوع من التهديد لي ؟!».

السيد «كلارك» مساعد الوكيل: «لا.. لا أعرف عنها أي شيء!».

قلت: «والله إذا لم يتوقف هذا الاستفزاز، فسأُخرج البلد كلها لرجم تلك الدبابات بالحجارة».

السيد «كلارك» مساعد الوكيل: «لا تربكنا بتصرفاتك.. أنا

سأزورك الآن».

بعد نصف ساعة وصل السيد «كلارك» مساعد الوكيل، فاستقبلته في مكتبي في المضيف، حيث توجد معظم الدوائر الحكومية، ودار الحديث التالي بيننا:

قلت: «لولا تصرفي في مليحة لتعرض الباكستاني والإنجليزي للقتل، وبدلاً من ذلك كانت مئة جلدة نفض الباكستاني قميصه بعدها».

السيد «كلارك» مساعد الوكيل: «أشكرك على هذا التصرف».

قلت: «وتكافئني بأن ترسل الدبابات إلى الشارع العام في وسط المدينة؟!».

السيد «كلارك» مساعد الوكيل: «ليس لديّ علم بتلك الدبابات. ولما سألت عنها قيل لي بأنها دبابات تابعة للقوات البريطانية، أنزلت في منطقة الحيرة بالشارقة، وكانت متوجهة إلى القاعدة البريطانية».

قلت: «آسف عن الكلام الذي بدر مني في هذا الصباح».

السيد «كلارك» مساعد الوكيل: «لا بأس.. لكن أطلب منك أن تتخذني صديقاً لك، تراجعني في بعض المسائل التي لربما تصعب عليك».

قلت: «لنبقى أصدقاء».

السيد «كلارك» مساعد الوكيل: «هذه الليلة سيصل إلى مطار دبي قادماً من بريطانيا الوكيل السياسي البريطاني الجديد، السيد «جوليان بولارد» «Julian Bullard»، وأريد أن تكون

معي في استقباله».

قلت: «سأكون هناك قبل وصول الطائرة».

عند سلم الطائرة، صافح السيد «كلارك» مساعد الوكيل الوكيل السياسي الجديد، وقدمني له، قائلاً:

«هذا الشيخ سلطان بن محمد القاسمي، شقيق حاكم الشارقة ونائب الحاكم بالشارقة، لكنه تربية مصر».

ونحن في طريقنا إلى صالة التشريفات، قدمت نفسي قائلاً:

«أنا من مواليد الشارقة، وتربيت فيها، وتعلمت في مدارسها، وعملت مدرّساً في المدرسة الصناعية التابعة للوكالة السياسية البريطانية، لمدة ثلاث سنوات، ذهبت إلى مصر في الآونة الأخيرة لإكمال دراستي الجامعية».

عاد الشيخ خالد بن محمد القاسمي من لندن إلى الشارقة، وقبل أن أستأذنه بالسفر إلى مصر لإكمال دراستي الجامعية هناك طلب مني يسري الدويك، مستشار الشيخ خالد القانوني، أن يقابلني لأمر هام.

وعند مقابلته، عرض عليّ وظيفة نائب الحاكم في المنطقة الشرقية بدلاً من الشيخ عبدالعزيز، فرفضت ذاك العرض بحجة أنني سأكمل دراستي.

في اليوم التالي عرض عليّ يسري الدويك منصباً آخر، وهو نائب حاكم الشارقة، قائلاً:

إن الأمر لا يتطلب مرسوماً جديداً، فأنت ما زلت نائب الحاكم.

قلت: « أين ذهب الشيخ صقر والشيخ عبدالعزيز لآخذ مكانهما؟».

قال : « لقد ساءت العلاقة بينه وبينهما، ولم يبق إلاّ أنت».

قلت : « أعتذر عن ذلك، وأنا الآن مسافر إلى القاهرة».

ودّعت الشيخ خالد في الصباح الباكر، دون أن أفتح موضوع المنصب الجديد.

الفصل الثالث عشر

الدراسة الجامعية

الجزء الثاني

في شهر سبتمبر سنة ١٩٦٨م وصلت إلى القاهرة لأبدأ الدراسة في السنة الدراسية الثالثة ١٩٦٨-١٩٦٩م بكلية الزراعة، وفي الفصل الدراسي الأول منها.

القرافة ومجرى العيون

زارني شقيقي الشيخ صقر بن محمد القاسمي في منزلي بالقاهرة في شهر رمضان من تلك السنة، وقد حضر من المطار مباشرةً.. وهو يتأفف. وبعد أن حييته سألته:

«ما بك؟».

قال: «بلد تدخلها بالمقابر والروائح الكريهة».

عرفت لماذا كان يتأفف؛ حيث إن صاحب سيارة الأجرة قد أتى به من المطار عن طريق صلاح سالم، حيث القرافة — أي المقابر - ومرّ كذلك بمجرى العيون، حيث المدابغ التي تنبعث منها الروائح

الكريهة.

قلت: «بعد أن تستريح سأخذك للتفرج على القاهرة».

بعد أن استراح قليلاً، أخذته إلى مدخل القاهرة من ناحية المطار، ومن ثمّ رجعنا بشارع العروبة، ومنه إلى مصر الجديدة حيث المباني الجميلة والشوارع الحديثة المزيّنة بالأشجار على أرصفتها، وعدنا إلى المنزل لتناول طعام الإفطار.

بعد الإفطار، قلت له سأخذك إلى الحسين لصلاة التراويح في مسجد الحسين.

كانت الساحات والشوارع العامة مليئة بالبشر، تنتظر إقامة صلاة العشاء، ومن بعدها التراويح. بعد أداء الصلاة انفضّ الناس كأنهم جراد منتشر. كان هناك معرض للكتاب، ومسرح مؤقت تعرض عليه الفرق الشعبية فنونها. وقتها كان زكريا الحجاوي قد عاد من الأرياف ليقدّم لنا المغنية الريفية «خضراء» وفرقة «البحيرة» برقصاتها على الدفوف.

وما هي إلاّ عدة أيام وإذ بصورة القرافة قد غطتها صور المباني التراثية الجميلة بالقاهرة، وإذا بالروائح الكريهة للمدابغ تزول وتحل محلها الروائح الزكية لحدائق القاهرة وبساتينها.

ما أكثر المؤمنين فيك يا مصر

بعد تقديم الامتحان للفصل الأول من السنة الدراسية الثالثة، والنجاح في جميع المواد، انتقلنا إلى الفصل الدراسي الثاني من السنة الدراسية الثالثة.

الوفد في مطار الكويت، يتوسطهم السيد سالم بن عبدالله المحمود.

المخيم الكشفي العاشر بالكويت.

قيادة فرقة كشافة المدرسة القاسمية بالشارقة للعام الدراسي

١٩٥٥ – ١٩٥٦م.

فريق كرة القدم بالمدرسة القاسمية بالشارقة للعام الدراسي

١٩٥٥ – ١٩٥٦م.

الطالب سلطان بن محمد القاسمي بالمدرسة القاسمية بالشارقة سنة ١٩٥٦م.

سلطان بن محمد القاسمي ، في فريق وزارة الأشغال البريطانية في القاعدة البريطانية، وجميعهم يعملون هناك، سنة ١٩٥٦م.

مربض الطائرات الحربية البريطانية.

سلطان بن محمد القاسمي – جابر عثرات الكرام في مسرحية «المروءة المقنّعة».

تريم بن عمران بن تريم – الخليفة، يحاكم جابر عثرات الكرام – سلطان بن محمد القاسمي ، بعد أن أخرج من سجنه.

سلطان بن محمد القاسمي عند زيارته لقطر في يونيو ١٩٥٨م.

الشيخ محمد بن صقر القاسمي ، اللواء رحماني ، الشيخ خالد بن محمد القاسمي، السيد عمران بن تريم في طهران سنة ١٩٥٧م .

قلعة الشيخ سلطان بن أحمد المرزوقي شيخ مغوه.

طهران – إيران : سنة ١٩٥٩م : على السور : سلطان القاسمي ، وإلى يمينه : محمد الشامسي ، تريم عمران ، وشاهيني – صاحب صحيفة اطلاعات بإيران . وعلى الأرض : عبدالله عمران وإلى يمينه : يعقوب الدوخي .

النادي الثقافي في الشارقة في فترة إغلاقه .

النادي الثقافي في الشارقة بعد افتتاحه ثانية في سنة ١٩٥٩م.

سلطان بن محمد القاسمي قائد الكشافة في استعراض في المهرجان الرياضي لسنة ١٩٥٨م.

سلطان بن محمد القاسمي الأول في سباق ١٠٠م في المهرجان الرياضي لسنة ١٩٥٨م.

سلطان بن محمد القاسمي يستلم الجوائز من حاكم الشارقة في المهرجان الرياضي لسنة ١٩٥٧م، ويظهر في الصورة (على اليمين) الاستاذ فايز ابو النعاج والأستاذ محمد ذياب الموسى .

سلطان بن محمد القاسمي الثاني في القفز العالي.

سلطان بن محمد القاسمي الأول في الموانع في المهرجان الرياضي لسنة ١٩٥٧م، والصورة لقفزة خلال الطوق الملتهب.

طلبة منزل رقم ١٢ في يوم رياضي.

احتفالات الشارقة بإعلان الوحدة الثلاثية بين مصر وسوريا والعراق.

احتفالات الشارقة بإعلان الوحدة الثلاثية بين مصر وسوريا والعراق.

فريق دبي لكرة القدم سنة ١٩٥٥م.

فريق نادي الشعب سنة ١٩٦٣م.

فريق نادي الشعب لكرة الطائرة مع فريق النادي العماني لكرة الطائرة.

المضيف، حيث يوجد مجلس الشيخ صقر بن سلطان القاسمي حاكم الشارقة.

الساحة أمام المضيف والحصن مزدحمة بالمواطنين من الشارقة لاستقبال السيد عبدالخالق حسونة الأمين العام لجامعة الدول العربية.

قوة ساحل عمان لمرافقة الشيخ خالد بن محمد القاسمي الحاكم الجديد للشارقة إلى المضيف بالشارقة.

الشيخ خالد بن محمد القاسمي حاكم الشارقة.

الطالب سلطان بن محمد القاسمي في سنة أولى بكلية الزراعة – جامعة القاهرة، في العام الدراسي ١٩٦٥ – ١٩٦٦م.

في كلية الآداب بجامعة القاهرة في سنة ١٩٦٩م.

سلطان بن محمد القاسمي في مسكنه في حيّ الدقي.

سلطان بن محمد القاسمي مع زملائه في بساتين كلية الزراعة ، سنة ثالثة.

الصورة التي التقطت قبل إلقاء القبض على الطالب سلطان بن محمد القاسمي.

المهندس الزراعي سلطان بن محمد القاسمي في إحدى التجارب.

الشهيد الشيخ خالد بن محمد القاسمي حاكم الشارقة.

الشيخ سلطان بن محمد القاسمي حاكم الشارقة يتقبل العزاء

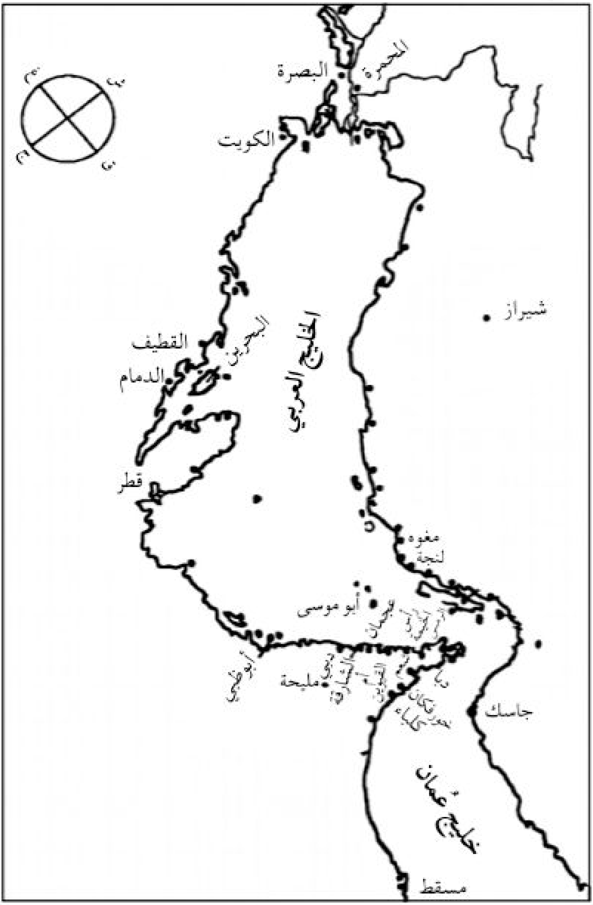

خارطة الخليج العربي.

في تلك الفترة زار القاهرة السيد عمير بن عبدالله الفلاسي، وكان نزيلاً في فندق عمر الخيام. ونتيجة للازدحام الشديد على الفنادق بالقاهرة قام أصحاب الفندق ببناء غرف إضافية من الخشب في حديقة الفندق. كان السيد عمير بن عبدالله أحد النازلين في إحدى تلك الغرف الإضافية؛ وحيث إنها مبنية من الخشب، فلم تكن تصدّ الأصوات العالية.

كان السيد عمير، عندما زرته في غرفته، يشتكي من أصوات الطبول والدفوف والرقص والغناء كل ليلة..وعندما أراد أن يضيّفني، أخذني إلى المبنى الرئيسي للفندق حيث صالة الطعام.

و ما إن دخلنا إلى صالة الفندق، وإذا بزفة عروس بالدفوف والمزامير تصك الآذان وهي نازلة من أعلى السلالم، تتقدمهم راقصة لا يسترها إلاّ القليل، وإذا بها في مواجهتنا، فأردنا الابتعاد، وإذا بالمدعوين للفرح من خلفنا فلم نجد بداً من أن يكون واحد منا عن يمين العروس والآخر عن شمال العريس حتى انتهت الزفة.

قال لي السيد عمير بن عبدالله بعدها:

«هل هذا يجوز؟!».

قلت:«هل تصلّي معي الجمعة غداً؟».

قال: «نعم».

وقبل صلاة الجمعة، اصطحبت السيد عمير بن عبدالله إلى شارع قصر النيل حيث مقهى« الدار البيضاء» لصاحبه محمد عبدالسلام، وأخذت منه سجادتين كنت قد طلبت منه صباح ذلك اليوم أن يحضّرهما لي.

ذهبنا لنصلّي بمسجد «الرحمة» في شارع ابن ثعلب المتفرع من شارع قصر النيل، ولم نستطع الوصول إلى المسجد ففرشنا السجادتين حيث انتهت صفوف المصلين. وقتها كانت جموع المصلين تردّد خلف دعاء الخطيب:

- آمين.. آمين.. آمين.. آمين!

قال السيد عمير بن عبدالله: «أين المسجد؟».

قلت: «بعيد».

قال: «ما أكثر المؤمنين فيكِ يا مصر!».

رابطة طلبة عُمان

رابطة طلبة عُمان، والكائنة في شارع الجمهورية، لم يكن بها أي طالب ينتمي للقوميين العرب سوى أبو قصيدة - أحد الطلبة العُمانيين من منطقة ظفار، وفي الانتخابات التي تجريها الرابطة لا يملك إلا صوته؛ فأخذ يعمل على إدخال مجموعة من الطلبة العُمانيين والزنجباريين الذين يدرسون في مدارس مصر في المرحلة الإعدادية والثانوية، وكانوا يتلقون إعانات زهيدة من الأوقاف المصرية، فتم ترتيب انضمامهم إلى الرابطة العمانية، على ألاَّ يشتركوا في الانتخابات. وتوجب على كل طالب من طلبة الشارقة، والذين يحصلون على منحة دراسية من الكويت، أن يدفع للرابطة مقدار ثلاثة جنيهات كل شهر، توزع عن طريق الرابطة على الطلبة غير الجامعيين الذين انضموا إلى الرابطة.

لم يجد أبو قصيدة أي وسيلة للاستيلاء على الرابطة إلا بعد مرور سنة كاملة على دخول الطلبة غير الجامعيين في الرابطة؛ حيث

تم ترتيب حفلة شاي حضرها عدد كبير من الطلبة الجامعيين وغير الجامعيين، وكنت يومها أنا رئيس الرابطة، وراشد بن سلطان المخاوي أمين الصندوق. وبينما نحن فرحون بذاك اللقاء، وإذا بأحدهم يأتي إليّ ويرمي عند قدميّ طبقاً به كعكة وبعض الفواكه، قائلاً:

«نحن لسنا شحاتين، حتى تتصدقوا علينا!».

قلت: «لا داعي لهذا الكلام، وليس من اللائق هذا التصرف». دفعني إلى الخلف، فدافع عني الطلبة الآخرون، وتشابك الجميع في عراك حتى انهزم الطلبة غير الجامعيين، فنزلوا على السلالم من الدور السادس، والجميع يتبعهم بالضرب والركل حتى خرجوا إلى شارع الجمهورية، فتبعناهم لمسافة ثم عدنا.

بعد أن تركنا الرابطة، كان الطلبة غير الجامعيين قد سجلوا محضراً، وأثبتوا بعلامات الضرب والاعتداء عليهم، وبالشهود من بواب العمارة والمحلات الموجودة بالشارع، وافتروا قائلين بأن الرابطة لهم، ونحن الذين استولينا عليها؛ فما كان من الشرطة إلاّ أن ختمت باب الرابطة بالشمع الأحمر.

في اليوم التالي أتاني راشد المخاوي قائلاً بأن فرّاش الرابطة اتصل به وأخبره بأن الرابطة قد خُتمت بالشمع الأحمر، كان ذلك في المساء، ولا يوجد أيّ موظف لدى الحكومة من ذوي الاختصاص لكي نشكي له حالنا في ذلك الوقت.

في صباح اليوم الثالث، ذهبت للمسؤولين المصريين وبيّنت لهم بأن هؤلاء الطلبة غير جامعيين، ولا يصح لهم الانتماء للرابطة حسب قوانين الروابط الطلابية؛ فأزالوا ختم الشمع الأحمر.

علم الطلبة غير الجامعيين بما حدث.. وعندما راجعوا المسؤولين المصريين أخبروهم بالأسباب، فما كان منهم إلاّ أن كسروا قفل مقر الرابطة واحتلوها، فاتصل فراش الرابطة براشد المخاوي ليخبره بما حدث؛ وإذا براشد يهرع إليّ وهو مستغرب من تصرفاتهم.

قلت له:

«أنت لست عُمانياً، وأنا كذلك لست بعماني، فلماذا نربط رأسينا بدون وجع؟!».

فتركنا الرابطة لهم.

انتهى الفصل الدراسي الثاني من السنة الثالثة بالنجاح. وفي الإجازة الصيفية، سافرت مع شقيقتي ناعمة وزوجها وأولادهما إلى لندن لنقضي فترة الصيف هناك.

القائمة السوداء

كنت في السنة الدراسية الرابعة ١٩٦٩-١٩٧٠م بكلية الزراعة، في الفصل الدراسي الأول؛ حيث كان علينا أن ندرس علم كيمياء التغذية الحيوانية، وفي أول درس عملي لتلك المادة كنت أول طالب في السنة الرابعة يوضع في «بلاك ليست» «Black List» القائمة السوداء، وكان قد اخترعها الدكتور محمد علي رأفت أستاذ علم كيمياء التغذية الحيوانية ليعاقب بها الطلبة.

بعد أن انتهى الدكتور المساعد من شرح مادة العملي لكيمياء التغذية الحيوانية، وقبل البدء بالتجارب، خرجت من المعمل وجلست أمام باب المعمل على كرسي في الردهة. كان ذلك الكرسي قد وضع

هناك للانتظار أمام باب الدكتور محمد علي رأفت. أخذت أدخن سيجارة فنقل الهواء الدخان إلى مكتب الدكتور محمد علي رأفت، فخرج إليّ بينما كنت أنقل مادة الدرس من كراسة المسودة إلى الكراسة الرئيسية الخاصة بي، ولم التفت إليه، فصاح بي: «فِزْ.. قم!».

وجرني من كتف البالطو.

نظرت إليه، وإذا به رجل قصير ضئيل، فضربته على يده ليتركني، ففتح باب المعمل وهو ينادي:

«يا محمد.. يا محمد!»

محمد عبدالمنعم، معيد في قسم كيمياء التغذية الحيوانية، عند تخرجه كان الأول على الكلية مع مرتبة الشرف، وكان زميلاً لمحمود عبدالنبي، الطالب العماني الذي عرّفني عليه.

التفَّ حولنا الطلبة، ومحمد عبدالمنعم يحاول أن يتدخل في المسألة، قائلاً:

«اترك الموضوع عليّ يا دكتور!».

الدكتور محمد علي رأفت: «مش ممكن.. والله لأضعه في بلاك ليست!».

قلت: «جاءت الطوبة على المعطوبة!».

الدكتور محمد علي رأفت: «بتنكت حضرتك؟ والله لأضع لك «بلاك ليست» مضاعفاً".

خرج الدكتور محمد علي رأفت مصطحباً محمد عبدالمنعم ليعطيه رقم بطاقتي. وبعد برهة رجع محمد عبدالمنعم وأخذ يطمئنني بأنه سيعالج الموضوع.

قلت: «يا أستاذ محمد، هي غرامة «بلاك ليست» بكم؟».

قال: «بخصم عشر درجات!».

قلت: «ومضاعف؟!" .

قال: «بخصم عشرين درجة!».

قلت: «وكم عدد درجات العملي؟».

قال: «عشرون درجة».

قلت: «السلام عليكم!».

وهممت بالخروج، وكان محمد عبدالمنعم ممسكاً بي.

قلت: «لم يبق لي من شيء هنا!».

قال: «أترك الموضوع عليّ، وأنا سأحل المشكلة».

مرت الأيام، وإذا بسيارة من طراز مرسيدس قديمة تتوقف أمام أحد المحال التجارية في شارع الدقي، فأوقفت سيارتي خلفها لأدخل ذاك المحل. وعندما نزل صاحب سيارة المرسيدس القديمة الطراز فإذا به الدكتور محمد علي رأفت. كان في حيرة من أمره، يتلفت يميناً ويساراً علّه يجد من يصلح سيارته. ثم جلس القرفصاء ينظر إلى أسفل السيارة. نزلت من سيارتي، وتوجهت إليه، وأمسكته من كتفه، قائلاً:

«قِز.. قم!».

قال: «فيه إيه؟».

أشرت إلى سيارتي، قائلاً له بلطف: «خذ سيارتي، وأعطني مفاتيح سيارتك لأصلحها وأرجعها إليك».

قال: «لا.. يكفي أن توصلني إلى الميكانيكي الذي تعودت أن أصلح سيارتي لديه».

أعطيته مفاتيح سيارتي، قائلاً له بأنه أدرى مني بالطريق إلى الميكانيكي.
ونحن في الطريق إلى الميكانيكي، قال لي:

«الوجه ليس بغريب عليّ! هل تقابلنا من قبل؟».

قلت: «نعم.. في بلاك ليست!».

قال: «فين؟!».

قلت: «أمام باب مكتبك.. في الأسبوع الفائت».

ضحك، وهو يقول: «يا خبر!!».

قلت: «اعذرني يا دكتور، فالمثل يقول: الذي لا يعرفك يجهلك. وأنا ظننت أن أحد الطلبة كان يمزح معي».

قال: «لا عليك.. مر عليّ بمكتبي غداً في الساعة العاشرة».

وفي الساعة العاشرة من اليوم التالي، طرقت باب مكتب الدكتور محمد علي رأفت، فأدخلني ورحب بي وضغط على زر جرس، فحضر بعدها عم بسطاوي.

الدكتور محمد علي رأفت:

«عم بسطاوي، شوف الأستاذ سلطان قهوته إيه».

قلت: «سادة!».

قال: «ليه؟».

قلت: «عشان أنا في بلاك ليست!».

ضحك الدكتور محمد علي رأفت، ثم قال: «عم بسطاوي.. خليها سكر زيادة!».

هرع عم بسطاوي إلى محمد عبدالمنعم، وقال له: «إلحق الأستاذ سلطان عند الدكتور محمد علي رأفت!».

طُرِق الباب، فدخل محمد عبدالمنعم، وقبل أن ينطق بادره الدكتور محمد علي رأفت قائلاً: «تعال يا محمد.. أعرفك على هذا الراجل الطيب».

قلت: "والذي بدون بلاك ليست!».

ضحك الدكتور محمد علي رأفت، وقال: «وبدون بلاك ليست».

هدم حصن الشارقة

قبل امتحان الفصل الأول من السنة الرابعة بكلية الزراعة، وكان يصادف شهر يناير سنة ١٩٧٠م، اتصل بي أحد الأصدقاء من الشارقة هاتفياً ليخبرني بأن حصن الشارقة قد بدأ الهدم فيه، فما كان مني إلا أن أسافر إلى الشارقة لإيقاف ذلك الهدم.

كان قد تبقى يومان عن موعد امتحانات الفصل الأول.

وصلت إلى الشارقة ليلاً لأصبح على موقع الحصن. لم يبق من الحصن إلا برج واحد يسمى برج «الكبس»، وجدار طوله بضعة أمتار كان متصلاً بالبرج.

أوقفت عملية الهدم، وسارعت إلى القصر لمقابلة الشيخ خالد بن محمد القاسمي حاكم الشارقة، وشرحت له ما يمثله ذلك الحصن بالنسبة لأهالي الشارقة.

وسألت الشيخ خالد: «لماذا تهدم الحصن؟».

قال: «لا أريد له أثراً». (كان يقصد الشيخ صقر بن سلطان القاسمي حاكم الشارقة الأسبق).

قلت: «الحصن أثر من آثار أجدادك وأجدادي، أما أثر الشيخ صقر بن سلطان فهو القصر الذي تسكنه أنت».

أفحم الشيخ خالد، وقال: «اذهب وأوقف عملية الهدم».

قلت: «لقد أوقفتها منذ الصباح الباكر».

رجعت إلى موقع الحصن، وأخذت أنقل تفاصيل مقاسات المباني التي يتكون منها الحصن.. وقد سهل عملية نقل المقاسات وجود الأساسات ظاهرة للعيان. كما جمعت الأبواب وبعض الشبابيك الخشبية، ثم دهنتها بمادة طاردة للحشرات، واحتفظت بها في مكان آمن، آملاً أن أعيد الحصن يوماً ما[1].

في اليوم الذي تبقى لي قبل الامتحان، ذهبت إلى مطار دبي، ومن هناك سافرت إلى بيروت عابراً إلى القاهرة. لكنني بعد أن وصلت إلى بيروت قال لي المسؤول في شركة الطيران بأنه لا يوجد لدي حجز للسفر إلى القاهرة، فحاولت مع جميع شركات الطيران أن أجد مكاناً لي حتى ولو اضطرني الأمر لأن أرحل إلى أوربا ومن هناك أعود إلى القاهرة، ولكن بدون فائدة.

كانت الساعة الواحدة صباحاً من يوم الامتحان، عندما أعلنت الخطوط الجوية السودانية عن رحلتها إلى القاهرة ومن ثم الخرطوم. قلت في نفسي لقد زرت ذلك المكتب واعتذر الموظف قائلاً: «العدد كامل.. لا يوجد أي مكان».

قلت لأجرب هذه الطريقة، ولو أنني أنزّه نفسي أن أعملها، لكن الموقف يتطلب ذلك، قال الشاعر:

---

١ أعدت بناء الحصن، ووضعت الأبواب والشبابيك الأصلية في مكانها الصحيح.. ولا تزال شاخصة هناك.

إذا لم تجد غير الأسنة مركباً فما حيلة المضطر إلا ركوبها

وضعت ورقة من فئة المائة دولار في جواز سفري، والذي يسبق اسمي فيه كلمة الشيخ، ودفعت بتذكرتي التي ليس بها حجز للقاهرة وجواز سفري وبه المائة دولار للموظف المسؤول عن الحجز بالخطوط الجوية السودانية، قائلاً: «لابد لي أن أصل القاهرة صباح هذا اليوم بأي وسيلة».

فتح الموظف جواز سفري.. وإذا به يقول: «مرحباً شيخنا!».

عندها كان ينظر إلى صورة «بنجامين فرانكلن» المطبوعة على الدولار.

شطب ذلك الموظف أحد أسماء الركاب، وطلب مني أن أدخل منطقة العبور إلى الطائرة.

في الطائرة كان إلى يميني أحد الركاب السودانيين، فطلبت منه ألا يوقظني، ولا أريد أي شيء من شرب أو مأكل.

بعد لحظات، وإذا بجاري السوداني يوقظني.

قلت: «ماذا تريد؟».

قال: «المضيفة تسألك إن كنت تريد أن تشرب أي شيء».

قلت: «قلت لك لا أريد أي شيء، اتركني أنام».

ثم أغفيت.

وبعد لحظات، وإذا به يوقظني.

قلت: «وماذا تريد هذه المرة؟».

قال: «المضيفة تسألك إن كنت تريد فطوراً».

قلت: «لا أريد شيئاً».

وأغفيت ثانية، وإذا به يوقظني..

قلت: «حرام عليك.. حرام عليك!».

قال: «حرام عليك أنت.. أنا لا أتحمل سماع شخيرك.. يا أخي طوال الوقت أنا واقف في الطائرة!».

صوت قائد الطائرة: «اربطوا أحزمة مقاعدكم.. سنصل مطار القاهرة بعد خمس عشرة دقيقة».

نزلت في مطار القاهرة. كانت الشمس قد بزغت.. فأسرعت أنهي إجراءات الدخول وركبت سيارة أجرة لأصل إلى البيت لآخذ بطاقتي وقلمي وأتوجه إلى الامتحان.

في الامتحان كنت مضطرباً جداً لدرجة أنني لم أوفق في تلك المادة.. فكانت ضربة حصن الشارقة.

أنهيت الفصل الأول من السنة الدراسية الرابعة بالنجاح في المواد المتبقية.

صاحب الروح المرحة

في الفصل الثاني من السنة الرابعة ١٩٦٩ – ١٩٧٠م، أي سنة البكالوريوس، كنا ندرس مادة الوراثة؛ والتي كان يقوم بتدريسها الأستاذ الدكتور أسامة محمود رفعت أستاذ الوراثة، صاحب الروح المرحة. وفي إحدى المحاضرات رسم لنا كاريكاتيراً بالكلمات، وكانت شخصية الكاريكاتير حسن أفندي عبدالسلام، حيث قال الدكتور أسامة:

«حسن أفندي عبدالسلام موظف حكومي، كان طول وقت الدوام

منشغلاً بالاحتجاج على الحكومة، وشاغلاً زملاءه بالاستماع إليه بأن الحكومة لا تفتكره، مع أن الحكومة تفتكره آخر كل شهر. ترد الملفات إلى المكتب الذي يجلس إليه حسن أفندي عبدالسلام، فإذا ما انتهى الدوام اختفى حسن أفندي عبدالسلام خلف الملفات.

إذا ما خرج حسن أفندي عبدالسلام من الدوام، بعد الظهر، لسعت الشمس الحامية قرعته، فما كان منه إلاّ أن أخرج منديله من جيبه وعمل منه ظليلة فوق رأسه، ممسكاً منديله من طرفيه ورافعاً يديه إلى أعلى،ومسرعاً لشراء بطيخة.

كل شعوب الأرض لها غطاء على رؤوسها إلاّ نحن!

يتعلق حسن أفندي عبدالسلام بيده اليمنى في الحافلة (الأوتوبيس)، واليسرى حاملة بطيخته. يدخل حسن أفندي عبدالسلام بيته، ويلبس في رجله قبقابه، فردة منه صالحة والأخرى قُطعت جلدتها، فيمسك، كالعادة، بما تبقى من الجلدة المقطوعة بأصابع رجله، ويسحب قبقابه. لو نظر حسن أفندي عبدالسلام في شوارعنا لوجد مليون مسمار يُصلح بها قبقابه.

الجواسيس الإسرائيليون

في الفصل الدراسي الثاني من السنة الدراسية الرابعة، كانت مادة الحدائق ونباتات الزينة للدكتور عبدالعليم شوشان في ذلك الفصل. وفي يوم من الأيام كنا في قسم الحدائق ونباتات الزينة، وأخذنا نلتقط الصور لبعضنا بعضاً، فكانت حدائق الزهور جميلة جداً مما دفعني إلى أن أحضر آلة تصوير ملونة استلفتها من زميلي السيد علي العويس،

وحضر معي السيد عبيد يوسف القصير، في عصر اليوم التالي، وأخذنا نلتقط الصور للأزهار والأشجار ولنا كذلك.. وإذا بحارس يلبس بالطو خاكي، يقول:

«ممنوع التصوير هنا!».

قلت: «لا يوجد ما يمنع التصوير. بالأمس كنا هنا نصور هذه الحدائق».

الحارس: «أنت.. من أين؟».

قلت: «من الكلية».

الحارس: «هل لديك بطاقة؟».

قلت: «نعم».

بحثت عن البطاقة فلم أجدها، فقلت: «نسيتها بالبيت».

الحارس: «إمشوا أمامي إلى حرس الكلية».

قلت: «أنا طالب معروف في الكلية».

وصادف مرور دكتور من قسم الصناعات الغذائية، فقلت:

«حتى اسأل هذا الرجل». والتفتُّ للدكتور محمد قائلاً: «دكتور محمد، تعرفني؟!».

الدكتور محمد: «نعم أعرفك».

الحارس: «هذا يصور منشآت عسكرية!».

الدكتور محمد، وهو يهرب: «ما اعرفوش.. ما اعرفوش».

قلت للدكتور محمد: «يا جبان!».

أخذنا الحارس إلى مكتب الضابط المناوب ببوابة كلية الزراعة فكان هناك (عريف)، ويقال له (أمباشي)، اتصل بالضابط المناوب في

بيته، وقال له: «ضبطنا جواسيس إسرائيليين يصورون المنشآت العسكرية!».

تدخلت لأسكته، أو بأمل أن يعطيني فرصة لأتحدث للضابط سالم لأني أعرفه حق المعرفة.

كانت الأوامر لذلك العريف من الضابط سالم أن يشمّع آلة التصوير، ويضع علينا حراسة، ويسلمنا لمباحث «الدقي».

بعد أن شمّع آلة التصوير، لم يجد سيارة تنقلنا إلى مباحث الدقي، فاقترحت على العريف أن يركب العسكري معي في سيارتي ونذهب جميعاً إلى مباحث الدقي.

جلست في المقعد الأمامي لأقود السيارة، والسيد عبيد القصير إلى جانبي؛ أما العسكري فقد جلس على المقعد الخلفي واضعاً فوهة رشاشه خلف رقبتي، حتى إذا ما وصلنا إلى مفارق الطرق بعد حديقة «الأورمان»، فكان هناك أمامي ثلاثة بدائل لأسلكها:

١- طريق إلى اليمين، يوصل إلى مديرية أمن الجيزة.

٢- طريق إلى اليسار، وهو «شارع الدقي»، ويوصل إلى مباحث الدقي.

٣- طريق في الوسط، بين الطريقين المذكورين، وهو شارع «المساحة»، ويؤدي إلى سكني.

سلكت شارع المساحة. وإذا بالعسكري يصرخ، وهو يدفع فوهة الرشاش إلى رقبتي:

«ارجع.. خذ يسار.. خذ شارع الدقي!».

قلت: «سأذهب إلى بيتي لأحضر جواز سفري، ومن ثم نذهب

إلى مباحث الدقي».

وبينما نحن نسير في شارع المساحة، تحدث السيد عبيد القصير، قائلاً:

«جواسيس إسرائيليون!! هم الجواسيس إذا أرادوا أن يصوروا شيئاً يكونوا حاملين آلة تصويرهم أمام الناس؟! عجيب والله أنتم ما تفهمون؟!».

العسكري للسيد عبيد: «تسكت وإلا أعطيك على حنطور عينك؟».

أوقفت السيارة أمام البناية التي أسكن بها، وقلت للعسكري:

«سأذهب لإحضار جواز سفري وأرجع إليك».

فحوّل فوهة رشاشه إلى رقبة السيد عبيد القصير!

تأخرت وأنا أبحث عن جواز سفري، فقال العسكري:

«تأخر صاحبك!».

قال السيد عبيد القصير: «سأذهب وأناديه!».

قال العسكري: «لا، على الأقل أسلم على واحد».

وصلنا إلى مقر مباحث الدقي، بعد أن أحضرت جواز سفري وبطاقة الكلية. وهناك اقتادونا إلى الدور الذي تحت الأرض، ولمدة ساعة من الزمن. وإذا بعسكري آخر يأخذنا إلى الدور الثاني، حيث قابلنا رائداً يدعى جمال سالم، طلب منا أن نخرج الفيلم من آلة التصوير، فسلّمه السيد عبيد القصير الفيلم بعد أن أخرجه من آلة التصوير. أما أنا فقد سلّمته جواز سفري وبطاقة الكلية الخاصة بي، فدخل بهما مكتباً ملاصقاً لمكتبه، وتركنا ننتظر في مكتبه.

بعد برهة من الزمن رجع إلينا الرائد جمال سالم، فأعاد إليّ جواز

سفري وبطاقتي، وأرجع للسيد عبيد القصير الفيلم، وطلب منا أن نقابل رئيسه في العمل.. لا أتذكر اسمه.. وقد استقبلنا استقبالاً طيباً، واعتذر عن التصرفات التي بدرت من الحارس بالكلية.

ما إن وصلت إلى بيتي ليلاً، فإذا بجرس الهاتف يرن باستمرار. كان على الطرف الآخر من الهاتف الرائد شوكت حسني:

«حمداً لله على السلامة!».

قلت: «وأنت، ما أدراك ؟!».

قال: «كانوا يسألوني عنك».

في صباح اليوم التالي، كان حديث الكلية حكاية الجواسيس الإسرائيليين.

بعد أن أوقفت سيارتي أمام باب الكلية، وإذا بعم إبراهيم، البواب، يسرع ليفتح لي باب سيارتي، قائلاً:

«أستاذ سلطان، مش ضبطوا جاسوسين إسرائيليين في الكلية إمبارح!».

قلت: «اللذان ضبطوهما بالأمس أنا وزميل لي، كنا نصور حدائق نباتات الزينة».

وإذا بالضابط المناوب يخبرني عن الجواسيس والطلبة والطالبات يخبروني كذلك، وأنا أرد عليهم واحداً واحداً، مما اضطرني إلى أن أمسك بالميكرفون في «مدرج الحشاد»، وكان يستوعب لأكثر من ألف طالب وطالبة، قبل المحاضرة، وأخذت أشرح لهم ما حدث. بعد أن انتهت المحاضرة، خرجنا إلى الطريق العام الفاصل بين قسمي الكلية، وإذا برتل من الدبابات يمر من أمامنا، والطلبة والطالبات يصيحون:

«طلَع.. طلَع.. يا سلطان!». كانت تلك الدبابات مخفية تحت أشجار البرتقال المتراصة في البساتين.

انفجار قنبلة

أنهيت دراستي في السنة الرابعة، وقد توجّب عليّ أن أعيد السنة بثلاث مواد.

قضيت فترة الصيف في القاهرة، وقد وصل إلى علمي أن قنبلة موقوتة ستوضع تحت كرسي الشيخ خالد بن محمد القاسمي حاكم الشارقة، واستشرت الشيخ محمد بن سلطان القاسمي، والذي كان يقضي فترة الصيف مع عائلته في القاهرة، فأشار عليَّ أن أكتب للشيخ خالد مباشرة رسالة تحذِّره مما سيحدث.

كتبت الرسالة وسلّمتها لأحد الأصدقاء إذ كان متوجهاً للشارقة. وطلبت منه أن يسلمها إلى يد الشيخ خالد.

قال صديقي، لـمّا سألته بالهاتف، بأنه سلّم الرسالة إلى يد الشيخ خالد في اليوم الحادي عشر من يوليو سنة ١٩٧٠م.

في صباح يوم الجمعة المصادف السابع عشر من يوليو سنة ١٩٧٠م، كانت عادة الشيخ خالد، في مثل ذلك اليوم، أن يحضر إلى المجلس في الساعة العاشرة صباحاً، وقد تدخّلت القدرة الإلهية أن تنفجر القنبلة الموقوتة والموضوعة تحت الأريكة التي يجلس عليها الشيخ خالد في تمام الساعة التاسعة صباحاً، قبل قدوم الشيخ للمجلس. تناثرت الأريكة والكراسي التي بجانبها في صورة قطع صغيرة، وتحطّم زجاج نوافذ المجلس وأبوابه، ولم يُصب أحدٌ بأذى.

بدأت الدراسة لإكمال المواد المطلوب إعادتها لإكمال السنة الرابعة في شهر سبتمبر سنة ١٩٧٠م، وانتهت في بداية شهر يونيو سنة ١٩٧١م. قضيت صيف سنة ١٩٧١م في القاهرة والإسكندرية، وكان معي والدتي وشقيقتي ناعمة وأولادها، وفي منتصف شهر أغسطس سنة ١٩٧١م، عدتُ إلى الوطن.

الفصل الرابع عشر

الوطن

عدت إلى الشارقة في منتصف أغسطس سنة ١٩٧١م، بعد أن أكملت دراستي في كلية الزراعة بجامعة القاهرة.

وذات يوم أوقفت سيارتي عند أحد محال البقالة في شارع العروبة، وأذا بسائق سيارة أجرة من أبوظبي يقف يسألني عن الطريق إلى مطار الشارقة. كان هناك رجل أجنبي يجلس في تلك السيارة، وكان متعباً من طول الطريق غير المعبد.

أسرعت بزجاجة مرطبات من المحل وقدمتها له. نزل الرجل من السيارة وقدم نفسه قائلاً: «اسمي كارل هجّز» Carl Hegges» من كلية الزراعة قسم نباتات الاراضي الجافة بجامعة أريزونا، بأمريكا، لدينا مشروع زراعي بالسعديات في أبوظبي، وهو الزراعة في الصوب الزجاجية المبردة.

قدمت نفسي قائلاً: "أنا سلطان بن محمد القاسمي، مهندس زراعي، خريج كلية الزراعة بجامعة القاهرة. وقد تخرجت

حديثاً، فهل لي أن أوصلك بنفسي إلى المطار؟».

تردد «كارل هجّز» في الذهاب معي إلى المطار لولا تدخل صاحب المحل قائلاً له: «هذا شقيق الحاكم، لا تخف».

ركب معي كارل هجّز في السيارة، حيث أوصلته إلى المطار ليستقل الطائرة المتجهة إلى مسقط، والتي لم تصل بعد؛ فجلسنا في استراحة المطار نتحدث عن المشروع الزراعي بالسعديات في أبوظبي. بعد ذلك عرض عليّ أن التحق بكلية الزراعة قسم نباتات الأراضي الجافة بجامعة أريزونا بأمريكا لدراسة الماجستير، فقبلت ذلك العرض على أن تتم المراسلات بينه وبيني لترتيب الالتحاق بجامعة أريزونا[1].

مدير مكتب سمو الحاكم

في بداية شهر أكتوبر سنة ١٩٧١م طلب الشيخ محمد بن سلطان القاسمي أن يتحدث إليّ في الموضوع التالي:

يقول الشيخ محمد بن سلطان القاسمي بأنه عندما زار الشيخ خالد بن محمد القاسمي حاكم الشارقة أخبره بأنه سيعين مختار التوم مدير بلدية الشارقة مديراً لمكتب سمو حاكم الشارقة، فاعترض الشيخ محمد بن سلطان القاسمي على ذلك قائلاً: «إن سلطان بن محمد القاسمي قد عاد من القاهرة، ولم يُعيَّن في أيّ منصب في الحكومة، وهو أنسب شخص يكون مديراً لمكتب سمو الحاكم».

يقول الشيخ محمد بن سلطان القاسمي بأن الشيخ خالد بن محمد القاسمي ردّ عليه قائلاً: «عليك أن تقنعه ليقبل ذلك المنصب».

---

١ استمرت علاقة المؤلف بكارل هجّز حتى يومنا هذا.

التفت الشيخ محمد بن سلطان القاسمي إليّ قائلاً: «أرجوك أن تقبل هذا المنصب؛ لأنه حساس جداً لاتصاله بالمواطنين»..

فقبلت...

كان مكتب سمو حاكم الشارقة عبارة عن "فيلا" على شارع الكويت بحي «الفيحاء» في مدينة الشارقة، بعيداً عن مجلس الشيخ خالد، حيث ترد الوفود زرافات ووحدانا، تبحث أمرين مهمين: مناقشة تأسيس اتحاد الإمارات العربية، وقضية جزيرة «أبو موسى»، ولم أكن أعلم أي شيء عن تلك المباحثات، حيث كنت طوال تلك المدة في القاهرة؛ لذلك وجب عليّ أن أدرس موضوعين رئيسيين هما:

١- تأسيس دولة الإمارات العربية المتحدة

٢- قضية جزيرة أبو موسى

١- تأسيس دولة الإمارات العربية المتحدة

كانت إمكانيات قيام اتحاد ست إمارات (دون رأس الخيمة، والتي تمنّعت عن الدخول في الاتحاد) قد تحققت بعد استقلال البحرين وقطر، بعد أن كانتا ضمن مشروع اتحاد الإمارات التسع.

كان الاتفاق بين الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان حاكم أبوظبي، والشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم حاكم دبي، والذي تمَّ توقيعه بينهما، قد أسرع في قيام اتحاد الست إمارات.

في يوم الأحد الثامن عشر من شهر يوليو سنة ١٩٧١م، عُقد اجتماع حكام الإمارات: الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان حاكم أبوظبي، والشيخ راشد بن سعيد المكتوم حاكم دبي، والشيخ خالد

ابن محمد القاسمي حاكم الشارقة، والشيخ محمد بن حمد الشرقي حاكم الفجيرة، والشيخ حميد بن راشد النعيمي ولي عهد عجمان، والشيخ راشد بن أحمد المعلا ولي عهد أم القيوين، وقد تمّ التوقيع على الدستور المؤقت لاتحاد الإمارات العربية.

٢- قضية جزيرة أبو موسى

كان النقاش حول قضية أبو موسى يتسارع لإيجاد حل بين الشيخ خالد بن محمد القاسمي حاكم الشارقة وشاه إيران، وكان «سير وليام لوس» المبعوث البريطاني الخاص بخصوص مستقبل جزيرة أبو موسى قد أتمّ إعداد البيان الذي سيرتب وضع جزيرة أبو موسى منذ مايو سنة ١٩٧١م؛ لكن التزمّت الإيراني عطّل النقاش حول قضية أبو موسى.

أما الشيخ خالد بن محمد القاسمي فقد قام بتاريخ الثامن عشر من أغسطس سنة ١٩٧١م بإرسال رسائل لجميع ملوك ورؤساء الدول العربية، مبيّناً فيها ما توصلت إليه بريطانيا مع إيران بشأن وضع جزيرة أبو موسى.

لم يتلق الشيخ خالد بن محمد القاسمي ردوداً على رسائله إلا من الرئيس جعفر النميري رئيس جمهورية السودان والذي بارك الاتفاق، ورسالة من الملك فيصل بن عبدالعزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية والتي كان فحواها بأنه ينبغي أن تُحل المشكلة حلاً سلمياً مع إيران. أما الملك حسين ملك المملكة الأردنية الهاشمية فكان ردّه بأن الأردن سيبذل كل جهد ممكن لتحسين العلاقات العربية الإيرانية. أما عبدالخالق حسّونة الأمين العام للجامعة العربية فقد كان ردّه أن

تقوم الحكومات العربية بالاتصال بالحكومة الإيرانية.

كلفني الشيخ خالد بن محمد القاسمي أن أنقل صورة من رسالة الملك فيصل إلى الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان حاكم أبوظبي. سافرت إلى أبوظبي يوم الخامس عشر من أكتوبر سنة ١٩٧١م لأقابل السيد أحمد بن خليفة السويدي في مكتبه في قصر "المنهل"؛ وقد حضر اللقاء السيد حمودة بن علي، والذي كان أحد المسؤولين عن الأمن في أبوظبي وقتها. تم ترتيب اللقاء بالشيخ زايد بن سلطان آل نهيان في صباح اليوم التالي، وأن أقيم في الضيافة حتى يحين موعد اللقاء.

أقيمت حفلة في تلك الليلة أحيتها السيدة «أم كلثوم»، وقيل إنها بمناسبة يوم جلوس الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، وقد طلب السيد أحمد السويدي مني الحضور، فحضرت.

في اليوم التالي مرّ بي السيد أحمد السويدي، واصطحبني معه لمقابلة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان في الصباح الباكر في مجلس بيت والدته، حيث كان يزورها في ذلك الوقت. قابلت الشيخ زايد، وكان ذلك أول لقاء بيننا، فسلّمته صورة من رسالة الملك فيصل. وبعد أن قرأها دار حديث بينه وبيني في حضور السيد أحمد السويدي، تبيّن لي من حديثه أنه غير راضٍ عن الترتيبات حول جزيرة أبو موسى.

بعد عدة أيام تم تكليفي بنقل صورة من رسالة الملك فيصل وتسليمها إلى الحكومة المصرية. وفي مصر قابلت السيد محمود رياض وزير الخارجية المصرية وسلّمته صورة من رسالة الملك فيصل.

عدت من القاهرة في نهاية شهر أكتوبر سنة ١٩٧١م. وفي الأول من

شهر نوفمبر سنة ١٩٧١م، نشرت جريدة «الخليج» - المؤسسة على يد الأخوين تريم بن عمران وعبدالله بن عمران، والمرخّصة بالشارقة، والتي يتم طبعها في الكويت - أجزاء من المباحثات السرية الدائرة بين الشيخ خالد بن محمد القاسمي حاكم الشارقة و«سير وليام لوس» المبعوث البريطاني الخاص بخصوص مستقبل جزيرة أبو موسى، وكذلك تصريحات على لسان الشيخ خالد بن محمد القاسمي، وفي الصفحة الأولى من تلك الجريدة، حيث ورد: إن الشيخ خالد رفض بشدة الاقتراح المقدم من «سير وليام لوس» المبعوث البريطاني الخاص بخصوص مستقبل جزيرة أبو موسى.

طُلِب من وزارة الإعلام في الكويت مصادرة عدد الأول من نوفمبر، والذي تم طبعه؛ وقد قُدّر بأربعة آلاف نسخة، وتمّ إعدامه. تناقلت وكالات الأنباء الخبر الذي نُشِر في جريدة الخليج، وتم نشره ثانية في صباح اليوم الثاني من نوفمبر. انزعج «سير وليام لوس» من الخبر عندما بلغه في مساء ذلك اليوم، وقام بالاتصال بالشيخ خالد بن محمد القاسمي، وأخذ يلح عليه بإلغاء ترخيص جريدة الخليج مباشرة. كان رد الشيخ خالد أن اتخاذ ذلك القرار سينتج عنه مشكلات أمنية داخلية، وتعهّد بأن الجريدة لن تنشر أي مقالات عن أبو موسى. كان السيد عبدالله بن عمران قد تعهّد أمام الشيخ خالد بن محمد القاسمي مساء ذلك اليوم بعدم نشر أي مقالات عن أبو موسى. لكن الإلحاح بإلغاء ترخيص جريدة الخليج كان مستمراً، حتى كتب السيد عبدالله بن عمران بصفته رئيس التحرير رسالة بتاريخ العاشر من نوفمبر سنة ١٩٧١م للشيخ خالد بن محمد

القاسمي يتعهد فيها بعدم نشر أي شيء عن المباحثات الجارية حول الجزر العربية.

اتفاقية أبو موسى

في تمام الساعة السابعة من يوم الثلاثين من نوفمبر سنة ١٩٧١م أعلن الشيخ خالد بن محمد القاسمي حاكم الشارقة بياناً مطولاً عن الاتفاق الذي تم بينه وبين الحكومة الإيرانية، وجاء في الترتيبات التي تمت:

١- إن هذه الاتفاقية لا تؤثر على رأي الشارقة في سيادتها على جزيرة أبو موسى.

٢- تقسَم الجزيرة إلى قسمين: قسم خاص بالشارقة، والآخر بإيران.

٣- إن علم الشارقة سيستمر يرفع على سارية شرطة الشارقة في الجزيرة.

٤- إن شرطة الشارقة وإدارة الجزيرة ستستمران على الجزء المتبقي بعد تقسيم الجزيرة.

٥- سيستمر المواطنون هناك تحت سلطة الشارقة.

في صباح يوم الأول من ديسمبر سنة ١٩٧١م توجّه وفد من الشارقة برئاسة الشيخ صقر بن محمد القاسمي نائب الحاكم لمقابلة الوفد الإيراني الذي نزل على الجزيرة. وفي مساء ذلك اليوم خرجت المظاهرات، ليس في الشارقة وحدها وإنما في معظم الإمارات، مستنكرة تلك الترتيبات.

عاد الوفد برئاسة الشيخ صقر بن محمد القاسمي نائب حاكم الشارقة بعد غروب شمس ذلك اليوم؛ وعندما همّ الشيخ صقر بن محمد القاسمي ليلاً بالدخول إلى بيته أطلقت عليه رصاصة اخترقت جسمه دون أن تسبب له أيّ أذى.

مولد دولة

كان مولد دولة الإمارات العربية المتحدة صباح يوم الثاني من ديسمبر سنة ١٩٧١م، عندما اجتمع حكام ست إمارات، (ما عدا حاكم رأس الخيمة) في مبنى الضيافة في «جميراء»؛ بعد أن وقّع كل حاكم في إمارته على إنهاء الاتفاقيات الخاصة بينه وبين بريطانيا يوم الأول من ديسمبر سنة ١٩٧١م؛ فباجتماع الحكام يكون قد انعقد أول اجتماع للمجلس الأعلى لدولة الإمارات العربية المتحدة، والذي قام بتفعيل الدستور المؤقت.

تمّ انتخاب الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيساً لدولة الإمارات العربية المتحدة، كما تمّ انتخاب الشيخ راشد بن سعيد المكتوم نائباً لرئيس دولة الإمارات العربية المتحدة. وكذلك تمّ تكليف الشيخ مكتوم بن راشد المكتوم رئيساً للوزراء.

في ذلك الاجتماع تمت مناقشة العلاقة بين الدولة الوليدة والحكومة البريطانية، وانتهى النقاش بتوقيع اتفاقية الصداقة بين دولة الإمارات العربية المتحدة والحكومة البريطانية.

خوّل أعضاء المجلس الأعلى للاتحاد الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان بصفته رئيساً للدولة، بالتوقيع على الاتفاقية إلى جانب المقيم

السياسي البريطاني في البحرين عن الجانب البريطاني.

في اليوم التاسع من ديسمبر تم تشكيل مجلس الوزراء برئاسة الشيخ مكتوم بن راشد المكتوم، ولقد كنت يومها وزيراً للتربية والتعليم.

أيام الشدة

١- يوم الاثنين الثامن من ذي الحجة سنة ١٣٩١هـ، الموافق للرابع والعشرين من يناير سنة ١٩٧٢م:

في صباح ذلك اليوم كنت في مكتبي بمكتب سمو الحاكم، عندما دخل عليّ خالد العلمي حاملاً حقيبته؛ ليخبرني بأن الشيخ خالد سيحضر إلى المكتب للتوقيع على الشيكات المصرفية لمرتبات الحكومة ومستحقات المقاولين، حيث العيد يصادف يوم السادس والعشرين من يناير سنة ١٩٧٢م. بعد برهة من الوقت، حضر بعض أفراد من الحرس الخاص التابع للشيخ خالد وأخبروني عن قدومه، وأنهم أتوا للتأكد من خلو المكان من المخاطر.

في الساعة الحادية عشرة من صباح ذلك اليوم حضر الشيخ خالد، وطلب من خالد العلمي أن يعرض عليه الأمور التي تتطلب التوقيع عليها، وطلب مني أن أجلس إلى جانبه؛ فإذا ما فرغ من التوقيع على جميع الشيكات التفت إلى خالد العلمي، قائلاً:

«من بداية الشهر القادم سيقوم سلطان بالتوقيع على جميع الشيكات».

خالد العلمي: «إنها مسؤولية كبيرة».

الشيخ خالد: «عندما يكون سلطان مكاني أطمئن أكثر، أنا أريد

أن أرتاح».

خالد العلمي: «ممكن يا طويل العمـر أن تسافر إلى مكان ترتاح فيه».

الشيخ خالد: «أريد راحة طويلة».

عند خروجنا من مكتب سمو الحاكم ظهراً، طلب مني الشيخ خالد أن أذهب معه لتناول طعام الغداء في القصر، حيث زوجته ليست بالقصر، فقد كانت مدعوة لوليمة.

في القصر طلب مني الشيخ خالد أن أنتظره في غرفة الجلوس لأنه يريد أن يغتسل.

قلت: «وأنا سأذهب إلى البيت لإحضار بعض الأوراق لعرضها عليك».

كانت الساعة تقترب من الثانية بعد الظهر، والبيت الذي أسكن فيه هو بيت الشيخ سعود بن سلطان القاسمي زوج شقيقتي، وهو ليس ببعيد عن القصر.

وعند خروجي من البيت متوجهاً إلى القصر، قابلت السيد راشد ابن علي بن ديماس، والذي طلب مني أن أوقع على الشيك المصرفي والذي لم يعرضه خالد العلمي على الشيخ خالد للتوقيع.

قال السيد راشد بن ديماس:

«إن خالد العلمي قد أخبرني بأن جميع الشيكات ستوقع من قِبل سلطان».

قلت: «ولكن من أول الشهر».

قال السيد راشد بن ديماس: «إن العلمي يقول بأنه سيرتّب

الأمر مع البنك».

قلت: «أنا ذاهب إلى القصر وسيوقّعه الشيخ خالد، وبعد الظهر سأرسل لك الشيك».

كانت الساعة الثانية والنصف عندما سمعنا إطلاق أعيرة نارية ناحية القصر.

تساءل السيد راشد بن ديماس، فقلت له بأن بعض العساكر يجرون بعض التمارين خلف القصر.

صوت انفجار قنبلة مع دخان على مدخل القصر حيث يسكن الشيخ، وكان القصر على ربوة، وبالإمكان مشاهدة مَنْ يدخل أو يخرج من باب القصر من بيت الشيخ سعود بن سلطان القاسمي، حيث هو كذلك على ربوة.

طلبت من السيد راشد بن ديماس أن يركب إلى جانبي، واتجهت إلى بوابة القصر الجانبية التي أعدت لدخول العائلة والمستخدمين، والتي دخل منها المعتدون على القصر، وهي البوابة الوحيدة لدخول القصر؛ حتى إذا ما وصلت قريباً من تلك البوابة وإذا بإطلاق نار من رشاش مَنْ كان هناك على سيارتي، مما اضطرنا أن نخفض رؤوسنا، وأن أغيّر اتجاه السيارة نحو حي الفيحاء، حيث سكن القائد الإنجليزي لشرطة الشارقة السيد «بيرنز» «Burns»، وكلفته بإحضار القوات الاتحادية. ورجعت إلى بيت شقيقتي ناعمة بنت محمد القاسمي، والتي كانت تتحدث مع شقيقها الشيخ خالد عند بداية الهجوم، حيث قال لها: «صقر بن سلطان داخل القصر».

اتصلت بشقيقي الشيخ صقر بن محمد القاسمي، وكانت شقيقتي

قد أخبرته بما جرى، وسألته: "هل المسؤولية لديك؟".

قال لي: «المسؤولية لديك أنت، أما أنا فمشغول بإطلاق النار؛ حيث أحاصر القصر من الجهة الجنوبية، والعساكر المتواجدون في مرافق المجلس العام يحاصرون القصر من الجهة الشمالية».

كان شقيقي الشيخ صقر بن محمد القاسمي قد اتخذ من سطح منزله المقام على تلة، والذي كان يشرف على قصر الحاكم، موقعاً لإطلاق النيران من رشاشين بأرجل، ولمسافات بعيدة.

في تمام الساعة الثالثة والنصف من بعد الظهر، أي بعد ساعة من وقوع الحدث، وصلت القوات الاتحادية يرافقها قائد شرطة الشارقة إلى مدخل منزل الشيخ سعود بن سلطان القاسمي حيث كنت حاضراً هناك. وبينما كنت أخبرهم بأن مجموعة من الرجال يقودهم الشيخ صقر بن سلطان القاسمي حاكم الشارقة السابق والذي نفاه الإنجليز من الشارقة قبل عدة سنوات، قد دخلت القصر، وإذا بإطلاق النار يندلع من القصر، وسمعنا صوت قنبلتين يدويتين في ساحة القصر. كانت هناك محاولات من قبل بعض القوات الخاصة التابعة لحراسة الشيخ، والتي أُرسلت لاحتلال الجدار الخارجي للقصر، جوبهت بإطلاق نار مركز.

كان الموقف صعباً جداً؛ حيث يتواجد في القصر الشيخ خالد بن محمد القاسمي وأولاده والخدم، لذلك طلبت من قائد فرقة القوات الاتحادية أن يتجنب أي تصرف ينتج عنه إصابة الشيخ خالد وأولاده بأذى.

بعد التأكد من أن أولاد الشيخ خالد بن محمد القاسمي قد انتقلوا إلى الفيلا الموجودة بحوش القصر في بداية الهجوم، صدرت الأوامر

بالهجوم على القصر بواسطة القوات الاتحادية وأفراد حرس قصر الشارقة، وتمّ احتلال بوابة القصر الجانبية وجميع أسوار القصر في زخات من إطلاق نار ودخان كثيف للتغطية.

تمت محاصرة القصر وساحاته الداخلية بالكامل، وشُلت الحركة في القصر، لاستمرار إطلاق النار على النوافذ، فكان الرصاص يعبر الممرات والصالات والغرف الأخرى داخل القصر.

في الساعة الرابعة والنصف من فجر اليوم التالي، وصل إلى بيت الشيخ سعود بن سلطان القاسمي الشيخ محمد بن راشد المكتوم وزير الدفاع لدولة الإمارات العربية المتحدة، مصطحباً الممثل السعودي السيد عبدالله الفضل الذي أتى بعرض من الملك فيصل ابن عبدالعزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية للشيخ صقر ابن سلطان القاسمي، وهو أنه سيؤخذ إلى المملكة العربية السعودية إذا سلّم الشيخ خالد بن محمد القاسمي سالماً.

طلب مني الشيخ محمد بن راشد المكتوم أن آخذه إلى حيث يوجد الهاتف ليتحدث للشيخ صقر بن سلطان القاسمي ومعه السيد عبدالله الفضل.

تحدث الشيخ محمد بن راشد المكتوم مع الشيخ صقر بن سلطان القاسمي من خلال الهاتف وعرض عليه العرض السعودي، لكن الشيخ صقر بن سلطان القاسمي رد قائلاً:

«إن الشيخ خالد بن محمد القاسمي قد قُتل!».

الشيخ محمد بن راشد المكتوم: «إذن سلّم نفسك».

في الساعة السادسة صباحاً سلّم الشيخ صقر بن سلطان القاسمي

ومن معه أنفسهم فأودعوا السجن.

٢- يوم الثلاثاء التاسع من ذي الحجة، يوم عرفة، سنة ١٣٩١هـ، الموافق للخامس والعشرين من يناير سنة ١٩٧٢م:

جاء مَنْ يسألني في صباح ذلك اليوم:

«أين سيكون اجتماع العائلة؟».

فقلت: «في منزل الشيخ حمد بن ماجد القاسمي».

ثم سأل: «وفي اي ساعة؟»

فقلت: «في الساعة الحادية عشرة صباحاً».

قبل الساعة الحادية عشرة صباحاً خرجت من منزل الشيخ سعود بن سلطان القاسمي حيث أسكن، عاقداً العزم على المشاركة في اجتماع العائلة، وإذا بي أجد أمام بوابة منزل الشيخ سعود حشداً من العساكر الذين كانوا تابعين للمرحوم الشيخ خالد، وإذا بسيارته، وسائقها والمرافق العسكري للمرحوم والذي كان فاتحاً باب سيارة المرحوم، ثم أغلقه بعد أن دخلت بها.

دخلت مجلس الشيخ حمد بن ماجد القاسمي، وإذا بأفراد عائلة القواسم قد اغتص المكان بهم إلاّ من مكان واحد على الأريكة الرئيسية في صدر المجلس، حيث كان كبير العائلة الشيخ خالد بن خالد القاسمي يجلس على جهة اليسار منها. فأخذت مكاني على الأريكة الرئيسية في صدر المجلس.

تحدث الشيخ خالد بن خالد القاسمي، وهو جالس، عن أمورٍ تخص العائلة. بعد ذلك وقف الشيخ محمد بن سلطان القاسمي حيث كان يجلس في وسط الصف الذي في الجهة اليسرى من المجلس، قائلاً:

«هناك أمور أهم من ذلك، فسفينتكم في خطر، تحتاج إلى من يقودها إلى بر الأمان. لا أقول لكم كبيرنا أو صغيرنا، وإنما أقول من يستطيع تحمّل المسؤولية؛ إنه سلطان بن محمد القاسمي».

ضجّ المجلس بكلمات الموافقة بالإجماع. أما أنا فقد كنت في صمت كان سيطول، لولا أن تقدم الشيخ محمد بن سلطان القاسمي نحوي، ومدّ يده إليّ لأصافحها، فصافحتها، وجلست معه على الأريكة. انهال أفراد العائلة عليّ بالتقبيل والتبريك، بينما كان الشيخ محمد بن سلطان القاسمي ممسكاً بيدي لم يتركها حتى قبّلني. عندها قلت:

«أعينوني لكي أكون ابناً باراً لكبيركم، وأخاً وفياً لأوسطكم، وأباً حنوناً لأصغركم».

٣- يوم الأربعاء العاشر من ذي الحجة، يوم عيد الأضحى، سنة ١٣٩١هـ، الموافق للسادس والعشرين من يناير سنة ١٩٧٢م:

في الصباح الباكر من ذلك اليوم، هُرع الناس إلى مصلى العيد بالشارقة. أقيمت صلاة العيد، فصلينا، وأُلقيت خطبة الجمعة، فاستمعنا، فكان جلّها ذكر محاسن المتوفى والدعاء له بالغفران.

بعد ذلك تمت صلاة الجنازة، ونُقل الجثمان إلى مقبرة الجبيل، حيث قمنا بدفنه. رحمه الله، عاش بيننا تقياً عفيفاً.

في المجلس العام، استقبلت الناس بين معزٍّ ومهنّئ:

- أحسن الله عزاءكم.
- نهنئكم بالعيد.
- جبر الله خاطركم.
- نهنئكم بالحكم.

الدكتور سلطان بن محمد القاسمي

- حاكم إمارة الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة، منذ عام ١٩٧٢م.
- عضو المجلس الأعلى لاتحاد دولة الإمارات العربية المتحدة، منذ عام ١٩٧٢م.
- البكالوريوس في العلوم، تخصص الهندسة الزراعية، جامعة القاهرة، مصر، ١٩٧١م.
- دكتوراه الفلسفة في التاريخ بامتياز، جامعة إكسيتر، إكسيتر، المملكة المتحدة، ١٩٨٥م.
- دكتوراه الفلسفة في الجغرافية السياسية للخليج، جامعة درم، درم، المملكة المتحدة، ١٩٩٩م.
- الرئيس الأعلى لجامعة الشارقة، منذ عام ١٩٩٧م.
- الرئيس الأعلى للجامعة الأمريكية في الشارقة، منذ عام ١٩٩٧م.